

نَفَحَاتُ الْقُرْآنِ

الجزء الثامن

النُّبُوَّةُ الْخَاصَّةُ فِي الْقُرْآنِ

أُسْلُوبٌ جَدِيدٌ فِي التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

سَمَاحَةُ الْعَالِمَةِ الْمُحَقِّقَةِ الشَّيْخِ نَاصِرِ كَارِمِ الشِيرَازِيِّ

بِمُسَاعَدَةِ مَجْمُوعَةِ مُنْتَخَلِي

بمساعده العلماء الافاضل وحجج الاسلام السادة:

محمد رضا الآشتياني .

محمد جعفر الامامي .

عبد الرسول الحسني .

محمد الاسدي .

حسين الطوسي .

سيد شمس الدين الروحاني .

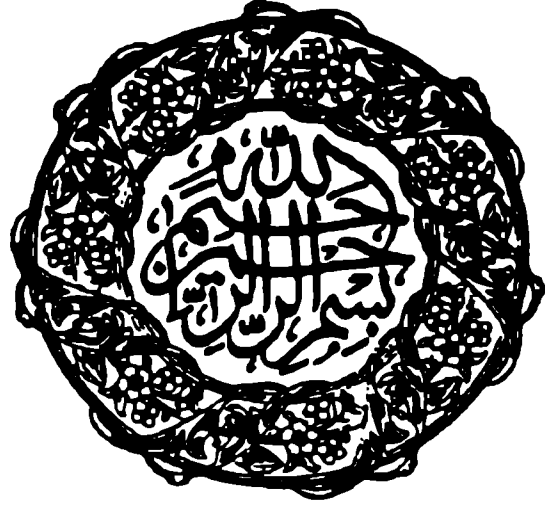
محمد محمدي الاشتهاري .



هوية الكتاب

- الكتاب نفحات القرآن / ج ٨
- المؤلف آية الله العظمى مكارم الشيرازي
- عدد النسخ ٢٠٠٠
- قطع وزيري ٤٠٠ صفحة
- المطبعة الحيدري
- الناشر مؤسسة أبي صالح للنشر والثقافة

شابك: ٩٦٢-٩٠١٥٩-٧-٣



الاهداء:

الى الذين يعشقون القرآن .
الى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر .
والى الذين يريدون ان يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر .

سماحة العلامة المحقق
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

نفحات القرآن

اسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

الجزء الثامن
النبوة الخاصة في القرآن

بمساعدة
مجموعة من الفضلاء

المقدمة

ما هو التفسير الموضوعي ؟

وما هي المشكلات التي يعالجها ؟

إنّ الجواب على هذين السؤالين له الاثر الكبير في فهم مواضيع مثل هذا الكتاب بشكل أصحّ وأفضل ، وما لم يتضح الجواب على هذين السؤالين لا يمكن معرفة الهدف الذي ترمي اليه مثل هذه الكتب .

اما بالنسبة للجواب عن السؤال الاول فنودّ ان نُذكر بأن المدّة التي تنزل فيها القرآن المجيد دامت (٢٣) سنة ، وذلك نظراً للمتطلبات والظروف الاجتماعية المختلفة والأحداث المتنوعة ، فكان القرآن يسير وفقاً لتطورات المجتمع الاسلامي .

إن اكثر الآيات والسور التي نزلت في مكة كانت ترمي الى تركيز دعائم الايمان وترسيخ الاعتقاد بالتوحيد والمعاد ، وكانت تختص بالهجوم الشديد والمستمر ضد الشرك وعبادة الاوثان ، بينما ركزت الايات والسور التي نزلت في المدينة - وذلك بعد تأسيس الحكومة الاسلامية طبعاً - على وضع القوانين الاجتماعية والعبادية والسياسية وتأسيس بيت المال والنظام القضائي الاسلامي والشؤون المتعلقة بالحرب والهدنة والجهاد ضد المنافقين وامثال ذلك من الامور التي كان الدين الاسلامي يواجهها .

ومن البديهي إن المسائل المذكورة لم توضع على شكل رسالة لبيان الاحكام الشرعية او على شكل كتاب منهجي كما هو المتعارف ، بل كانت الآيات تنزل وفقاً للمتطلبات

والمناسبات والحاجات ، فإننا نرى مثلاً احكام الجهاد وفنون القتال واحكام المعاهدات والاسرى والفدية وامثال هذه الامور نزلت متفرقة وبشكل غير مرتب ؛ وذلك لانها نزلت مناسبة لكل غزوة ومتطلباتها ، كما هو الحال في وصفات العلاج التي يكتبها الطبيب الماهر ، فإنه يصفها للمريض في كل يوم بما يناسب حاله حتى يصل الى الشفاء التام. فلو فسرنا آيات القرآن الكريم في آية سورة من السور بالترتيب الذي نزلت عليه فهذا التفسير يسمى بـ«التفسير الترتيبي» ، واما اذا جمعنا الآيات المختصة في «موضوع» واحد من سائر سور القرآن ووضعناها على شكل فصول وفسرناها فهذا التفسير يسمى بـ«التفسير الموضوعي». فمثلاً اذا جُمِعَتْ كل آيات الجهاد التي نزلت خلال عشر سنين من السور المدنية ، او جُمِعَتْ الآيات الخاصة باسماء وصفات الله التي نزلت خلال (٢٣) سنة من جميع سور القرآن، وُضِمَتْ الى بعضها ، وُفُسِّرَتْ بعضها البعض الآخر فإن هذا يسمى بالتفسير الموضوعي بينما لو فُسِّرَتْ كل آية في موضعها وبشكل مستقل فإن هذا هو التفسير الترتيبي ، إن كل واحد من هذين النوعين له مزايا وآثار بحيث لا يمكننا الاستغناء عن احدها بالآخر كما يقول المثل «لكل مقام مقال» ، إن كلا النوعين من التفسير لازم وضروري للباحثين في القرآن الكريم . (ومن الطبيعي ان يُقَدَّم التفسير الترتيبي في البداية على التفسير الموضوعي) .

مزايا « التفسير الترتيبي » :

تُعرف اغراض الآيات ومفاهيمها من خلال زمان ومكان النزول ، مع ضمّها الى ما قبلها و ما بعدها من الآيات ، ومن خلال القرائن الداخلية والخارجية ، وبدون هذا لا يمكن فهم معنى الآية بدقّة. وبعبارة اخرى فإن التفسير الترتيبي ينظر بدقّة الى كل آية في موضعها الذي نزلت من اجله ، ويأخذ بنظر الاعتبار صِلَتها بحياة المجتمع الاسلامي وتطوره وتكامله، وتكشف هذه الصلة بدورها عن مسائل كثيرة .

بينما في التفسير الموضوعي تخرج الآيات عن قالبها الجزئي وتأخذ موضعها في قالب كلي وتبتعدُ الى حد كبير عن موضعها الذي نزلت من اجله ، وعلى ذلك فإن التفسير الموضوعي يمكنه ، أن يرفع الستار عن الامور التالية :

١ - بجمع الابعاد المنتشرة في طبّات الآيات المختلفة للموضوع ، وينظر الى المواضيع

بشكلها المتعدد الابعاد ، وهذا ينتهي طبعاً باستخراج حقائق جديدة لتلك المواضيع .

٢ - يطرد الابهامات التي تُشاهد في بادئ الامر في بعض الآيات طبقاً للمبدأ القائل بأن «القرآن يفسّر بعضه بعضاً» .

٣ - يُمهّد للخوض في نظرية المعرفة الاسلامية بشكل عام وفي كل مسألة من مسائلها .

٤ - لا يمكن رفع النقاب عن الكثير من اسرار القرآن الخفية الاً من خلال التفسير

الموضوعي ، ولا يتيسر الخوض في اعماق آياته - على قدر الطاقة البشرية - الاً بواسطته .

وبناءً على هذا فإن أيّ مسلمٍ مهما بلغ من المعرفة والتعمّق لا يمكنه الاستغناء عن كلا

هذين النوعين من التفسير وبالرغم من ان التفسير الموضوعي كان موضع اهتمام منذ اقدم

الأيام بل حتى في عصر أئمة الهدى : ، فقد كتب علماء الاسلام في هذا المجال كُتباً جمّة

ككتب «آيات الاحكام» التي تعتبر نموذجاً واضحاً لذلك ، الاً إنه يجب الاعتراف بأن التفسير

الموضوعي لم يحضّ بالتطور اللائق به ، وهو لحد الآن يطوي مراحل الابتدائية ، ويجب ان

يرقى الى محله اللائق من خلال جهد وعطاء العلماء .

إن كتاب «رسالة القرآن» الذي بين يديك هو ابداع واسلوب جديد تماماً في التفسير

الموضوعي للقرآن ، وقد خطى في هذا الموضوع خُطى جديدة فاستُقبل - والحمد لله -

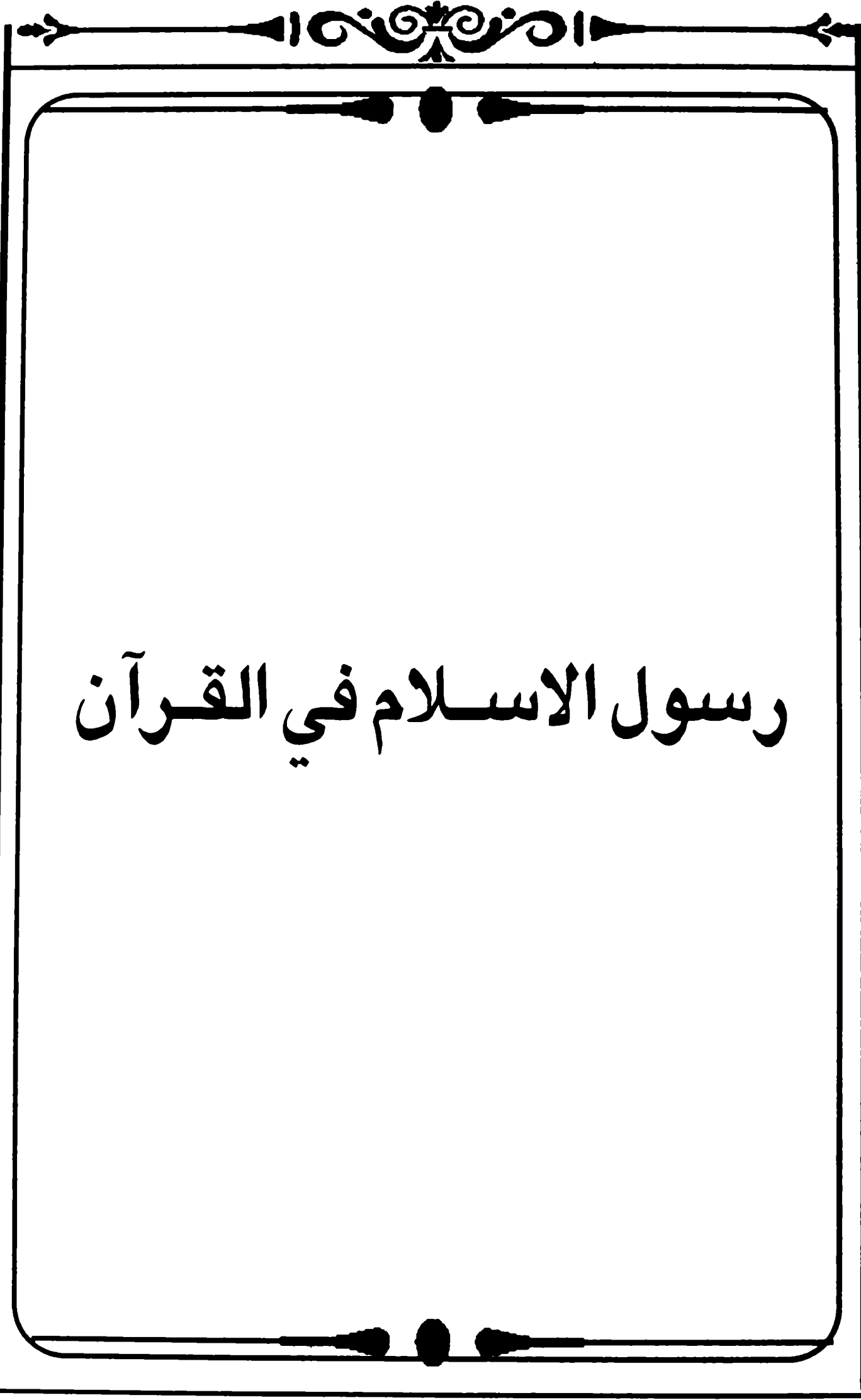
بشكل واسع ومستمر من قِبَل الكثيرين ونحن بعدُ في اول الطريق ، ونحتاج الى عون ودعم

اكثر من العلماء المسلمين والمفسرين المحترمين للوصول الى الهدف الرئيسي ، ونحن نتقبل

دوماً الآراء البناءة من أهل الخبرة والاطّلاع ، ونسأل الله دوام الهداية والتوفيق .

قم - الحوزة العلمية

ناصر مكارم الشيرازي



رسول الاسلام في القرآن

يجب قبل كل شيء الوقوف على حقيقة الاسلام والرسول في القرآن الكريم ،
والتحقيق في النكات الظرفية والدقيقة الواردة في مختلف الآيات ، وحيث ان
الوقوف على تلك النكات يستلزم بالرتبة السابقة الاحاطة ولو اجمالاً بالتاريخ
الاسلامي ، فسنمر على عصارة أبحاث من تاريخ الاسلام وسرعة تقدمه وانتشاره ،
لكي نمهد الطريق للبحوث الآتية .



الرسول ﷺ وظهور الاسلام وسرعة انتشاره

نشأ الاسلام قبل اربعة عشر قرناً في مكة المعظمة ، وفي مدة ٢٣ سنة (وهي
فترة دعوة الرسول ﷺ) اخضع لنفوذه اقصى منطقة في جنوب الحجاز ، أي
اليمن ، والى شمال شبه الجزيرة العربية ، أي الشام والعراق ، بل انّ قسماً من افريقيا
أي الحبشة قد تأثرت بانواره ، واليوم نرى اكثر من مئليارد إنسان يدّين به في كل بقاع
العالم .

وهنا نستعرض - ولو باختصار - الرسول الأكرم ﷺ وسرعة انتشار
الاسلام ، والعوامل التي ساعدت على ذلك .

من الطبيعي ان هذا العمل ليس بالأمر اليسير، لأن الظروف التي أدت إلى وصول الاسلام إلى هذا الحد، أوسع بكثير مما جاء في التاريخ بحيث يمكن القول: ان ما ذكره التاريخ قطرة من بحر. والذي نذكره هنا هو لمحات من ذلك التاريخ الذي لم يذكر لنا إلا القليل.

بدأ الاسلام بشخصية الرسول الأكرم محمد ﷺ وقد بعثه الله سبحانه وتعالى بالرسالة وهو في الأربعين من عمره الشريف، ثم تبعته السيدة خديجة ؓ، وبعدها أمير المؤمنين علي ؓ، حيث كانت دعوة الرسول ﷺ في المرحلة السرية. وكان قبل ذلك في السنين الثلاث مستتراً بدعوته لا يظهرها إلا لمن يثق به.

أما بعد تلك السنوات الثلاث، وعندما نزلت الآية الكريمة ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، أعلن ﷺ دعوته امام الناس، فصعد على جبل الصفا ودعا اقرباءه واعد لهم وليمة، وفي ذلك اليوم كان المسلمون يعدون بالأصابع^(١).

وقد اقيمت الوليمة مرتين، إذ في المرة الاولى لم يمهل ابو لهب النبي ﷺ فرصة للنطق، وفي المرة الثانية استهزؤا بكلامه ﷺ والتفتوا لأبي طالب قائلين له: «قد امرك ان تسمع لابنك وتطيع».

وفي هذه المأدبة كان النبي ﷺ يرى بعين الغيب انتشار الاسلام الاكيد، حتى انه عين خليفة ووارثاً له فيها^(٢).

ولم تمض مدة طويلة حتى ادرك رؤساء مكة أن محمداً ﷺ قد أضاع افكار الناس وأيقظهم ودل على عدم صحة عبادة الاوثان ولزوم الايمان بخالق الكون، فاحسوا بالخطر عندما ترسخت دعوته، لأن منزلتهم الاجتماعية وعائدتهم المالية كانت مرتبطة إلى حد ما بتلك الافكار والاعراف الجاهلية، حتى انهم ذهبوا إلى أبي

١ - الكامل لابن الاثير: المجلد ١، ص ٤٨٦، طبع دار احياء التراث العربي، وتاريخ الطبري: المجلد ٢، ص ٦١.

٢ - الطبري: المجلد ٢، ص ٦٣.

طالب راجين منه رفع اليد عن حماية محمد ﷺ أو المصالحة بينهم وبين محمد ﷺ أو اصلاحه ، وقالوا: «يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سب آلہتنا وعاب ديننا وسفہ آحلامنا وضلل آباءنا فأما ان تكفہ عنا وأما أن تخلي بيننا وبينه»^(١).

ولكن أبا طالب أقنعهم ورد أقاويلهم ، وأخذ الاسلام يشق طريق الرشد والتكامل وأحس رؤساء الكفر بالخطر الذي يهدد دينهم الوثني وثقافتهم الجاهلية ، فعادوا مرة أخرى الى أبي طالب فقالوا: «يا ابا طالب إن لك سناً وشرفاً وإننا قد أستهنيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل وإننا والله لا نصبر على شتم آلہتنا وآبائنا وتسفيه آحلامنا حتى تكفہ عنا أو تُنازلهُ وإياك حتى يهلك أحد الفريقين».

في هذه المرة أخبر ابو طالب الرسول ﷺ بما جرى بينه وبين أقطاب قريش وأنهم مصرّون على مخالفته ، عندها احس الرسول ﷺ ان عمه أبا طالب قد تباطأ قليلاً في حمايته فقال الرسول ﷺ لعمه تلك المقولة المشهورة: «يا عمّاه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على ان اترك هذا الأمر ، حتى يُظهرهُ الله أو اهلك فيه ما تركته». ثم بكى وقام ، فلما ولّى ناداه ابو طالب ، فاقبل عليه وقال: «اذهب يا بن أخي فقل ما احببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»^(٢)

عندما رأى رسول الله ﷺ حماية عمه ثانية ، انطلق بعزيمة كبيرة وثقة عالية ، ولما عرف رؤساء قريش ذلك عادوا الى أبي طالب وعرضوا عليه أن يساوم في ابن أخيه مقابل أجمل شاب من قريش على ان يتخذهُ ابناً له ! وجاء الرفض القاطع^(٣) كصاعقةٍ دمرت ما يمكرون ، فعمدوا الى ايذاء المسلمين من كل طائفة .

١ - سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٨٣، ط مصر ، الكامل لابن الاثير: المجلد ١، ص ٤٨٨ ، والطبري: المجلد ٢، ص ٦٥.

٢ - الكامل لابن الاثير: المجلد ١، ص ٤٨٩ ، وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ والطبري: المجلد ٢، ص ٦٥.

٣ - سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٨٥ ، والكامل: المجلد ١، ص ٤٨٩ ، والطبري: المجلد ٢، ص ٦٦.

ومرة أخرى طلبوا من أبي طالب ان يبلغ الرسول ﷺ رفع يده عن هذا الأمر وجاء الرد المحمدي ﷺ : «يا عم أولاً أدعوهم الى ما هو خير لهم منها، كلمة يقولونها تدين لهم بها العرب، ويملكون رقاب العجم» فقال ابو جهل : ما هي وأبيك لتعطينكها وعشر أمثالها، قال : «تقولون لا إله إلا الله» وقالوا : سل غيرها، فقال : «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها»^(١).

وفي هذا الوقت دخل في الاسلام أناس كانوا يرزحون تحت ظلم جبابرة مكة، وآخرون واعون ليسوا بالاغنياء المغرورين. مما حدا برؤساء قريش الى تغيير اسلوبهم في الصراع مع الرسول ﷺ - غير الرجوع الى ابي طالب - لكي ينجوا من هذا الخطر الساحق، وكان الرسول ﷺ متخذاً من بيت الارقم مركزاً للاشعاع الفكري ونشر الدعوة.

الضغط على المسلمين الجدد

بعد ان يش زعماء مكة من التأثير على ابي طالب ورسول الله ﷺ، التجؤوا الى تعذيب وايداء المسلمين المستضعفين ليردوهم عن الاسلام فتضعف قدرة الرسول ومن ثم يترك الدعوة الى الاسلام، ومن بين اولئك المسلمين بلال، وعمار، وياسر، وسمية، والحباب بن ارت، وصهيب، وعامر بن فهيرة، وابو فكيهة، ولبيبة، وزبيدة، ونهدية، وأم عبيس وامثالهم، إذ صَبَّوا عليهم ألوان العذاب حتى استشهد ياسر وسمية، ومر عليهم الرسول ﷺ مخاطبهم قائلاً : «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»^(٢).

ويحكي التاريخ عن كيفية تعذيبهم وصمودهم الذي يستحق التأمل.

١ - الكامل لابن الاثير: المجلد ١، ص ٤٩٠، والطبري: المجلد ٢، ص ٦٦.

٢ - الكامل: المجلد ١، ص ٤٩١.

التهمة والاستهزاء

اتخذ المشركون اسلوباً آخر في محاربتهم للرسول ﷺ كالتهمة والسخرية والاستهزاء، فأنهموا رسول الله ﷺ بانه ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون^(١)، وكذبوه وآذوه، ولم يتوقف رسول الله ﷺ عن نشر دعوته لاطهار أمر الله سبحانه، ولم تأخذه في الله لومة لائم.

ومن الذين كذبوا واستهزؤا وآذوا رسول الله ﷺ ابو لهب، والاسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس، والوليد بن المغيرة، وأبي، وأميه بن خلف، وابو قيس، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، وعدة آخرون حيث ذكر ابن هشام في سيرته: «انه خَرَجَ يوماً فلم يَلْقَهُ أَحَدٌ من النَّاسِ إِلَّا كَذِبُهُ وآذَاهُ لَا حَرَّ وَلَا عَبْدٌ فرجع رسول الله ﷺ الى منزله فتدثر من شدة ما اصابه»^(٢).

وذكر التاريخ ايضاً «ان ابا لهب كان شديداً عليه وعلى المسلمين، عظيم التكذيب له، دائم الأذى، فكان يطرح العذرة والتن عند باب النبي وكان جارة فكان رسول الله ﷺ يقول: «أَيُّ جَوَارِ هذا يابني عبد المطلب». وكان الاسود عندما يمر عليه فقراء المسلمين يستهزيء بهم ويقول: «هؤلاء ملوك الأرض». وكذلك كان العاص بن وائل يقول: «انَّ مُحَمَّدًا أَبْتَرُ لَا يَعِيشُ لَهُ وَلَدٌ ذكر...»^(٣).

الهجرة الى الحبشة

ازداد ضغط المشركين وتعذيبهم، ففكر رسول الله ﷺ بانقاذ ضعفاء المسلمين وتخليصهم من اذى المشركين فدعاهم للهجرة الى الحبشة، وبالفعل

١ - الطبري: المجلد ٢ ص ٧١، وسيرة ابن هشام: جزء ١ ص ٣٠٨، والكمال: المجلد ١، ص ٤٩٣.

٢ - ابن هشام: ج ١، ص ٣١٠.

٣ - الكمال: المجلد ١، ص ٤٩٣، والطبري: المجلد ٢، ص ٧٠.

هاجر اليها عدة منهم في السنة الخامسة للبعثة النبوية بعد سنتين من اعلان الدعوة الاسلامية وفي شهر رجب^(١).

وبهذه الهجرة اخذ الاسلام يتحرك وينتشر بصورة جديدة لذلك قررت قريش اعادة المسلمين من الحبشة واخضاعهم لها، فأرسلوا هدايا ثمينة للنجاشي ملك الحبشة طالبين منه تسليم المسلمين اليهم وبالرغم من اعطاء هدايا اخرى لبطانة النجاشي للتعاطف معهم ولكن النجاشي قال لهم: ان هؤلاء قد لجؤوا الينا ولا يمكن تسليمهم مالم نسمع حديثهم، واحضر النجاشي المسلمين وأخذ يسألهم عن سبب لجوئهم اليه.

وانتخبوا جعفر بن ابي طالب ناطقاً عنهم للجواب على استفسارات النجاشي الذي طلب منه ان يتلو عليه آيات من سورة مريم كانت تتضمن نظر رسول الاسلام ﷺ في المسيح وامه مريم عليها السلام بعدها اعلن النجاشي إبقاء المسلمين عنده، وارجع مبعوثين قريش.

ثم سأل النجاشي: «أي دين تدينون»؟ فقال جعفر: «أيها الملك كنا اهل جاهلية نعبدُ الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نَسَبَهُ، وصدقَهُ وأمانتَهُ وعفافَهُ فدعانا لتوحيد الله وان لا نُشرك به شيئا ونخلع ما كنا نعبد من الاصنام وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام.... فأمنّا به وصدّقناه وحرّمنا ما حرّم علينا وحلّلنا ما أحلّ لنا فتعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا الى عبادة الاوثان فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورَجّونا ان لا نُظلم عندك ايها الملك» فقال: النجاشي بعد ان

سمع آيات من القرآن حول مريم والمسيح ﷺ: « اذهبوا فانتم آمنون ما أحب أن لي جبلاً من ذهبٍ وانني آذيتُ رجلاً منكم »^(١).

ورجع سفراء قريش خائبين منكسين رؤوسهم.

وقد اقترن بتلك الايام اسلام رجل قوي من بني هاشم وهو الحمزة بن عبد المطلب^(٢) فزاد المسلمون قوة مع قوتهم وصمموا على تلاوة القرآن بشكل جماعي وسط الملأ من قريش ، وأول من قام بهذا العمل هو ابن مسعود متعرضاً الى الضرب والشتم.

ويذكر التاريخ: « فغدا عليهم في الضحى حتى اتى المقام وقريش في انديتها ثم رفع صوته وقرأ سورة «الرحمن» فلما علمت قريش أنه يقرأ القرآن قاموا اليه يضربونه وهو يقرأ ثم انصرف الى اصحابه وقد اثروا في وجهه فقالوا: هذا الذي خشينا عليك ، فقال : ما كان اعداء الله اهلون على من هم اليوم ولئن شئتم لأغادينهم ، قالوا : حسبك »^(٣).

ومن هنا نفهم ان المسلمين كانوا يؤدون عباداتهم الى جانب الكعبة حيث كان عددهم يزيد على ستين شخصاً وكانوا يتزاورون في بيوتهم لتعلم القرآن .

الحصار الاقتصادي

ولما ادركت قريش عدم تأثير جميع الاساليب التي اتخذتها وظل الاسلام يشق طريقه بثبات قررت كتابة وثيقة تمنع فيها الروابط الاقتصادية والاجتماعية مع بني هاشم حتى تشكل ضغوطاً على الرسول ﷺ لمنع نشر الدعوة : « ولما رأت قريش الاسلام يفشو ويزيد وان المسلمين قوا وعاد اليهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي أمية من النجاشي بما يكرهون من وضع المسلمين عنهم وامنهم ، ائتمروا في ان يكتبوا

١ - ابن هشام: المجلد ١، ص ٣٥٨، والكمال: المجلد ١، ص ٤٩٩، والطبري: المجلد ٢، ص ٧٣.

٢ - ابن هشام: ج ١، ص ٣١١، والكمال: المجلد ١، ص ٥٠١، والطبري: المجلد ٢، ص ٧٤.

٣ - الكامل: المجلد ١، ص ٥٠٢، وسيرة ابن هشام: الجزء ١، ص ٣٣٦، والطبري: المجلد ٢، ص ٧٣.

بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا من بني هاشم وبني المطلب ولا ينكحوا اليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً، فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على انفسهم»^(١).

وهكذا قد ضيقوا الخناق على بني هاشم وبني المطلب ليقع الخلاف بينهم ويُسلموا لهم رسول الله ﷺ .

واستمر الحصار على مدى ثلاث سنوات^(٢) وكانوا محرومين من كل شيء ما عدا القليل الذي يهثونه سرّاً، غير أن مؤامراتهم فشلت مرة أخرى فأكلت الأرضة لائحتهم المعلقة داخل الكعبة وملّ بعض الأشخاص هذا العمل الوحشي غير الانساني فاصبحوا بصدد الغاء اللائحة، وقد ألغيت بالفعل وانتهى الحصار^(٣). ورجع الرسول وعشيرته إلى مكة المكرمة.

واستمر الاسلام بتقدمه والرسول ﷺ بدعوته، وهنا وقعت حادثتان مؤلمتان للرسول ﷺ^(٤) قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهما: وفاة ابي طالب وخديجة ﷺ وكان للحادثتين اثر بالغ على الرسول ﷺ والمسلمين فازداد ضيق الخناق على الرسول ﷺ «حتى ينثر بعضهم التراب على رأسه وحتى ان بعضهم يطرح رحم الشاة وهو يصلي....».

بعدها صمم الرسول ﷺ على ان يستمد العون من مجموعة من قبيلة ثقيف الساكنة في الطائف لحمايته ونشر الاسلام، ولكنهم كذبوه وطردهوه فكان ذلك ثقيلاً على قلب رسول الله ﷺ فأخذ يدعو بهذا الدعاء المعروف، يقول التاريخ: «فقام رسول الله ﷺ وقد يش من خير ثقيف... واغروا به سقاءهم فاجتمعوا اليه والجؤء الى حائط لعبية وشيبة ابني ربيعة... ورجع السفهاء عنه وجلس الى ظل حبله من عنب... وقال:

١ - الكامل: المجلد ١، ص ٥٠٤، وابن هشام: المجلد ١، ص ٣٧٥، والطبري: المجلد ٢، ص ٧٤.

٢ - سيرة ابن هشام: المجلد ١، ص ٣٧٩.

٣ - الكامل: المجلد ١، ص ٥٠٥، وابن هشام: الجزء ٢، ص ١٤، والطبري: المجلد ٢، ص ٧٨.

٤ - الكامل: ص ٥٠٧، وابن هشام: ج ٢، ص ٥٧، والطبري: المجلد ٢، ص ٨٠.

اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، اللهم يا ارحم الراحمين انت ربُّ المستضعفين وانت ربي الى من تكلمي الى بعيد يتجهمني او الى عدو ملكته أمري ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي اوسع ، اني أعوذ بنور وجهك الذي اشرقت به الظلمات وصلح عليه امرُ الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك او تحل بي سخطك»^(١).

وقد ارسل اولاد ربيعة عنباً بيد غلامهم النصراني (عداس) الى رسول الله ﷺ ، فأخذه وقال : « بسم الله » وأكل منه ، قال (عداس) : ان هذه الكلمة ليست كلمة اهل هذه الديار ! فسأله الرسول ﷺ : من اي البلاد أنت ؟ فاجاب : من بلاد نينوى ، فقال الرسول ﷺ : وما هو دينك ؟ فأعلم الرسول بدينه .
واخيراً دخل الاسلام على يد رسول الله ﷺ ، وقبّل يديه وذهب . ومن ثم لم يرجع الرسول ﷺ خائباً من سفره^(٢).

بداية جديدة في ابلاغ الرسالة

رغم هذه المشاكل الجمة لم يثنِ الرسول ﷺ عن ابلاغ رسالته ، فاتصل في موسم الحج بالقبائل مُبتدئاً بقبيلة (كندة) حتى قبيلة (كلب) و(بني حنيفة) وكل من جاء لزيارة بيت الله كان يدعوهم الى الاسلام ، وابو لهب يلاحقه في كل مكان ليكذبه ويتهمه بخلق الاقاويل^(٣).

الرسول يلتقي أهل المدينة

التقى الرسول الأكرم ﷺ (سويد بن صامت) أحد افراد قبيلة الاوس في

١ - الكامل : ص ٥٠٨ ، والطبري : المجلد ٢ ، ص ٨١ .

٢ - الكامل : ص ٥٠٨ ، وابن هشام : ج ٢ ، ص ٦١ و ٦٢ ، والطبري : المجلد ٢ ، ص ٨١ .

٣ - الكامل : ص ٥٠٩ ، وابن هشام : المجلد ٢ ، ص ٦٣ ، والطبري : المجلد ٢ ، ص ٨٣ و ٨٤ .

المدينة الذي جاء حاجاً إلى مكة المعظمة فعرض عليه الاسلام وقرأ عليه بعض آيات القرآن الكريم فصدق به وآمن به وعاد إلى المدينة ومات مسلماً.

وعندما قدم (ابو الحيسر) أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الاشهل فيهم اياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس اليهم فقال لهم:

«هل لكم إلى خير مما جئتم له؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثني إلى العباد ادعوهم إلى الله ان يعبدوا الله لا يشركوا به شيئاً وأنزل علي الكتاب ثم ذكر لهم الاسلام وتلا عليهم القرآن، فقال اياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له».

قال: فأخذ ابو الحيسر انس بن رافع حشفة من البطحاء فضرب بها وجه اياس بن معاذ وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا، قال: فصمت اياس وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعث بين الأوس والخزرج، قال: ثم لم يلبث اياس بن معاذ ان هلك، قال محمود بن لبيد: فاخبرني من حضره من قومي عند موته انهم لم يزالوا يسمعون يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات فما كانوا يشكون انه قد مات مسلماً لقد كان استشعر الاسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع^(١).

بيعة العقبة الاولى

وفي السنة الاخرى من موسم الحج التقى الرسول الأكرم ﷺ جماعة من أهل المدينة - عُرفوا بعد ذلك بالانصار - وهم ينتسبون إلى قبيلة الخزرج ودعاهم ﷺ إلى الاسلام وكانوا قد سمعوا أنفاً من اليهود قولهم: سيبعث رسول في هذه الايام ونحن نحمله ونُساعده للقضاء عليكم فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: «انا

قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والبغضاء ما بينهم وعسى الله ان يجمعهم بك وسنقدم عليهم وندعوهم الى امرك ونعرض عليهم الذي اجبتك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليه فلا رجل اعز منك»، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين الى بلادهم قد آمنوا وصدقوا وهم فيما ذكر سبعة نفر من الخزرج من بني عبد النجار هم: اسعد بن زرارة، عوف بن حارث، رافع بن مالك، عامر بن عبد الحادثة، قطبة بن عامر، جابر بن عبد الله^(١).

وبعد انتهاء موسم الحج رجعوا الى المدينة حاملين معهم مشعل الحرية للناس وأشاعوا الاسلام بين أهل المدينة.

وبعد مرور سنة وفي ايام موسم الحج ايضاً جاء اثنا عشر رجلاً الى العقبة ويابعوا الرسول الأكرم ﷺ فُسِّمَت هذه ببيعة العقبة الاولى، وعند رجوعهم الى المدينة ارسل الرسول ﷺ مصعب بن عمير لتعليمهم القرآن والاسلام وقد استقر في بيت (اسعد بن زرارة) والتفوا حول (مصعب) فبدأ يدعوهم الى الاسلام بأسلوب خاص فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الاشهل الا ودخله الاسلام، ولم يقتصر على هذه القبيلة فحسب، بل دعا اهل المدينة الاخرين الى الاسلام فدخل الاسلام جمع كثير^(٢).

بيعة العقبة الثانية

اتسع نطاق الاسلام في المدينة بين الانصار حتى ازداد عدد المسلمين كثيراً فقرروا السفر الى الحج والالتقاء برسول الله ﷺ سراً ودعوته للقدوم الى المدينة، وقد ارسلوا ممثلين عنهم يبلغ عددهم (٧٢) شخصاً، اي (٧٠) رجلاً وأمرأتين، ويدؤوا عملهم سراً، بعد منتصف الليل وهم ينحدرون آحاداً الى مكان معين فحضر

١ - الكامل: المجلد ١، ص ٥١٠، وابن هشام: ج ٢، ص ٧٠، والطبري: المجلد ٢، ص ٨٦-٨٨.

٢ - الكامل: المجلد ١، ص ٥١١، وابن هشام: المجلد ٢، ص ٧٣.

الرسول الأكرم ﷺ وَصَحْبَهُ عَمَهُ الْعَبَّاسَ ، فَبَايَعُوهُ عَلَى أَنْ يَبْذُلُوا أَرْوَاحَهُمْ^(١) دُونَهُ ، وَأَنْ يَكُونُوا أَوْفِيَاءَ لَهُ وَلِلْإِسْلَامِ وَوَاعَدَهُمُ الرَّسُولُ عَلَى الْوَفَاءِ أَيْضاً ، وَقَدْ أُورِدَ التَّارِيخُ مَقَاطِعَ مِمَّا قَبِلَ فِي ذَلِكَ الْلِقَاءِ حَيْثُ بَدَأَ الْعَبَّاسُ الْكَلَامَ قَائِلاً :

«إِنْ مُحَمَّدًا مَتَا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، فِي عِزٍّ وَمَنْعَةٍ وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلَّا الْإِنْتِقَاعَ إِلَيْكُمْ فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ وَأَفُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ وَمَانَعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَحْمِلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ فَمَنْ الْآنَ فَدَعُوهُ فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبِلَدِهِ » ، فَقَالَتْ الْإِنصَارُ :

تَكَلَّمَ يَارَسُولَ اللَّهِ وَخَذَ لِنَفْسِكَ وَرَيْكَ مَا أَحْبَبْتَ « فَتَكَلَّمَ وَتَلَا الْقُرْآنَ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ وَرَغِبَ فِي الْإِسْلَامِ ثُمَّ قَالَ : أَبَايَعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ » ، فَأَخَذَ (الْبَرَاءَ بْنَ مَعْرُورٍ) بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : « وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَزْرَانَا فَبَايَعْنَا يَارَسُولَ اللَّهِ فَنَحْنُ وَاللَّهُ أَهْلُ الْحَرْبِ ... » .

وَقَالَ الْآخَرُ وَيَدْعُنِي أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ تَيْهَانَ : يَارَسُولَ اللَّهِ أَنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّاسِ حَبَالاً وَإِنَّا قَاطِعُوهَا يَعْنِي الْيَهُودَ فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدْعَنَا ؟ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ :

«بَلِ الدِّمُ الدِّمُ وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ أَنْتُمْ مَنِي وَإِنَّا مِنْكُمْ أَسَالِمُ مِنْ سَالِمَتُمْ وَأَحَارِبُ مِنْ حَارِيتُمْ» ثُمَّ قَالَ ﷺ : «أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً يُكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ» فَأَخْرَجُوهُمْ تِسْعَةً مِنَ الْخَزْجِ وَثَلَاثَةً مِنَ الْأَوْسِ وَهَذَا قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبَادَةَ صَاحِبُ الْفِكْرِ الْعَمِيقِ وَالنَّظَرَةِ الثَّاقِبَةِ : يَا مَعْشَرَ الْخَزْجِ هَلْ تَدْرُونَ عَلَامَ تُبَايَعُونَ هَذَا الرَّجُلَ ... تَبَايَعُونَهُ عَلَى حَرْبِ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ إِذَا نَهَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ مَصِيبَةً وَأَشْرَافَكُمْ قَتْلَ اسْلَمْتُمُوهُ فَمَنْ الْآنَ ، فَهُوَ وَاللَّهِ خُزْيُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنْ فَعَلْتُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ وَأَفُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نَهْكَ الْأَمْوَالِ وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ فَخَذُوهُ فَهُوَ وَاللَّهُ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، قَالُوا : فَأَنَا نَأْخُذُهُ عَلَى مَصِيبَةِ الْأَمْوَالِ وَقَتْلِ الْأَشْرَافِ فَمَا لَنَا

رسول الاسلام في القرآن ١٩.

بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك فبسط يده فبايعوه»^(١).
ان هذا النصر الكبير ادى الى ازدياد حقد وعداء اهل مكة للمسلمين فازدادوا
ظلماً وتعذيباً لهم، فأمرهم الرسول ﷺ بالهجرة^(٢) الى المدينة.

الهجرة انعطافٌ جديدٌ في تاريخ الاسلام

بعد هجرة المسلمين من مكة الى المدينة ظل الرسول الأكرم ﷺ في مكة
منتظراً اوامر الله تعالى. وأحس رؤساء قريش بالخطر الشديد لاسلام اهل المدينة
وهجرة مسلمي مكة فقرروا قتل الرسول ﷺ فاجتمعوا لذلك وبعد مشاورات
طويلة قرروا اشراك القبائل كافة مع قريش في قتل رسول الله ﷺ، في ذلك الوقت
نفسه أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ بالهجرة^(٣).

وفي بداية شهر ربيع الاول تخلص الرسول الأكرم ﷺ من محاصرة الاعداء
بمعجزة عجيبة وهاجر الى المدينة في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الاول
ووصل الى (قباء)^(٤) وبقي فيها حتى الخميس قد بنى هناك مسجداً سُمي
(بمسجد قباء) واقام اول صلاة للجمعة وخطب في الناس اول خطبتين للصلاة في
تاريخ الاسلام، بالقرب من قباء في (قبيلة بني سالم).

بعدها دخل المدينة واستقبله أهلها استقبالا عظيماً، وأول عمل قام به ﷺ هو
بناء مسجد فيها اعتبره منطلقاً للرسالة وتعاليم الاسلام، ولتجمع^(٥) المسلمين، غير
ان الرسول والمسلمون تعرضوا الى الوان المؤامرات فاضطر النبي ﷺ الى إشهار
السلاح والاستفادة من القوة العظيمة لمسلمي المدينة لابطال تلك المؤامرات.

١ - الكامل: المجلد ١، ص ٥١٣، وابن هشام: ج ٢، ص ٨٨.

٢ - ابن هشام: جزء ٢، ص ١١٢، والكامل: المجلد ١، ص ٥١٥، والطبري: المجلد ٢، ص ٩٧.

٣ - ابن هشام ج ٢، ص ١٢٣، والكامل: المجلد ١، ص ٥١٥.

٤ - ابن هشام: ج ٢، ص ١٣٨، والكامل: المجلد ٢، ص ٥١٨، والطبري: المجلد ٢، ص ١٠٠.

٥ - ابن هشام: ج ٢، ص ١٤٣، والكامل: المجلد ٢، ص ٥٢١، والطبري: المجلد ٢، ص ١٠٦ - ١١٦.

وبعد سبعة أشهر من دخوله المدينة ارسل الرسول الأكرم ﷺ أول كتيبة بقيادة عمه (الحمزة بن عبد المطلب) للتعرض لقافلة قريش، ثم جهز سرية أخرى بقيادة (سعد بن أبي وقاص) وارسله إلى (الابواء)، بعدها غزوة (البواط) التي كان هدفها ضرب قافلة قريش، ثم غزوة (العشيرة) لملاحقة قافلة لقريش أيضاً وفي السنة الثانية أعد سرية (عبد الله بن جحش) للتعرض إلى قريش بين مكة والطائف. وفي السنة نفسها وقعت معركة بدر الكبرى التي نكست بها رؤوس الشرك والضلالة من قريش وارسلوا إلى جهنم ووقع كثير من أهل مكة في الأسر، بعد هذا الانتصار ازداد المسلمون قوة وعزيمة ووقعوا الرعب في قلوب أعدائهم، ثم أعقبتها غزوة (بني قينقاع) بسبب نقض يهود المدينة عهدهم مع الرسول ﷺ، بعدها (غزوة كدر) ضد بني سليم ثم غزوة (السويق) ضد هجوم أبي سفيان.

وفي السنة الثالثة للهجرة وقعت حرب (غطفان) ضد (بني ثعلبة) الذين أرادوا الهجوم على المسلمين ثم غزوة (بني سليم) التي قُتل فيها اثنان من شياطين الكفر هما (كعب بن أشرف) و (أبو رافع) على أيدي المسلمين، وبعدها معركة (أحد) ثم تبعها غزوة (حراء الأسد) وقد مُني المسلمون بالهزيمة في معركة أحد لكن ذلك كان باعثاً لهم على التهيؤ للحروب القادمة وليعلموا أن الغفلة والغرور والتعلق بالماديات لهما من أسباب الهزيمة.

وفي السنة الرابعة للهجرة وقعت غزوة (رجيع) ضد قبيلة (عضل وقارة) حيث سلموا مبلغاً من الإسلام إلى الأعداء، بعدها حادثة (بئر معونة) فقد دعوا (٧٠) شخصاً لتعليمهم الإسلام ثم قتلوهم، وحادثة (اجلاء بني النضير) إذ صمموا على قتل الرسول الأكرم ﷺ وقد أخرجهم من المدينة باجمعهم.

بعدها وقعت غزوة (ذات الرقاع) ضد طائفة (بني محارب) و (بني ثعلبة) من قبيلة (غطفان).

وفي هذه السنة وقعت (بدر الثانية) التي كان هدفها ملاحقة أبي سفيان. وقد

كان لهذه الغزوات اثر بالغ في تقدم وانتشار الاسلام في الجزيرة العربية .
وفي السنة الخامسة للهجرة أحست قبائل العرب بخطر هذه القوة الجديدة
فقرروا الاتحاد والتنسيق فيما بينهم للقضاء عليها وعدم فسح المجال لها بتأصيل
جذورها كقوة ضد الظلم والشرك في المنطقة فحدثت (معركة الاحزاب) التي انتصر
فيها المسلمون ورجع منها المشركون خائبين مندحرين واصبحت فكرة القضاء على
المسلمين وقلع جذورهم من المحال .

وفي السنة نفسها وقعت غزوة (بني قريظة) وحاصر المسلمون قلعتهم للتخلص
من شر اليهود الذين كانوا يحيكون الدسائس ضد المسلمين .

ثم في السنة السادسة للهجرة وقعت غزوة (ذي قرد) حيث اغار الكفار على
اموال المسلمين واموال رسول الله ﷺ واجتمع كذلك (بنو المصطلق) ضد
الاسلام ولكنهم اندحروا في غزوة (بني مصطلق) ان هذه الحوادث كلها كانت دليلاً
واضحاً على قدرة وعظمة الاسلام .

صلح الحديبية فتح كبير وتقدم للإسلام

في السنة السادسة للهجرة أمر الرسول الأكرم ﷺ المسلمين بالتهيؤ الى حج
العمرة مصطحبين معهم الابل لذبحها قربان الى الله سبحانه وتعالى ومعلنين لأهل
مكة بانهم لم يأتوا للحرب . وكان لهذه الحادثة اثران واضحان :

الاول : اراد الرسول ﷺ من ذهابه الى مكة اعلان عدم خوف المسلمين من
اي عدو في الجزيرة العربية .

الثاني : مع دخولهم مكة تظهر قدرة الاسلام في مقابل مركز عبادة الأوثان وهذا
مؤشر واضح على قوة وانتصار الاسلام لأن مكة كانت من المراكز المهمة والقوية في
مقاومة الاسلام ، وادرك اهل مكة ذلك فقرروا منع دخول المسلمين من مكة وعندها
امر الرسول ﷺ اصحابه بمبايعته فكانت بيعة شديدة الموثيق والعهد سُميت

بـ «بيعة الرضوان» .

ولما سمع المشركون بخبر البيعة قرروا عقد صلح مع الرسول ﷺ جاء فيه : ان يخرج المشركون من مكة السنة القادمة ويدخلها الرسول ﷺ لاداء حج العمرة^(١) . وبعد ان تم الاتفاق على هذا الصلح توفرت ارضية سهلة للقضاء على أعداء الاسلام الكبار والصغار الذين كانوا بين الحين والآخر يحكون المؤامرات ضد المسلمين أو يتعرضون لهم ، فبمجرد ان عاد الرسول ﷺ من الحديبية أعدّ العدّة لحرب هؤلاء الأعداء فارسل سرية (عكاشة) الى (بنى اسد) ، وسرية (محمد بن سلمة) ، الى (بنى ثعلبة) ، وسرية (أبي عبيدة الجراح) ، الى (ذي القصد) ، وارسل ست سرايا^(٢) بقيادة (زيد بن حارثة) لحرب (الجموح) الى (عيص وطرف وحسمى ووادي القرى وام قرفة) ، وسرية (عبد الرحمان بن عوف) الى (دومة الجندل) ، وسرية (علي بن ابي طالب رضي الله عنه) الى (فدك) ، وسرية (كرز بن جابر)^(٣) الى (عرينين) ، وكل هذه المعارك وقعت بعد الحديبية^(٤) .

وكثير من القبائل التي كانت تعدّ العدّة لحرب المسلمين قد فشلت وانهزمت قبل ان تنجز شيئاً ذا بال ووصلت قدرة الاسلام الى اوج عظمتها وحينها لم تحدث قبيلة من القبائل نفسها في ان تخوض معركة مع الرسول ﷺ والمسلمين واحست مكة بالضعف وعقدت هدنة مع الرسول فاعترفت برسمية الحكومة الاسلامية .

رسائله ﷺ الى ملوك العالم

وتعاضمت في هذه الاثناء قدرة الاسلام وتوسع نفوذه فانتشر أول شعاع لشمسه خارج الجزيرة العربية ، وقام الرسول بارسال سفراء محملين برسائل الى

١ - الكامل: المجلد ١، ص ٥٨٢، سيرة ابن هشام: المجلد ٣، ص ٣٢١، والطبري: المجلد ٢، ص ٢٧٠.

٢ - سيرة ابن هشام: المجلد ٣، ص ٥٣.

٣ - ابن هشام: المجلد ٤، ص ٢٩٠.

٤ - الكامل: المجلد ١، ص ٥٨٨ - ٥٩٠.

كسرى (ملك ايران)، وقيصر (حاكم الروم) ^(١).

والنجاشي (حاكم الحبشة)، والمقوقس (حاكم مصر) ^(٢) والى عدة اخرى من الرؤساء والحكام اداءً لتكليفه الالهي ولدعوتهم الى الاسلام فكان جواب بعضهم مثبتاً، وسكت بعضهم الآخر ماعدا خسرو برويز شاه ايران وهذا دليل على: ان التبليغ الاسلامي الصحيح قد وصلهم فاطلعوا على حقائق الاسلام واحسوا بقدرته ووصلتهم اخباره فكان صلاحهم في عدم المواجهة العسكرية مع المسلمين ^(٣).

ولم يبق من مراكز المؤامرات الا خبير مركز اليهود ^(٤) الذي يجب القضاء عليه. لذلك فقد صمّم الرسول ﷺ في السنة السابعة للهجرة على اخضاعه مع قبيلة يهودية اخرى كانت تقطن ارض فدك.

بعد ذلك تجاوز الاسلام كل الموانع والعقبات التي كانت امامه وارتفعت رايته عالية بالنصر المبين.

وفي هذه المرحلة وصل الاسلام في الجزيرة العربية الى اوج العظمة والازدهار واستغل الرسول ﷺ فرصة الاستفادة من صلح الحديبية للذهاب الى زيارة بيت الله لاداء فريضة حج العمرة.

وبعد ان رجع الرسول ﷺ من خيبر في شهر ذي الحجة أعلن للمسلمين الذين ذهبوا معه العام الماضي للعمرة ان يتهيؤوا الى السفر في العام الحالي ^(٥) فلما سمع اهل مكة بهذا الخبر تركوا بيوتهم وفروا لاجئين الى الجبال (وفقاً للصلح الذي اتفقوا عليه)، ودخل المسلمون مكة رافعين رؤوسهم.

عند ذلك أعلن الرسول ﷺ بقوله: «رحم الله امرأأراهم اليوم من نفسه قوة»

١ - الطبري: المجلد ٢، ص ٢٨٨.

٢ - الكامل: المجلد ١، ص ٥٩١.

٣ - الكامل: المجلد ١، ص ٥٩١، الطبري: المجلد ٢، ص ٢٩٨، وابن هشام: المجلد ٣، ص ٣٤٢.

٤ - الطبري: المجلد ٢، ص ٣٩٠، وابن هشام: المجلد ٤، ص ١٢.

٥ - الطبري: المجلد ٢، ص ٣٩٠، وابن هشام: المجلد ٤، ص ١٢.

وبهذا الأسلوب استطاع المسلمون ان يحققوا آمالهم في زيارة بيت الله سبحانه وهم يعرضون عظمة وقدره الاسلام امام اهل مكة^(١).

وعند حلول السنة الثامنة من الهجرة وسع الرسول ﷺ دائرة نفوذ الاسلام، فارسل سرية (غالب بن عبد الله الليثي) الى (بني الملوح)، و(علاء بن حضرمي)، الى (البحرين)، وحسب أحد الأقوال ارسل سرية (شجاع بن وهب) الى (بني عامر)، وسرية (عمرو بن كعب الغفاري)، الى (ذات الاطلاع)، في احد نواحي الشام.

وفي هذه السنة بعث الرسول ﷺ (عمرو بن العاص) الى (بلي وعُذرة) ليدعوهم الى الاسلام، ف وقعت غزوة (ذات السلاسل)^(٢).

وفي السنة نفسها ارسل (عمرو بن العاص) نحو (جيفر وعياز) ابناء جلندي في عمان ليدعوهم الى الايمان، ويأخذ (الجزية) من المجوس.

كما ارسل جيشاً بقيادة (أبي عبيدة الجراح) فحدثت غزوة (الخبط) التي وافقت السنة الهجرية نفسها وارسل ايضاً سرايا (ابي قتادة) للوقوف بوجه من جهز جيشاً لمحاربة الرسول ﷺ وحدثت ايضاً غزوة (مؤتة)^(٣) في ارض مؤتة وهي إحدى القرى في الشام.

وكان عدد المسلمين المشتركين في هذه الغزوة ثلاثة آلاف مقاتل، وقد استشهد فيها عدد من قادتهم فكان ذلك سبباً لشعور المسلمين بالضعف الذي يعدّ نصراً للاعداء، غير ان سرعان ما تهيأت اسباب فتح مكة حيث ان قبيلة (خزاعة) كانت حليفة للرسول ﷺ وقبيلة (بني بكر) حليفة لقريش فبغت قبيلة (بني بكر) على (خزاعة) وساندتها قريش مما اتاح للرسول ﷺ التدخل لنصرة (خزاعة)

١ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٠٢.

٢ - سيرة ابن هشام: المجلد ٤، ص ٢٧٢.

٣ - سيرة ابن هشام: المجلد ٤، ص ١٥، والطبري: المجلد ٢، ص ٣١٨.

فأمر ﷺ بتجهيز جيش لغزو مكة وتمكن بعشرة آلاف من المسلمين وبخطة عسكرية حكيمة من السيطرة على مكة وفتحها بدون قتال .

وبلغ المسلمون آمالهم في الدخول الى بيت الله الآمن مطهرًا من دنس الجاهلية والأوثان .

وعندما رأى (ابو سفيان) كثرة المسلمين وقدرتهم انبهر بعظمة الاسلام فصرح الى (العباس) بقوله : « لقد اصبح ملك ابن اخيك عظيماً » فأجابه العباس : « ويحك انها النبوة »^(١) .

وصل الرسول ﷺ الى الكعبة ووقف في بابها بعمامته السوداء منادياً بالشعار المعروف لنبذ آداب واعراف الجاهلية بقوله ﷺ : « لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » ، ثم اضاف ﷺ : « ألا كل دم في - الجاهلية - أو مائة أو مال يُدعى فهو تحت قدمي هاتين الآسدانة البيت وسقاية الحاج » ، ثم قال : « يا معشر قريش ما ترون اني فاعل بكم » ؟ قالوا : « خيراً اخ كريم وابن اخ كريم » ، قال : « اذهبوا فانتم الطلقاء »^(٢) .

ثم ارسل الرسول ﷺ مجموعة من الجيش لاطفاء الفتنة التي حدثت بين القبائل في اطراف مكة^(٣) وللوقوف بوجه هوازن التي كانت مصرة على قتال المسلمين واصطدم المسلمون في (حنين) وردوا بغيهم الى نحورهم^(٤) . وبعدها حاصروا الطائف واجبروهم على التسليم^(٥) .

عندما حلت السنة التاسعة للهجرة تنفس المسلمون الصعداء بتدمير كل مراكز المؤامرات التي كان يحوكها المشركون واليهود والنصارى ، وبرزت قوة جديدة الى

١ - الكامل : المجلد ١ ، ص ٦١٤ .

٢ - الكامل : المجلد ١ ، ص ٦٢٠ .

٣ - الكامل : المجلد ١ ، ص ٦١٨ ، سيرة ابن هشام : المجلد ٤ ، ص ٧٠ .

٤ - الكامل : المجلد ١ ، ص ٦٢٤ ، وسيرة ابن هشام : المجلد ٤ ، ص ٨٠ ، والطبري : المجلد ٢ ، ص ٣٤٤ .

٥ - الكامل : المجلد ١ ، ص ٦٢٨ ، وسيرة ابن هشام : المجلد ٤ ، ص ١٢٢ .

الوجود، فأسلمت بعض القبائل المحيطة على يديها وخضع لها بعضها الآخر. وفي خضم هذه الحوادث جاء خبر مفاده ان (هرقل) امبراطور الروم وعدداً من العرب الذين اعتنقوا النصرانية يريدون الهجوم على بلاد الاسلام، فاعلن الرسول ﷺ ان يعدّ المسلمون انفسهم للحرب مع الروم.

ونقل ارباب التاريخ ان الرسول أعلن عن مكان الحرب ولم يتكتم عليه خلافاً لعادته في الحروب السابقة. ربما لبعد الطريق وامثال ذلك ولكن يبدو ان هدفه كان بث الرعب في قلوب الأعداء وقد جهز جيش بصعوبة بالغة وبمعدات قليلة وسمى بـ (جيش العسرة) واتجهوا الى (تبوك)^(١) وعند وصولهم اليها ومرورهم بـ (ميناء ايله) فوافق حاكمها على اعطاء الجزية وتعاهد مع المسلمين على الصلح^(٢). ثم ارسل خالد بن الوليد الى حاكم (دومة الجندل) فقبل الجزية ايضاً^(٣).

وظل رسول الله ﷺ في تبوك خمسة عشر يوماً تقريباً ولكن جيش الروم تخلف عن المجيء فرجع الرسول ﷺ الى مكة^(٤).

وفي هذه السنة جاءت مجموعة من ثقيف واعلنت اسلامها بين يدي الرسول ﷺ^(٥)، وأمر الامام علياً عليه السلام بتطهير قبيلة (طي) من دنس الأوثان فحاربهم وانتصر عليهم واسر بنت حاتم الطائي وعلى اثر ذلك دخل الاسلام (عدي بن حاتم و...) ^(٦).

ان فتح مكة ودخول بني ثقيف الاسلام والفراغ من تبوك كانت مؤشرات على عظمة الاسلام وصدق هذا الدين فتوافد كثير من القبائل على الرسول ﷺ واطلعوا

١ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٣٥، وسيرة ابن هشام: المجلد ٤، ص ١٥٩، والطبري: المجلد ٢، ص ٣٧٣.

٢ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٣٨.

٣ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٣٨.

٤ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٣٨.

٥ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٤٠.

٦ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٤٠.

تدريجياً على معارف الاسلام وعظمته فاعتنق بعضهم الاسلام وبعض عقد صلحاً وترك الحرب مع الرسول فُسمي ذلك العام (بعام الوفود) ^(١)، فجاء وفد (بني اسد) الى الرسول ﷺ قائلين: «اتيناك قبل ان تُرسل الينا رسولاً» ووفد (بلى)، ووفد (زاريين)، ووفد (بني تميم) ^(٢).

وصلت رسائل كثيرة من ملوك وسلاطين (جُمير) تدل على قبول قدرة وحكومة الاسلام ^(٣).

وكذلك جاء وفد (بهاء) ووفد (بني البكاء) ووفد (بني فزارة)، ووفد (ثعلبة بن منقذ)، ووفد (سعد بن بكر) ^(٤).

ونزلت سورة البراءة وقرأها الامام علي عليه السلام معلناً البراءة من الشرك وعبادة الأوثان ومنع المشركين من الدخول الى مكة للحج.

«فأقام الناس الحج وحجت العرب الكفار على عاداتهم في الجاهلية وعلي [عليه السلام] يؤذن ببراءة فنادى يوم الاضحى: لا يحج بعد العام مُشرك ولا يطوفن بالبيت عُريان ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله الى مدته» ^(٥).

وخلَّ العام العاشر للهجرة وصوت الاسلام يدوي في كل مكان، فجاء نصارى (نجران) الى المباهلة، ثم قبلوا الصلح بدونها: «وصالحوه على الفي حُلَّة ثمن كل حُلَّة اربعون درهماً وعلى ان يُضيّفوا رُسُلَ رسول الله [ﷺ] وجعل لهم ذمّة الله تعالى وعَهْدُهُ أَلَّا يَفْتَنُوا عَنْ دِينِهِمْ وَلَا يُعْشِرُوا وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَأْكُلُوا الرِّبَا وَلَا يَتَعَامَلُوا بِهِ» ^(٦).

١ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٤١، وسيرة ابن هشام: المجلد ٤، ص ٢٠٥.

٢ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٤٢.

٣ - سيرة ابن هشام: المجلد ٤، ص ٢٣٥.

٤ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٤٤.

٥ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٤٤، سيرة ابن هشام: المجلد ٤، ص ١٩٠.

٦ - الكامل: المجلد ١، ص ٦٤٦.

وانحدرت الوفود تلو الوفود الى المدينة لتعلن وفاءها للاسلام والرسول ﷺ ،
 فجاء وفد (سلامان) ، ووفد (غبشان) ، ووفد (عامر) ، ووفد (ازد) ، ووفد
 (مراد) ، ووفد (زبيد) ، مع (عمرو بن معدي كرب) ، ووفد (عبد قيس) ، ووفد
 (بني حنيف) ، ووفد (كندة) ، ووفد (محارب) ، ووفد (رهاويين) ، ووفد
 (عبس) ، ووفد (صدف) ، ووفد (خولان) ، ووفد (بني عامر) ، ووفد (طي) ^(١) .
 وتتجلى قوة الاسلام في حجة الوداع فبناءً على ما ذكر في بعض الروايات بان
 مجموع المسلمين الذين ذهبوا لزيارة بيت الله الحرام وحضروا (حجة الوداع) كان
 اكثر من مائة الف شخص . ويعد هذا الاجتماع من اكبر الاجتماعات الدينية في ذلك
 العصر ، كما تعكس ذلك ايضاً خطب الرسول الأكرم ﷺ في سفره سواء كانت في
 مكة ، أم في عرفات ، أم في منى أم في غدير خم ، لتعيين الخليفة والوصي من بعده
 وقد جاء في التاريخ مايلي : « فأراهم مناسكهم وعلمهم سنن حجهم وخطب خطبته
 التي بين فيها للناس ما بين وكان الذي يبلغ عنه بعرفة (ربيعه بن أمية بن خلف) لكثرة
 الناس ، فقال بعد حمد الله : « أيها الناس اسمعوا قولي فلعلي لا القاكم بعد عامي هذا
 بهذا الموقف ابداً . أيها الناس ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا وكل
 ربا موضوع لكم رؤوس أموالكم وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كلكم وكل دم
 كان في الجاهلية موضوع أيها الناس إن الشيطان قد يئس ان يُعبد بأرضكم
 هذه ابداً ولكنه يُطاع فيما سوى ذلك وقد رضي بما تحقرون من أعمالكم ... » ^(٢) .

جاء في تاريخ حجة الوداع : انه اثناء ذهاب الرسول الأكرم ﷺ الى الحج كان
 قد اجتمع خلق كثير في المدينة على الرغم من انتشار أحد الامراض الذي منع حج
 كثير منهم : « ومع ذلك كانت معه جموع لا يعلمها إلا الله ، وقد قيل انه خرج معه تسعون

١ - الكامل : المجلد ١ ، ص ٦٤٧ - ٦٤٩ ، وللاطلاع على غزوات وسرايا الرسول ﷺ يمكن الرجوع الى
 سيرة ابن هشام المجلد ٤ ، ص ٢٥٦ ، الكامل : المجلد ١ ، ص ٢٥٢ ، والطبري : المجلد ٢ ، ص ٤٠٤ .

٢ - الكامل : المجلد ١ ، ص ٦٥٢ .

رسول الاسلام في القرآن ٢٩.

الفأ، ويقال: مائة الف واربعة عشر الفأ وقيل: مائة الف وعشرون الفأ، وقيل: مائة الف واربعة وعشرون الفأ، ويقال اكثر من ذلك وهذه عدة من خرج معه واما الذين حجوا معه فاكثر من ذلك كالمقيمين بمكة والذي اتوا من اليمن مع علي [عليه السلام] وابي موسى^(١). ويمكن تقدير عدد المسلمين الذين لم يستطيعوا الحج لتبين مقدار ما وصلت اليه شوكة الاسلام.

واخيراً جهز الرسول الأكرم ﷺ قبل وفاته جيشاً بقيادة (أسامة) لحرب ديار الشامات (بصرى) فتخلف بعضهم عن أمر رسول الله ﷺ.



١ - سيرة العلبي: المجلد ٣، ص ٢٨٣، وتواريخ اخرى نقلت عن الفدير المجلد ١، ص ٩، وهو مصدر جامع لمن اراد ان يستزيد.

نبي الاسلام في القرآن

تمهيد :

اطلعنا في السابق على حياة نبي الاسلام بصورة مختصرة من وجهة نظر المؤرخين ، والآن نبين حياته الشريفة منذ نعومة أظفاره وحتى انتهاء عُمره - كما جاء في القرآن الكريم - بتحقيق دقيق مختصر يصلح ان يكون مقدمة خاصة للبحوث حول النبوة .

ان بحث الآيات القرآنية في هذا الموضوع على الاخص له أهمية بالغة لأن المخالفين والمعاندين قد اشكلوا على الرسول ﷺ واذا لم تنطبق هذه الآيات القرآنية على الواقع العيني لحياته ﷺ فعندها يتحقق مورد اتهامهم فأثبت التاريخ اقاويلهم كما اثبتها في امور اخرى .

وبتعبير آخر: بغض النظر عن ان القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى وكل ما جاء به من الآيات القرآنية منسجم مع الحقيقة والواقع . ولو فرضنا عدم صحة تطابقها فإن الآيات القرآنية التي تخص حياة الرسول ﷺ لا يمكن عدم تطابقها مع الواقع ، لأنها ستكون وسيلة جيدة لاعتراض وتكذيب الاعداء وبهذه الاشارة نعمن النظر مرة أخرى في الآيات القرآنية والنقاط المهمة التي جاءت حول مقاطع مختلفة من حياة الرسول ﷺ .

محيط دعوة الرسول ﷺ

بيّن القرآن الكريم في سورتين منه حياة عرب الجاهلية المعاصرين للرسول ﷺ المعنى وهو: «وإن كاثنوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»^(١).
وتعبير (ضلالٌ مُبين) في الآيتين بيانٌ واضحٌ لتحكم الضلالة والضياغ في المجتمع العربي الجاهلي.

ضياغ في العقائد حيث كانوا مشركين يعبدون الأصنام التي يصنعونها بأيديهم من الحجر والخشب.

وضياغ في المسائل الاجتماعية الى الحد الذي يثدون فيه بناتهم احياء وهم يفتخرون بذلك.

وكانوا يطوفون رجالاً ونساءً حول الكعبة عُراة ويعتبرون ذلك من ضمن عبادتهم.

والاعتداء والحروب واراقة الدماء بالباطل كل ذلك كان له قيمة اجتماعية في الجاهلية، حتى وصل الأمر الى ان يَرِثَ الأبناء أحقاد واضغان الآباء .
والمرأة في خضم ذلك مجرد متاع يقامرون عليه .

وافضل من رسم مفهوم (ضلال مبين) قول (جعفر بن أبي طالب) عندما بيّن اوضاع عرب الجاهلية لملك الحبشة (النجاشي) بقوله: «أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار، ويأكلُ القويُّ منَّا الضعيف حتى بعثَ الله إلينا رسولاً منّا نعرفُ نسبهُ، وصدقهُ وامانتُهُ وعفافهُ فدعانا لتوحيد الله وان لا نشركَ به شيئاً ونخلعُ ما كنا نعبدُ من الأصنام وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحُسن الجوار والكف عن المحارم

ولمزيد من توضيح تلك الإشارة التي وردت في الآيتين الكريمتين نستعين
بآيات أخرى حيث جاء فيها:

١- الاصنام في عقائد العرب

ان عقائد اي قوم او شعب تشكل ركناً اساساً في ثقافتهم وانحطاط تلك العقائد
يدل على الانحطاط الثقافي والحضاري لهم.

وعلى هذا الاساس ، فعرب الجاهلية كانوا في ارجل درجات الانحطاط الثقافي
والضياع حيث كانوا يعبدون الأصنام التي يصنعونها بأيديهم ثم يرونها تتحكم في
مصائرهم بل حاكمة على السماء والارض احياناً. وقد خاطب القرآن الكريم الرسول
الأكرم ﷺ بصدد ذلك ويقول تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ
ضَرراً وَلَا نفعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

وبالإضافة الى الاصنام الصغيرة فقد كانت لديهم ثلاثة اصنام كبيرة ذات شهرة
خاصة في مجتمعاتهم تمثل بنات الرب وهي وسيلة للتقرب اليه ، أحدها (مناة) وكان
ما بين المدينة ومكة المكرمة بالقرب من حافة البحر الاحمر ، ولهذا الصنم احترام
خاص عند كل العرب انذاك ، فيقدمون اليه القرابين ، واكثر القبائل احتراماً وتقديساً
له قبيلة (الاوس) و (الخزرج).

والثاني في الطائف يُعرف باسم (اللات) ، وقد شُيد في مكانه اليوم مسجد
وكانت (ثقيف) من اكثر القبائل احتراماً له .

والثالث من الاصنام الكبيرة هو (العزى) وقد وضع في الطريق المؤدي الى

١ - الكامل: المجلد ٢، ص ٨٠، تفسير ظلال القرآن: المجلد ٨، ص ٩٥.

٢ - سورة المائدة: الآية ٧٦.

العراق قريباً من منطقة (ذات العرق) ولقریش علاقة خاصة بهذا الصنم ، وكانت اصنام اخرى للقبائل والعشائر بل وللعوائل ايضاً اذ لا معنى لحياة عرب الجاهلية بدونها فمثلاً لو ارادوا السفر الى مكان ما استأذنوا الصنم في ذلك ولهم في اسفارهم اصنام يصحبونها معهم .

وقد اشار القرآن الكريم في سورة النجم الى ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۚ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۖ ﴾^(١) .

ومن الجدير بالذكر في الحياة الجاهلية انهم كانوا يكرهون البنات ويشدونهن احياناً بالرغم من اعتقادهم بان الملائكة بنات الله وهذه الاصنام تماثيل تلك الملائكة لذلك واجههم القرآن الكريم بمنطقهم وهو كيف تقولون : ان لله بنات في الوقت الذي تكرهونهن فيه ؟

وقد استنكر القرآن وذم تلك الأفكار الخرافية المنحطة بقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۖ ﴾^(٢) .

وقد جاء الرسول الأكرم ﷺ يُحَارِبُ هذه العقائد الضالة الناشئة من الظن والأهواء كما في ذيل الآية من سورة النجم بعد ان اشار الى الأصنام الثلاثة الكبيرة المعروفة قائلاً : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۖ ﴾^(٣) .

صحيح ان المشركين قد تشبثوا بدليل واهٍ ليبرروا به عبادتهم للاصنام فمن جملة قولهم : (ان ذات الله اعلى من ان يصل اليها العقل والفكر الانساني وهو منزّه عن ان نعبده بصورة مباشرة) ، وعلى هذا الاساس فالذين وكل اليهم امر خلقه وتدبيره هم

١ - سورة النجم : الآية : ١٩ - ٢٠ - ٢١ .

٢ - سورة الزخرف : الآية : ١٩ .

٣ - سورة النجم : الآية ٢٣ .

نبي الاسلام في القرآن..... ٣٧.

الواسطة اليه وهؤلاء هم الملائكة والجن وكل الموجودات المقدسة فهؤلاء ارباب نعبدهم وهم الذين يقربوننا الى الله ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾^(١).

وعلى هذا فان ايدينا لا تصل الى هذه المقدسات فنضع لها تماثلاً ثم نعبدُها! وهذه التماثيل هي اصنامهم وفي تصورهم أن هناك وحدة واتحاداً بين هذه الاصنام والوجودات المقدسة فهم يخاطبونها بالالهة والارباب.

وهم بهذه الخرافات الواهية ابتعدوا عن الله سبحانه وتعالى وهو اقرب الى الانسان من نفسه ، وبدلاً من ان يتوجهوا الى الله الذي هو منبع الفيض والقدرة البصير الموجود في كل مكان لجؤوا الى مخلوقات ممكنة لاحول ولا قوة ولا شعور لها بل انها مخلوقة بايدي عبّادها ومع ذلك فقد اجلسوا تلك المخلوقات المنحطة على عرش الربوبية والالوهية ناسين بحر وعظمة الذات الالهية اللامتناهية ولاهتين وراء سراب .

٢ - تفشي حالة الفقر الشديد بين الناس

في الوقت الذي ثار فيه الرسول ﷺ كان عرب الجاهلية يغيصون في فقر شديد الى الحد الذي كانوا يقتلون فيه ابناءهم - وحتى الذكور منهم اولئك الذين يشكلون الحجر الاساس لحياتهم المادية والاقتصادية - ليقبّلوا عدد الافواه الجائعة ، وكما جاء في سورة الاسراء الآية (٣١) ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾^(٢).

١ - سورة الزمر: الآية ٣.

٢ - هناك احتمال بان هذه الآية اشارة الى قتل البنات اللاتي ينظر اليهن المجتمع باحتقار ويعدن لوحدهن مخلوقات وضیعة مستهلكة ولكن الاحتمال هنا يشمل الاولاد ايضاً لوجود ضمير جمع المذكر ولقوله تعالى (ان قتلهم كان خطأ كبيراً) ويعود هذا الضمير الى الاولاد في صدر الآية التي نزلت اما بخصوص الاولاد فحسب او الاولاد والبنات على اقل تقدير وقد استخدم ضمير الجمع للمذكر لتغليب الذكور على الاناث.

وقد جَسَمَ أمير المؤمنين علي عليه السلام هذا المعنى في تحليل جامع فقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتُمْ مَعْشَرُ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ مَنِيخُونَ بَيْنَ حَجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدْرَ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشَبَ»^(١).

٣ - عباداتهم العجيبة

كانت عبادة المشركين غريبة للغاية، ويجب القرآن الكريم ادعاء المشركين: بانه اذا كان محمد ﷺ قد اتى بعبادات فان لنا مثلها ونحن نصلي الى جانب الكعبة كذلك، قائلاً: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً»^(٢).

نعم انهم يسمون صفيهم الاحمق وتصفيهم الابله صلاة، «فالمكاء» يعني: صوت الطيور، وجاء تشبيه اصوات العرب في الجاهلية حول الكعبة بصوت الطيور ربما لانه خالي من اي مفهوم كصوت الطيور الذي لا محتوي فيه او أن كل سعيهم كان مجرد غناء.

فأما «التصدية» فمعناها التصفيق، وهو ضرب اليد على الاخرى ليصدر صوت يسمى تصدية على هذا الاساس سمي تردد الصوت بين الجبال بالصدي، ولم ينتهوا الى هذا الحد بل يطوفون عراة كما ولدتهم امهاتهم حول الكعبة. وهذا ما اشير اليه عندما نزلت سورة براءة وقام بابلاغها امير المؤمنين علي عليه السلام في شهر ذي الحجة بقوله: «لَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ وَلَا يَحُجُّنَّ الْبَيْتَ مُشْرِكٌ...»^(٣).

ويقال: ان السبب من طوافهم عراة ان مجموعة من عرب (حُمس)^(٤) يعتقدون

١ - نهج البلاغة: خطبة ٢٦.

٢ - سورة الانفال: الآية ٣٥.

٣ - تفسير مجمع البيان: المجلد ٥، ص ٣، (في ذيل تفسير الآيات الاولى لسورة البقرة).

٤ - حُمس (على وزن حُمس) جمع أحمس وهو من تعصب لدينه ولان قريش كانت توطد عقيدة الشرك لذلك وصفوا انفسهم بال(حُمس).

بان طوافهم حول الكعبة يجب ان يكون بلباس خاص ، ومن يفتقد يفقد ذلك اللباس ويطوف بملابسه المعتاد عليها فعليه ان يرميها بعيداً ولا يحق له وللآخرين استخدامها بعد انتهاء الطواف ولذلك يطلقون على هذه الالبسة بالـ (لقاء) ، اي ما يلقى من الثياب واذا أخذ بنظر الاعتبار ان اكثر الناس كان يسودهم فقر مدقع ولا يملكون الا لباساً واحداً فيضطرون وللحفاظ عليه ان يخلعونه ويطوفون عراة حول الكعبة .

وقد استفاد بعض اللاهين احياناً من هذه الخرافة ليعرض بسببها الشباب من الرجال والنساء اجسادهم عارية^(١) .

ويذكر ابن هشام ان الرجال كانوا عراة تماماً . أما النساء فكنَّ يخلعن كل ملابسهن ما عدا ثوباً مشقوق الذيل يبدي اجسامهن ثم ينشغلن بالطواف ، وذات يوم طافت امرأة في تلك الهيئة امام اعين رجال شرهة فأنشأت هذا الشعر الذي حفظه لنا التاريخ :

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أَجِلُهُ^(٢) .

أما القرابين التي يقدمونها الى الاصنام فلها قصة مفصلة ، فمن جملة ذلك ان الناس في (دومة الجندل)^(٣) كانوا يقدمون شخصاً في كل سنة قرباناً الى الالهة مع مراسم خاصة ثم يدفنون جسده المدمى قرب المذبح حتى كتب بعضهم ان المصريين كانوا يقدمون اجمل الشباب والشابات قرابين الى (الهة النيل) ، وقد بقي ذلك التقليد عُرفاً اجتماعياً لبعض قبائل العرب فينذر الآباء أبناءهم احياناً قرابين الى الالهة ايضاً^(٤) .

١ - الاسلام والعقائد والاراء البشرية : ص ٢٨٨ .

٢ - سيرة ابن هشام : المجلد ١ ، ص ٢١٥ .

٣ - منطقة في شمال غربي (نجد) في قمة جبال الجزيرة العربية ، وهناك كانت قصة وقوع التحكيم بصفين .

٤ - الاسلام وعقائد وآراء البشر : ص ٢٧٨ .

٤ - الخرافات الأخرى لعرب الجاهلية

ومن جملتها مسألة اللحوم المحللة والمحرمة والقوانين المخزية الفارغة التي كانوا يسنونها لانفسهم كما ذكر ذلك القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثْ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾^(١) وفي الآية التي بعدها: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُونِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِنْتَهُ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾^(٢).

وقد وعد القرآن اصحاب تلك البدع القبيحة التي ابتدعوها بالخسران كما ورد في ذيل هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(٣).

حتى انهم قد حرّموا بعض السنن الباقية من الأنبياء ﷺ وأصبحت غير مؤثرة مثل سنة تحريم القتال في الاشهر الحرم (ذي القعدة، ذي الحجة، محرم، رجب) حيث كان ذلك المعتقد عاملاً مهماً في منعهم عن سفك واراقة دمائهم لكن تلك السنة الخرافية (النسيء) كانت تبطل تأثيرها فمتى ما ارادوا تجاوز حرمة هذه الاشهر الحرم، قالوا لا مانع من جعل شهر آخر مكان هذا الشهر فعاب عليهم القرآن هذا العمل السيء بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾^(٤).

ان الحج وزيارة بيت الله الحرام التي كانت من سنن ابراهيم عليه السلام ودافعاً الى الوحدة والتقرب الى الله سبحانه، قد تلوث بخرافاتهم ولم تصبح سبباً وعاملاً للابتعاد عن الله سبحانه فحسب بل وللتفرقة والتشتت بين الناس، لأن التعصب

١ - سورة الانعام: الآية ١٣٨.

٢ - سورة الانعام: الآية ١٣٩.

٣ - سورة الانعام: الآية ١٤٠.

٤ - سورة التوبة: الآية ٣٧.

للقومية والشرك وعبادة الاصنام كانت سائدة عليها .

٥ - شيوع الفساد الاخلاقي

لقد بلغت المسائل الاخلاقية السائدة بين عرب الجاهلية اعلى درجات الانحطاط فقد كانت تحكمهم عداوات شديدة واحقاد موروثه من السلف الى الخلف ، لم تقتل الاخلاق فحسب بل ان كل شيء في المجتمع ذهب ضحية لها العداوة وقد بين القرآن الكريم ذلك للعرب الذين من الله سبحانه وتعالى عليهم بالاسلام بقوله : ﴿وَاذْكُرُوا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ اِذْ كُنْتُمْ اَعْدَاءً فَاَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ اِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَاَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾^(١) .

و« الشفا » كما جاء في « مقاييس اللغة » هي الاشراف والتسلط على الشيء وهنا يطلق على الاشياء التي يشرف الانسان عليها بالشفا ، مثل الاشراف على جوانب الحفرة او حافة الوادي او حافة النهر ، وكذلك شفة الانسان على جانبي فمه ويطلق ايضاً على تحسن صحة المريض لانه يتسلط ويتغلب على المرض .

وعلى كل حال فقد شبه القرآن الكريم حياة عرب الجاهلية بمن يقف على شفا حفرة من النار ليسقط فيها بسهولة ، نار تحرق كل شيء وتحوله الى رماد .

كانت العداوة والنفاق والاختلافات مطبوعة في نفوسهم وحاكمة عليهم بحيث صرح القرآن الكريم لنبي الاسلام محمد ﷺ : ان من المستحيل القضاء على هذه الاختلافات بالطرق العادية وابداد الاتحاد والوحدة بينهم الا بمعجزة الهية ، وقد حصل ذلك على يد الرسول الأكرم ﷺ ﴿لَوْ اَنْفَقْتُ مَا فِي الْاَرْضِ جَمِيعًا مَا اَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّٰهَ اَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾^(٢) .

١ - سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .

٢ - سورة الانفال : الآية ٦٣ .

إنَّ معاقرة الخمر واللعب بالميسر والازلام كانت متفشية بحيث كان من الصعب القضاء عليها بمرحلة واحدة ، لذلك جاء أمر تحريم الخمر على عدة مراحل ^(١) .
 كما ان احد اكبر المفاسد الاخلاقية والاجتماعية هو مسألة (حقوق المرأة) في مجتمع عرب الجاهلية ، فقد وصلت الى الحد الذي يتفق مع قاله بعض المفسرين :
 بانه عندما تحين ولادة المرأة في العصر الجاهلي تحفر حفرة وتجلس على شفتها فان كان المولود بنتاً قذفته فيها واذا كان ولداً عصمته منها . وقد قال أحد شعرائهم بهذا الصدد مفتخراً :

سَمِيَّتْهَا إِذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ والقبرُ صِهْرٌ ضامنٌ ذُمِيْتُ ^(٢) .

ان هذا العمل سواء كان بدافع الفقر المدقع والاعتقاد بعدم الفائدة الاقتصادية للبنات او بدليل التعصب المفرط ضدهن لتفادي وقوعهن في الحروب أسيرات بيد الاعداء فهو افظع واوحش ظواهر عصر عرب الجاهلية .

وقد عاب القرآن هذه الاعتقادات مراراً بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ^(٣) .

ان هذا العمل نوع من انواع التعصب الأعمى لحفظ الشرف وقد جرهم لاقتراف افظع الجرائم : (قتل الانسان لطفله المسالم) وهو دليل واضح على اعظم حالات الجهل وسقوط الاخلاق وانعدام العواطف الانسانية والاستهانة بمنزلة المرأة في ذلك المجتمع الجاهلي وتعبير «أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ» يشير الى ان وجود البنت يعد عار عندهم الى الحد الذي يهرب من قومه وقبيلته تخلصاً من عارها وغافلاً عن ان مسألة عدم وجود بنت تعني عدم وجود امهات ، واذا انعدمت الامهات انعدم

١ - والتفصيل في ذلك جاء في التفسير الامثل ذيل الآية ٩٠ من سورة المائدة .

٢ - مجمع البيان : المجلد ١٠ ، ص ٤٤٤ .

٣ - سورة النحل : الآية ٥٨ - ٥٩ .

وجودهم ايضاً يقول احد شعرائهم في هذا الصدد :

لكل أبي بنت يُراعي شؤونها ثلاثة اصهارٍ إذا حُمِدَ الصهرُ .
فبعلٌ يُراعيها وخِدرٌ يُكنّها وقبرٌ يُوارِيها وخيرُهُم القبرُ^(١)

طفولة الرسول الأكرم ﷺ

لا يوجد بحث كثير في القرآن الكريم عن طفولة الرسول الأكرم ﷺ إلا في الآيات (٦ و ٧ و ٨) من سورة الضحى حيث نقرأ فيها : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ .

في الآية الاولى اشارة الى يتم الرسول الأكرم ﷺ حيث جاء في التاريخ ايضاً ان الرسول الأكرم ﷺ عندما كان في بطن امه توفي والدته (عبد الله) ، وفي السنة السادسة من عمره الشريف توفيت والدته فتكفله جدّه (عبد المطلب) . وفي السنة الثامنة من عمره توفي جدّه ، فاحتضنه عمّه (ابو طالب) وأثره على اولاده ونفسه .

وفي الآية الثالثة اشارة واضحة الى فقر الرسول ﷺ في بداية عمره الشريف فمن الله سبحانه وتعالى عليه بالقاء محبته في قلب خديجة عليها السلام فتزوج منها واغدقت عليه ثروتها واعانتته على حياته ودعوته .

واما في الآية الثانية فيقول تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ وفسره أحد المفسرين بمعنى عدم معرفة الحق .

وقال آخرون : ان مفهوم الآية هو : انك كنت ضالاً لا تعرف الحق ونحن هديناك اليه .

وقال بعضهم : ان المراد بكلمة « ضالاً » هو (غافل) عن الاحكام والكنب

السموية ، ولكن بعضهم يذهب الى الضلالة الظاهرية في الطفولة حيث ضاع الرسول ﷺ مرة او مرات عديدة عند ابواب مكة او في اماكن اخرى . والله سبحانه هداة الى احضان مملوءة بالمحبة فأرجعه الى احضان (عبد المطلب) و(أبي طالب) و (حليلة السعدية) التي كانت أمه في الرضاعة .

وقد بينا شرح هذه الآية في المجلد السابع من رسالة القرآن في بحث تنزيه الأنبياء ، وفي التفسير الامثل المجلد (٢٧) في ذيل هذه الآية آراء مختلفة وافضل التفاسير هو ما ذكر اعلاه .

وعلى كل حال فان هذه الآيات تُبين مراحل نمو طفولة الرسول الأكرم ﷺ . ومن ابرز خصائص الرسول ﷺ في هذه المرحلة انه ما تعلم القراءة والكتابة عند استاذٍ قط . ولربما يبدو لاول وهلة بأنه نقص ما ولكنه من النقاط المهمة والقوية في شخصية الرسول الأكرم ﷺ ، لانه عندما جاء القرآن الكريم بعباراته ومعارفه الراقية لم يشك احد ان هذا بانه منزل من الله سبحانه من نتاج فكر انسان أمي . وقد اكدت الآية (٤٨) من سورة العنكبوت هذا المفهوم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبِطِلُونَ ﴾ ، وبدون شك ان النبي ﷺ لو درس على يدي استاذ ما في تلك البيئة التي يُعد عدد المتعلمين فيها قليل جداً لكان من المستحيل عليه ان يتفوه بمثل هذا القول الجلي ، ولجابه بعض الافراد المطلعين على مجريات الاحداث بتلك الحجة الجيدة متهمين اياه بالكذب والافتراء .

ولو فرضنا ان الرسول الأكرم ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة لكان من المسلّمات ايضاً ان هذا القرآن لم يكن من تأليف عقل بشري فاميته دليل قاطع على هذا المعنى .

وفي آيتين من القرآن الكريم جاء تصريح واضح ايضاً بـ «النبي الأمي»^(١) وفي آية اخرى ضمنت ذلك المعنى بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾^(٢).

ونحن نعرف ان اشهر تفسير لكلمة «أمي» هو من لا يقرأ ولا يكتب وحاله كحال الذي يخرج من بطن لم ير استاذاً ولا مدرسة .
ويفسر بعض آخر كلمة «أمي» بانه من قام من بين الأمة والناس لا من بين الطغاة والجبابرين .

وبعضهم يذهب الى انه من وُلد في مكة المكرمة لأن احد اسمائها (أم القرى) أو من قام من مكة ، وتختلف الروايات بهذا الصدد ولكن لا مانع في ذلك لو احتملنا ان كلمة «أمي» تتضمن معنى المفاهيم الثلاثة (لا يقرأ ولا يكتب) ، وقام من بين الأمة ، وولد في منطقة مكة .

بعض المستشرقين المخالفين حاولوا ان يسلبوا هذه الخصيصة من الرسول ﷺ كان رجلاً غير (أمي) ولو انه كان كما يدعون خفي ذلك على بيئة لا يخفى فيها شيء على أحد ، بل انها لم تكن قدرة انكار ذلك .



بداية دورة البعثة النبوية

كانت هذه لمحات مختصرة في القرآن الكريم حول حياة الرسول الأكرم ﷺ قبل البعثة الشريفة ، والآن جاء دور البحوث المفصلة حول البعثة النبوية .
اشار القرآن الكريم اشارات مختلفة حول مبعث الرسول الأكرم ﷺ ومن

١ - سورة الاعراف: الآية ١٥٧ - ١٥٨ .

٢ - سورة الجمعة: الآية ٢ .

جملتها الآيات الخمس التي جاءت في اول سورة العلق ، التي اتفق المفسرون على ان نزولها في بداية (١) الوحي وبعثة النبي الأكرم ﷺ حيث كانت : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ كما هو مشهور .

نعم الله سبحانه وتعالى ذو القدرة الذي انزل اليك كتاباً سماوياً عظيماً يحمل بين دفتيه اعلى العلوم والمعارف الجليلة والقوانين والدروس التربوية بوسائل بسيطة كالحروف الهجائية ، وأكد مرة اخرى تعلم القراءة باسم الخالق العظيم واطافة الى مسألة القراءة أشار الى تعلم الكتابة والى ان الله سبحانه هو المعلم ، الله معلم البشر الاول الذي ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فكانت طرق التعليم على ثلاث اقسام : (قسم خلقها على هيئة علوم فطرية في وجوده مع الانسان في الفطرة وقسم آخر يعتمد العقل والتدبر والتفكير في عالم الخلق والقسم الثالث عن طريق الأنبياء) .

ان هذه الايات القرآنية تدل على ان البعثة بدأت في جو مفعم بالمعنوية ومملوء بنور العلم والمعرفة (٢) .

فتقل الوحي من جهة وثقل الرسالة التي القيت على عاتقي الرسول ﷺ من جهة اخرى والمستقبل المرعب في المجابهة المحتومة مع المشركين المعاندين المتعصبين من جهة ثالثة ، كانت سبباً في شعور النبي ﷺ بالتعب الشديد بعد المرة الاولى لنزول الوحي عليه فرجع الى بيته ونام على فراشه واذا بصوت الوحي يقرع

١ - اورد بعض المفسرين ومن بينهم القرطبي قولاً ضعيفاً على ان اول آية نزلت على الرسول ﷺ هي الآيات : سورة الحمد ، او المدثر ولكن وفقاً لتفسير روح البيان : اذا كان الخلاف سورة العلق كلها فليس هناك خلاف على الآيات الخمس الاوائل منها بانها اول آيات نزلت ، المجلد ١٠ ، ص ٤٧٠ .

٢ - في الآيات ١٦٤ من سورة آل عمران والآية الثانية من سورة الجمعة ايضاً تشير الى اصل البعثة ولم تذكر الآيات الاولى التي نزلت .

مسامحه للمرة الثانية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبُّكَ فَكْبَرُ﴾^(١).

وهناك اقوال كثيرة حول سبب نزول هذه الآية عند المفسرين .

فبعضهم يقول : ان لها تتعلق بزمان تجمع فيه المشركون العرب في موسم

الحج ، وتشاوروا لمجابهة الرسول ﷺ .

وقد جاء في الروايات المتعددة ان الآيات الاولى - على اقل تقدير - من هذه

السورة نزلت بعد حادثة غار حراء وبعثه الرسول ﷺ والآيات الباقية لها تتعلق بالسنوات التالية^(٢):

وتشابه هذه الآيات ، الآيات الاولى من سورة المزمل التي اشارت ايضاً الى ان

الرسول ﷺ ترفع بردائه ونام في فراشه فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْءَل * قُمْ
الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقض منه قليلاً * أو زد عليه ورتل القرآن تريباً * إنا
سنلقي عليك قولاً ثيباً﴾ .

اسلوب هذه الآيات دلالة على نزولها في اوائل الدعوة الاسلامية

للسول ﷺ لأن إلقاء القول الثقيل يشير الى القرآن المجيد على رسول

الله ﷺ في زمان كان عدد المؤمنين به قليلاً ، فاضطر ﷺ الى جمع المؤمنين ليلاً

وبعيداً عن انظار الاعداء ليقرا عليهم الآيات القرآنية التي كانت تحتوي على

المعارف والقوانين الاسلامية .

وطبيعي ان قسماً آيات في هذه السورة قد نزلت في السنوات التالية ، بل وهناك

احتمال بان الآية الطويلة الواقعة في آخر السورة والتي جاء فيها حث على الجهاد

في سبيل الله سبحانه قد نزلت في المدينة أواخر المرحلة المكية (لأن فيها اخباراً

عن المستقبل القريب) .

١ - سورة المدثر: الآية ١ - ٢ - ٣ .

٢ - فسر المفسرون كلمة (المدثر) على خمسة تفاسير ، وردت في التفسير الامثل المجلد : ٢٥ ، ذيل هذه الآيات واكثر الجميع ملاءمة هو ان الرسول ﷺ كان مضطرباً فنام في فراشه ونزلت تلكم الآيات .

وعلى كل حال فليس هناك سبب يمنع نزول الآيات الأولى من السورة في بداية الدعوة وبالاخص ان كثيراً من المفسرين قد اشاروا الى ذلك .
ومن المعروف ان الرسول ﷺ كانت دعوته سرية في بداية البعثة ولم يتصل ويدعو الى الاسلام الا الخواص الذين كان يطمئن باستعدادهم النسبي له وفي هذه المدة آمنت به عدة معدودة .

قصة يوم الدار

وفي السنة الثالثة للبعثة أمر الله سبحانه رسوله الكريم ﷺ ان يعلن الدعوة الاسلامية بنزول الآية الكريمة : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) .

فأعلن الرسول ﷺ دعوته مبتدئاً بالأقربين من عشيرته ، وهذه القصة معروفة ، وقد بينها في القسم السابق .

وفي هذه الاثناء تعرض الرسول ﷺ الى ضغوط متنوعة ، وتحرك الأعداء ضده من كل حدب وصوب .

والجدير بالذكر ان تحرك الأعداء ضد الرسول ﷺ كان على عدة مراحل واشكال مختلفة (ويظهر ان هذه المراحل كانت موجودة في جميع الثورات الالهية) .

المرحلة الاولى : كانت مرحلة الاستهزاء اول المراحل في زمان لم ينظر فيه المشركون بشكل جدي الى الدين الجديد ، ولم يحسوا بخطر الحقيقي ، بل تصوروا السخرية والاستهزاء سينهي الامر سريعاً ولا يحتاج الى اكثر من ذلك وجاء

١ - سورة الشعراء : الآية ٢١٤ .

٢ - سورة الحجر : الآية ٩٤ .

في سورة الانبياء الآية (٣٦) تعبير عن تلك المرحلة بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(١).

ولم تنحصر السخرية والاستهزاء بنبي الاسلام ﷺ بل تعرض لها جميع الأنبياء السابقين : ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٢).

ولما رأى المشركون ان السخرية والاستهزاء لم تؤثر شيئاً وان الاسلام ما زال مواصلاً لتقدمه الصحيح انتقلوا الى المرحلة الثانية :

تصور المشركون انهم سيخرجون الرسول ﷺ من الساحة بالصاق التهم به كالجنون او (السحر) ، او (الشعر) ، او ان ما جاء به قد تعلمه على يد هذا او ذاك او انه منقول من اساطير الاولين .

فمرة يقولون : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾^(٣).

واخرى يقول بعضهم للآخر : ﴿أَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾^(٤).

واحياناً يقولون : ﴿هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٥).

واضاف القرآن الكريم : انه ليس مشركو العرب لوحدهم الصقوا تلك التهم بالرسول ﷺ فحسب بل ان هذه المشكلة قد عانى منها كل الأنبياء ﷺ على مر التاريخ : ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾^(٦). وفي مكان آخر نقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ

١ - وجاء مثل هذه المعنى في الآية (٤١) من سورة الفرقان ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.

٢ - سورة الحجر : الآية ١١ .

٣ - سورة الحجر : الآية ٦ .

٤ - سورة الصافات : الآية ٣٦ .

٥ - سورة الزخرف : الآية ٣٠ .

٦ - الذاريات : الآية ٥٢ .

الذي يُلجِدُون إِلَيْهِ أَعْجَمِيّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»^(١).

واحياناً يقولون: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا»^(٢).

و(اساطير) جمع (أسطورة) ومعناها القصص الخيالية التي لا صحة لها وبهذا الأسلوب الصقوا أنواع التهم وكل ما يختمر في أذهانهم بالرسول ﷺ ولكن لم يؤثر أي منها، وأخذ الاسلام يشق طريقه بسرعة بين الطبقات المختلفة.

المرحلة الثالثة: بدأت المرحلة الثالثة بضغط مختلفة: اجتماعية وسياسية ولأنهم ادركوا مدى خطورة الاسلام عليهم سعوا الى القضاء على الرسول ﷺ والمجموعة القليلة التي آمنت به من هذا الطريق.

وقصة شعب (أبي طالب) معروفة اذ تم فيها محاصرة المسلمين في ذلك الوادي المقفر لمدة ثلاث سنوات خلال السنة السادسة للبعثة حيث انتهت بموت اطفالهم وحتى بعض كبار السن.

وكذلك قصة الهجرة الى الحبشة خلال السنة الخامسة للبعثة معروفة ايضاً على اثر تعرض المسلمون لضغوط شديدة وتعذيب المشركين لهم.

والعجيب انه لم يتعرض المسلمون وحدهم لهذه الضغوط فحسب، بل جاء في التاريخ انهم عقدوا معاهدة على مقاطعة كل بني هاشم وبني عبد المطلب من المسلمين وغيرهم فلا يتزوجوا منهم ولا يزوجهم، وان لا يشتروا منهم ولا يبيعوهم شيئاً حتى يزداد الضغط على المسلمين.

١ - سورة النحل: الآية ١٠٣، جاء في التفاسير ان رجلاً يدعى (بلعام) كان في مكة واصله عبد رومي لبني حزم وكان المشركون يقولون: ان محمداً ﷺ تعلم القرآن منه، وقال بعضهم: ان كلامه إنما نقله من عبيد نصرانيين احدهما يسار والآخر جبر او ذكروا اسم سلمان الفارسي، ولم تكن لغة أي منهم العربية بينما يعد القرآن معجزة في الفصاحة والبلاغة.

٢ - سورة الفرقان: الآية ٥.

مع العلم اننا لا نرى في الآيات القرآنية اشارات واضحة حول هذه المسألة ولكن مما كان يتوالتى بها المشركون والكفار والمنافقون مع بعضهم في المدينة نستطيع ان نعرف وضع مكة : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾^(١).

إن هذه الضغوط لم تجد نفعاً ايضاً ، بل ازداد تعاطف الآخرين شيئاً فشيئاً مع المسلمين وصار الاسلام أنشودة على كل لسان ، حيث ان المسلمين اكتسبوا مظلومية تأثرت بها عواطف مجاميع عظيمة فأنجذبوا اليهم .
فأخذت تحركات الاعداء شكلاً أكثر حدة في :

المرحلة الرابعة : وفيها صمموا على قتل الرسول ﷺ وارقة دمه ليتخلصوا منه الى الابد او ان يبعده عن مكة على اقل تقدير ، ففي (دار الندوة) محل اجتماعهم ومركز مشاوراتهم ، اجتمعوا وطرحوا خطة شيطانية دقيقة للوصول الى اهدافهم تلك كما يقول القرآن : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾^(٢).

وكما نعلم ان الله سبحانه وتعالى قد أبطل كل خططهم الشيطانية ونجا الرسول الكريم ﷺ من سيوف الاعداء حيث هاجر الى المدينة تلك الهجرة الكبيرة التي تركت آثاراً عظيمة في التحول الكبير في الاسلام وفي عالم البشرية أجمع .
ومرة أخرى نسمع القرآن يحدثنا بقوله تعالى : ﴿ أَلَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٣).

١ - سورة المنافقون : الآية ٧ .

٢ - سورة الانفال : الآية ٣٠ .

٣ - سورة التوبة : الآية ٤٠ .

وبهذا الترتيب تخلص الرسول ﷺ من الاخطار المختلفة المحيطة به بلطف من الله سبحانه وبدأ هجرته المباركة بهدوء وسكينة ودخل الاسلام عندها مرحلة جديدة في حياته ، وباء الأعداء بالفشل الذريع في هذه المرحلة ايضاً .

انتشر الاسلام في المدينة بسرعة فائقة وكثر اتباع الدين الاسلامي فشكل الرسول ﷺ الحكومة الاسلامية وصار للمسلمين جيش منظم وبيت للمال وكل ما تحتاجه الدولة آنذاك .

وفي مقابل توسع الاسلام وتثبيت اركانه احس الاعداء بخطر اكثر جدية فوسعوا مجاباتهم ودخلوا :

المرحلة الخامسة : وهي الحرب المسلحة مع الاسلام ، وبدأت الغزوات الاسلامية كغزوة (بدر الكبرى) و (الصغرى) و (احد) و (خيبر) و (حنين) و وواحدة تلو الاخرى وفي كل مرة - إلا في مورد واحد - كان المسلمون يشهدون انتصارات ملفتة للنظر وكانوا في تقدم مستمر .

وقد اشار القرآن الكريم في كثير من الآيات الى هذه المرحلة من حياة الرسول ﷺ حيث تعد من اكثر المرتكزات المهمة في هذا المقطع من تاريخ الاسلام .

في الآية (٢٥) من سورة التوبة اشارة اجمالية الى هذه الغزوات بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ .

فكلمة (مَواطِن) جمع (مَوطِن) وتأتي احياناً بمعنى وطن ومحل الإقامة الدائمة و احياناً بمعنى ساحة القتال ومن هنا جاءت «مواطن كثيرة» اي الساحات المتعددة للحروب الاسلامية حيث بلغ عدد الغزوات ثمانين غزوة لذا نقرأ في الحديث أنه : عندما نذر أحد خلفاء بني العباس انه اذا عافاه الله سبحانه فانه يعطي مالاً كثيراً للفقهاء ولما تماثل للشفاء اجتمع الفقهاء حوله عاجزين عن تعيين

مقدار (المال الكثير) ألا أن الامام التاسع (محمد بن علي التقي عليه السلام فسر الـ (كثير) بـ (ثمانين) (ربما تكون ثمانين الف درهم) لأن الآية السالفة الذكر قد اطلقت مواطن كثيرة على الغزوات الاسلامية البالغة ثمانين غزوة^(١).

ثم جاء الفتح المبين و (فتح مكة) وحكم الاسلام شبه الجزيرة العربية بأجمعها وحطم المسلمون آخر معقل للأعداء.

ولكن العدو المنكسر لم يستسلم فقد اضطر الى تشكيل جمعية سرية (وهم المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالاسلام وينهمكون بانواع المؤامرات ضده باطناً). وبهذا الاسلوب دخلوا:

المرحلة السادسة: (مرحلة نهاية الحرب مع الاعداء)، وبالطبع ان ظهور المنافقين بدأ مع اول انتصار للاسلام وتوسع في مقابله وما زال مستمراً الى الآن. إنهم في هذه المرحلة قد باؤوا بالفشل الذريع ايضاً حيث كلما ارادوا التآمر على الاسلام كشفهم الله سبحانه وابطل حيلهم ولم يبقَ منها سوى نار خامدة تحت الرماد لم يظهر اشتعالها ثانية إلا بعد رحلة الرسول الكريم ﷺ.

نزلت آيات قرآنية كثيرة حول هذه المرحلة ايضاً تعد من مقاطع القرآن المهمة في اسداء العبر والدروس ففي سورة الاحزاب، والتوبة. والمنافقون بحوث حية ومجدية تحكي لنا عن عمق المؤامرات التي قام بها المنافقون ومن جملتها الآية (٤٨) من سورة التوبة حيث ذكرت بحوث كثيرة حول هذه الجماعة ومخالفتهم وفتنتهم ونجسهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

ان هذه المراحل الست السالفة الذكر لم تكن في مقابل الثورة الاسلامية للرسول الكريم وحده ﷺ فحسب بل في مقابل كل الثورات الالهية وهي بدورها موضوع

لقصة مفصلة نتعلم منها .

ولكن لم يفلح الأعداء بكل مساعيهم للاطاحة بالاسلام وظلت شجرته زاهيةً
مثمرةً حيث غطت باغصانها واوراقها كل أصقاع شبه الجزيرة العربية كما دلت الآية
الكريمة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾^(١).

الاشهر الاخيرة من حياة الرسول ﷺ

إنَّ السنة الاخيرة من حياة الأكرم ﷺ هي السنة التي كانت فيها (حجة الوداع)
ونزلت بها آخر سورة من سور القرآن يعني سورة المائدة، ومع نزول آخر رسالة
للولحي على الرسول ﷺ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم ﷺ ان يعين أمير
المؤمنين علياً عليه السلام وصياً له وخليفة من بعده كما جاء في الآية (٦٧ من سورة
المائدة): ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ
وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وفي (غدير خم) ذلك المعبر الكبير الذي كان مُفْتَرَقَ طرق للمجاميع التي
جاءت مع الرسول الأكرم ﷺ في (حجة الوداع) وامام الجمع الكبير أدى الرسول
الأكرم ﷺ حق الرسالة باظهار هذا الأمر^(٢).

وحدثت الحادثة الكبيرة المؤلمة وهي رحيل الرسول الأكرم ﷺ من الدنيا في
وقت كان الاسلام ثابت الاركان من جميع النواحي . وله ارضية مهياة للانتشار في
جميع انحاء العالم . ولذا فقد كانت توقعات الأعداء هي ذهاب الاسلام مع رحلة
الرسول ﷺ ولكن خابت ظنونهم وذهبت ادراج الرياح . ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ
قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾^(٣).

١ - سورة النصر: الآية ١ - ٢.

٢ - ويمكن مراجعة تفصيل ذلك في بداية المجلد الخامس من التفسير الامثل .

٣ - سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(١). و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(٢).

ان هذا القانون طعام لعالم الخلقه ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

وبدليل الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ

وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٣).

ان هذا النور الالهي يتألق يوماً بعد يوم ، وهو الآن يُنير أفقاً واسعاً من آفاق

البشرية ، وفي كل سنة تتنور آفاق أخرى بنور الاسلام ليزيح الظلام والظلم عن العالم اجمع .

كان هذا شرحاً مختصراً عن المراحل المختلفة لعمر الرسول ﷺ في القرآن

المجيد ، وشرح كل مرحلة منها يحتاج الى كتاب خاص ومفصل .



١ - سورة الزمر: الآية ٣٠.

٢ - سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

٣ - سورة التوبة: الآية ٣٢.

الأدلة التي تثبت صدق ادعاء
رسول الإسلام

(اعجاز القرآن)

تمهيد :

بدون شك ان ادعاء اي مدع حول اي موضوع لا يمكن تقبله الا بالدليل المقنع ، فكيف اذا كان الموضوع غاية في الأهمية مثل نبوة الأنبياء والإدعاء بنزول الوحي والارتباط بالله سبحانه ودعوة الناس الى اتباعهم؟! .
على هذا فان اول المسائل التي نواجهها هي مسألة الادلة على نبوة الرسول الأكرم ﷺ .

وان هذه الدلائل التي نعلم اجمالاً بتفرعها تقع تحت اربعة عناوين وهي :

١ - المعجزات .

٢ - محتوى الدعوة .

٣ - اخبار الانبياء الماضين والكتب السماوية السابقة .

٤ - القرائن المختلفة من دراسة سوابق حياته واقربائه واصحابه والوسائل المتخذة للوصول الى الهدف ، وميزان تأثيره في المجتمع ، وميزان اعتقاده واثيره في سبيل هدفه ، والاخلاق والصفات الأخرى التي تشكل ارضية لمعرفة صدق ادعائه .

مع هذه الإشارة نعود الى معجزات النبي ﷺ فنقوم ببحث ودراسة للقرآن الذي يعتبر أول وأفضل وأخلد معجزة للنبي ﷺ وقبل كل شيء نقرأ منطق القرآن في وصف نفسه :

١ - ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(١).

٢ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

٣ - ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٣).

٤ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤).

٥ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقَّوْلُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^(٥).

٦ - ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٦).

٧ - ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا

١ - سورة الاسراء: الآية ٨٨.

٢ - سورة هود: الآية ١٣.

٣ - سورة البقرة: الآية ٢٣ - ٢٤.

٤ - سورة يونس: الآية ٣٨.

٥ - سورة الطور: الآية ٣٣ - ٣٤.

٦ - سورة القصص: الآية ٤٩ - ٥٠.

نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ .

جمع الآيات وتفسيرها

ركّز القرآن الكريم على مسألة التحدي (الدعوة الى المعارضة) التي هي من اركان الاعجاز في جميع هذه الآيات السبع ، فتارة يقول بصراحة -وتارة اخرى بالدلالة الالتزامية :-

انّ هذا الكتاب السماوي هو من عند الله واذا كنتم في شك وريبة منه فاجمعوا كلّ قواكم من اجل الاتيان بمثله أو بآية منه ، لانه اذا كان نتاج فكر البشر فانتم بشر ايضاً ولديكم فكر وذكاء ، وفي الواقع انّ بواسطة ذلك المنطق العقلي الواضح اثبت القرآن اعجازه بصورة اجمالية .

إنّ الآية الاولى تقف بوجه المعاندين قائلة : ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ .

فهذه الآية تدعو من جهة افراد البشر كافة دعوة عامة ، ومن جهة اخرى فهي تدعو جميع افراد البشر في عصرنا والعصور الاتية نظراً الى خلود دعوة القرآن ، ومن جهة ثالثة ، وبملاحظة كلمة «اجتمعت» ، وجملة «بعضهم لبعض ظهيراً» تبين انها دعوة للمخالفين كافة للتعاون فيما بينهم وشحذ الهمم ، وصب افكارهم في مصب واحد من اجل المقابلة بالمثل ، ومن جهة رابعة ، فان اثاره الخصم والتحرش به من اجل تأجيج غيرته قد اتخذ اقوى اشكال التحدي ، وحينما خاطبهم بكلام قاطع : ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ، فهو دليل قوي على ارتباطه الوثيق بعالم ما وراء الطبيعة .

فبالرغم من ان هذه التحدي وهذا النداء كان موجهاً الى ابناء البشر جميعاً ، وان

دوافع اعداء الاسلام للقضاء عليه في عصر النبوة وفي كل عصر وزمان كانت قوية ، فمن المسلم انه لو كانت لديهم قدرة على ذلك لما غضوا النظر عنه ، ولأن تاريخ الاسلام والعالم لا يشير الى ان شخصاً او جماعة قد اقدمت على هذا العمل كان دليلاً على ضعفهم وعجزهم وفي النتيجة على أحقية القرآن .

ويستفاد من هذه الآية ان الاجتماع وحده لا يؤثر في حل المشكلات مالم يصحبه اتخاذ (ظهير) لحماية واسداء مساعدة بعضهم لبعض .

كما نلفت الانظار الى ان القرآن لا يكتفي في التحدي بالبلاغة وجمال البيان فقط ، بل الشبه من جميع الجوانب الشاملة للمحتوى والمعارف والاحكام وكل شيء ، وهذا ما تؤكد كلمة (مثله) الواردة في الآية .



في الآية الثانية يتنازل القرآن عن الاتيان بمثله ، ويطلب من الخصم ان يأتي بعشر سور وهو اقل من عشر كل القرآن قائلاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه قُلْ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ ولم يكتف بهذا بل صرح : ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله ان كُنتم صادقين﴾ .



وفي الآية الثالثة تنازل الى اقل من ١ ٪ قائلاً: ﴿وان كُنتُمْ في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ ثم اضاف : ﴿وادعوا شهدائكم من دون الله ان كُنتُمْ صادقين﴾ .

فمن الواضح ان المراد من : ﴿شهدائكم من دون الله﴾ انصارهم وكل من اعتقد اعتقادهم لانهم هم الذين شهدوا لصالحهم في رد وتكذيب رسالة النبي ﷺ . ومن

الطبيعي ان يتعاونوا فيما بينهم ليأتوا بسورة واحدة مماثلة لسورة من القرآن والآلو كان المراد من «شهادتكم من دون الله» الاتيان بسورة تماثل سورة من القرآن لكان من المفروض مطالبة الله بالشهادة قبل اي شخص آخر، ولذا فإن أول تفسير للآية نقله المرحوم الطبرسي في مجمع البيان عن ابن عباس هو: المراد منها الاعوان والانصار، وأضاف: انه يطلق على الاعوان والانصار: شهداء، لحضورهم وشهودهم حين التعاون.

نقلها الفخر الرازي في تفسيره بعد ذكر معنيين للفظ الشهداء (اي: الاصنام، والاعوان، والانصار) ورجح المعنى الثاني^(١). وارتضى بعض المفسرين هذا المعنى ايضاً.

والسورة: هي جزء من آيات القرآن، تبدأ بـ«بسم الله...»، وتختتم قبل مجيء «بسم الله...» جديدة - ماعداً مورد واحد في القرآن وهي سورة البراءة -. قيل: إنّ السورة مأخوذة من (سور المدينة) اي الجدار المحيط بها، فكأنما اعتبرت هذه المجموعة القرآنية بمنزلة إحدى الدول العظيمة الواسعة، والسور القرآنية مدنها.

وبناءً على هذا الدليل نعتقد بوجود ترابط واتصال بين آيات السورة الواحدة، وان لم يكن واضحاً في الظاهر احياناً وهذا نظير وجود نوع من الانسجام والارتباط بين البيوت والعمارات والشوارع لكل مدينة مع أن فيها المساجد والمدارس والاسواق والمناطق المأهولة بالسكان، كل كيان في موضعه المناسب.

ويستفاد من هذا المعنى ان السور كانت في وقت نزول القرآن على هذه الهيئة العالية بخلاف تصوّر بعض الجهال وإن كان بعض من الآيات النازلة احياناً يتخذ له مكان معين في سورة خاصة بأمر من النبي ﷺ.

وجملة : «من مثله» تتضمن معنى شيء يكون على شاكلة القرآن في كل اوصافه التي تشمل (الفصاحة) و (بلاغة الالفاظ) مع المحتويات والمعارف القيمة^(١).
والشاهد على هذا الكلام هي الآية (٣٨) من سورة يونس التي تقول : ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ ونقرأ في الآية (٣٤) من سورة الطور ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾.
وعلى هذا الاساس يستبعد كثيراً احتمال عودة ضمير (مثله) الى النبي ﷺ بأن يكون معناها : اذا كنتم مرتابين في اصل هذه الآيات السماوية فأعثروا على رجل مثل محمد ﷺ لم يكن قد درس على الاطلاق وأتوا بآيات تناظر الآيات التي أتى بها.

إنَّ هذا المعنى بعيدٌ وإنْ ذكره جماعة من المفسرين اما على وجه الاحتمال او على وجه القبول.

ويحتمل ايضاً اجتماع التعبيرين في هذا المعنى ، ويصير مفهومه بهذا الشكل :
أتوا بسورة مثل سور القرآن من شخص لا يعرف القراءة والكتابة ، كالنبي ﷺ .
والحديث الذي ورد في «تفسير البرهان» جمع هذين المعنيين في عبارة واحدة^(٢).

وعلى كل حال يقول عز من قائل في تعقيب هذه الآية : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.



وتضمنت الآية الرابعة ايضاً التحدي بالاثبات بسورة تشابه سور القرآن فيقول عز وجل : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرِيَهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ

١ - وبناء على ذلك فان (من) اما زائدة او بيانية .

٢ - تفسير البرهان : ج ١ ، ص ٦٧ . ح ١ .

كُنْتُمْ صَادِقِينَ» .

إن لفظة «سورة» تشمل السور الطوال والقصار في القرآن، والتعبير (بمثله) إشارة إلى مماثلته من جميع الجهات، وجملة: ﴿وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ شاملة لكل ما سوى الله .

فعلى هذا الاساس اذا كان القرآن نتاج فكر بشري، فان انساناً آخر يستطيع ان يأتي بمثله فضلاً عن ان يستعين ايضاً باشخاص لايحصون، وبالاخص مع كثرة وجود الفصحاء والبلغاء في اوساط العرب الجاهليين سابقاً .
ويستفاد ضمناً من هذه الآية والآيات السابقة بأن افضل طريق للوصول الى الاهداف المهمة هو الاستفادة من الاطروحات المشتركة، وقد ذكر القرآن ذلك في الوقت الذي لم تكن مسألة الاجتماعات والمؤتمرات للوصول الى حقائق المسائل المهمة مطروحة على صعيد الواقع وحتى مساعي وجهود العلماء كانت تتخذ صبغة فردية وشخصية .



في الآية الخامسة ذكر هذا المعنى نفسه في قالب آخر يقول عز من قائل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ .
و«نَقُولُ» مأخوذة من لفظة «نَقُولُ» وعلى حد قول المرحوم «الطبرسي» في مجمع البيان: هو بمعنى الكلام الذي يخلق ويفتعل بتكلف ومشقة، ويستعمل عادة في الكذب والزور، لانه ليس من الواقع في شيء ولا يخلو من تكلف^(١) .
ويمكن الإشارة «بحديث مثله» الى تمام القرآن او بضع سور او سورة واحدة، او حتى اقل من ذلك لاطلاق كلمة (الحديث) على كل منها .

يقول الراغب في المفردات : كل كلام ينقل الى الانسان عن طريق السماع المباشر ، او الوحي ، في البقطة ، او في المنام ، فهو يسمى بالحديث .



في الآية السادسة من سورة القصص تطرق الى الحديث عن الأتيان بكتاب يشابه هذا الكتاب (القرآن) ، يقول عز من قائل : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

ثم من اجل تعرية حقيقتهم الباطنية الملوثة ، وبيان الاعجاز القرآني يعقب الله تعالى بقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ .

اي : اذا عجز هؤلاء عن الاتيان بمثله فهو دليل على ان هذا الكتاب ليس وليد فكر البشر . والأفليس هناك مبرر لعجز الفصحاء والبلغاء الذين يعيشون بين ظهرائهم مع كل جهودهم ومساعدتهم التي بذلوها .

لفظة (كتاب) تعني كل شيء (مكتوب) و (مدون) .

وبناءً على هذا فهو شامل لتمام القرآن ولاجزائه المختلفة ايضاً ، خصوصاً اذا نظرنا الى ان هذه الآية جاءت في سورة القصص ، وقد نزلت في مكة ومن المعلوم ان القرآن لم ينزل بتمامه في ذلك الزمان ، فيتضح انه اضافة الى كونه معجزة باجمعه فإن اجزائه المختلفة معجزة ايضاً .



وفي الآية السابعة والاخيرة من البحث جاء الردُّ على المحتجين فيقول تعالى على لسانهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ، فيرد عليهم بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

الادلة التي تثبت صدق ادعاء الرسول ﷺ ٦٧.

ثم يعقّب على ذلك بقوله : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ .
يعني لماذا يطلب هؤلاء معجزات اخرى على الرغم من وجود هذه المعجزة
الالهية العظيمة ؟

فعلى هذا الاساس يُعلن بصراحة عن اعجاز القرآن ويتحدى المناوئين بالدلالة
الالتزامية ويدعوهم الى المنازلة .

يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسي في مجمع البيان : إن في إنزال القرآن
دلالة واضحة ومعجزة لاثحة وحجة بالغة تنزاح معه العلة وتقوم به الحجة فلا يحتاج
في الوصول الى العلم بصحة نبوته الى غيره على ان اظهار المعجزات مع كونها إزاحة
للعلة تراعى فيه المصلحة فاذا كانت المصلحة في اظهار نوع منها لم يجز اظهار
غيرها^(١) .

وتبين اهمية هذا البحث من خلال التوجه الى النكتتين اللتين وردتا في (تفسير
القرطبي) و (ظلال القرآن) :

احدهما : إن خوارق العادات الجسمية تتوافق غالباً مع الافراد المبطلين
بالمسائل الحسية ، وتناسب مع بداية التفكير البشري ، اما مثل هذه المعجزة
الروحية التي تنطوي على جنبه معنوية فهي تنسجم مع الحقبة المتفتحة للفكر
البشري .

والاخرى : اضافة الى مخالفته خوارق عادات الانبياء (نظير معجزة موسى
وعيسى ﷺ التي القيت عليها مسح السحر تشكل هذا الاعجاز) الذي هو من
جنس الكلام) من الفاظ يقوى عليها جميع الافراد من اصحاب تلك اللغة^(٢) .



١ - مجمع البيان : ج ٨ ، ص ٢٨٩ .

٢ - تفسير في ظلال القرآن : ج ٦ ، ص ٤٢٢ ، وتفسير القرطبي : ج ٧ ، ص ٥٧١ .

تحصل من ذلك ان القرآن الكريم اشار في سبع آيات من السور المختلفة على الأقل الى ان القرآن معجزة الهية كبرى ، وقام بتحدي المنكرين له بطرق مختلفة . ومن المعلوم ان اي شخص قام بعمل خارق للعادة ودعا جميع الناس الى معارضته ومنازلته وعجزوا عن القيام بها فذلك دليل على اعجازها .

وبعبارة اخرى احتج القرآن عليهم في هذه العبارات بكلام فريد من نوعه بقوله : اذا كنتم تعتقدون بأن هذه الآيات هي من صنع عقل البشر فأنتم ايضا بشر ، ولكم عقول وافكار ولا يندر وجود البلغاء والمتكلمين والفصحاء في اوساطكم ، فاذا كنتم صادقين في هذا الادعاء فأتوا بآيات مثل هذه الآيات . فيدعوهم الى المشاركة في هذه المنازلة من خلال عباراته المتنوعة والمثيرة .

من جهة اخرى لو كان بإمكان اولئك الانتصار في مثل هذه المنازلة ، لحشدوا كل قواهم لأن الانهزام في هذه المواجهة يساوي التضحية بكل شيء عندهم .

لقد كان القرآن في مواجهة حادة مع أسس ثقافتهم المتمثلة في عبادة الأوثان والمتغلفة في مختلف شؤون حياتهم ، ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل انزل شيوخهم ووجهاءهم واثرياءهم المغرورين من اوج جبروتهم وقدرتهم الى منتهى الحضيض ، وسلب منهم امتيازاتهم المصطنعة والموهومة كافة .

ويغض النظر عن الشواهد التاريخية التي سوف نشير اليها لاحقاً فان العوامل المحركة للمقابلة بالمثل كانت كثيرة جداً واذا كان باستطاعتهم حقاً ان يجردوا النبي محمداً ﷺ من السلاح بهذا الاسلوب ، لما دعت الحاجة الى كل هذه الحروب الدموية ، والمجاببات الساخنة وحيث اننا نراهم قد توسلوا بكل شيء سوى محاولة الاتيان بمثل آيات القرآن ، فهذا بنفسه اكبر دليل على انهزامهم في هذه المنازلة .



ملاحظات

أ- تأثير القرآن وجاذبيته المنقطعة النظير

نواجه على طول خط التاريخ حوادث عجيبة وموثقة تبين من جهة النفوذ القرآني العميق في قلوب المستمعين وحتى الغرباء عن عقيدة الاسلام والقرآن ومن جهة اخرى تعتبر دليلاً واضحاً على عجز المناوئين من المقابلة بالمثل ، والبحث في هذه الحوادث التاريخية يرشد الانسان الى مسائل كثيرة ، ويوقفنا دائماً على عظمة هذا الكتاب السماوي وصدق ما ورد في الآيات السابقة ، وفيما يلي نماذج حية منها :

١ - قصة الوليد بن المغيرة المخزومي

تحدث آيات سورة المدثر بشكل واضح عن الشخص الذي خطر في ذهنه أن يجابه القرآن وآل امره الى مصير اسود ونطالع معاً الواقعة التي حدثت بصدد نزول هذه الآيات التي نقلها جمع غفير من المفسرين كالطبرسي ، والقرطبي ، والمراغي ، والفخر الرازي وغيرهم . وهي كما يأتي :

يروى ان النبي ﷺ لما انزل عليه حَم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب قام الى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه لقراءته اعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان

اسفله لمغدق وانه ليعلو وما يعلو، ثم انصرف الى منزله فقالت قريش صبا والله الوليد والله لتصبأن قريش كلهم وكان يقال للوليد ربحانة قريش: فقال لهم أبو جهل انا اكفيكموه فانطلق فقعد الى جنب الوليد حزينا فقال مالي أراك حزينا يا ابن اخي قال هذه قريش يعيبوك على كبر سنك ويزعمون انك زينت كلام محمد فقام مع ابي جهل حتى اتى مجلس قومه فقال اتزعمون ان محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط، فقالوا: اللهم لا، قال: اتزعمون انه كاهن فهل رأيتم عليه شيئا من ذلك؟ قالوا: اللهم لا، قال: اتزعمون انه شاعر فهل رأيتموه انه ينطق بشعر قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: اتزعمون انه كذاب فهل جريتم عليه شيئا من الكذب؟ فقالوا: اللهم لا، وكان يسمى الصادق الأمين قبل النبوة من صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو الا ساحر ما رأيتموه يفرق بين الرجل واهله وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر^(١)

٢- استماع زعماء قريش الى القرآن

نقرأ في سيرة ابن هشام: ان ابا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والخنس بن شريق ابن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع منه وكل لا يعلم صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل

١ - ونقل الحديث مفسرون عديدون - بتفاوت - كالفخر الرازي، والمراغي، والقرطبي، والطباطبائي في الميزان، وسيد قطب في الظلال.

الادلة التي تثبت صدق ادعاء الرسول ﷺ ٧١

ما قالوا اول مرة، ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثالثة اخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا^(١).
نعم لقد كانت جاذبية القرآن شديدة الى درجة بحيث خضع لها حتى الاعداء اللداء، فلو انزاحت عنهم حجب العصبية واللجاجة والتعلق بالمنافع الشخصية لكانوا يؤمنون بالله بصورة قطعية.

٣- قصة ابن ابي العوجاء واصدقائه

ينقل المرحوم الطبرسي في الاحتجاج عن هشام بن الحكم العالم المعروف وأحد تلامذة الامام الصادق عليه السلام يقول:

اجتمع كل من (ابن ابي العوجاء)، و(ابي شاكر الديصاني)، و(عبد الملك البصري)، و(ابن المقفع) وقد كانوا جميعاً من الملحدين وغير مؤمنين، اجتمعوا الى جوار الكعبة واخذوا يسخرون من اعمال الحجاج ويوجهون الطعن الى ساحة القرآن. قال ابن ابي العوجاء: هلموا جميعاً لينقض كل واحد منا ربعا من القرآن ونأتي بشيء مثله، وسيكون موعد لقائنا في السنة الآتية في هذا المكان، عندما ننقض القرآن بأكمله، لأن نقض القرآن هو السبب المؤدي الى إبطال نبوة محمد ﷺ وإبطال نبوته هو إبطال للاسلام واثبات لأحقية ادعائنا فاتفقوا وتفرقوا على ذلك.

وفي السنة المقبلة، وفي اليوم نفسه اجتمعوا الى جوار الكعبة واخذ ابن ابي العوجاء يحدثهم ويقول منذ اليوم الذي تركتكم وابتعدت عنكم، كُنت افكر في هذه الآية ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا﴾^(٢)، فوجدتها على جانب كبير من الفصاحة

١- سيرة ابن هشام: الجزء ١، ص ٣٣٧.

٢- سورة يوسف: الآية ٨٠.

والغزارة المعنوية بحيث انني لم اتمكن من ان اضيف شيئاً اليها ، اضافة الى ان هذه الآية شغلت ذهني عن التفكير بغيرها .

وأما عبد الملك فقال : وانا كذلك كنت افكر في هذه الآية حينما افترقت عنكم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا تَسْمَعُونَ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾^(١) ، وقد وجدت نفسي عاجزاً عن الاتيان بمثلها .

وقال ابو شاعر : منذ ذلك الوقت الذي ابتعدت عنكم كنت افكر في هذه الآية : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾^(٢) .

ولم اجد نفسي قادراً على الاتيان بمثلها .

واضاف ابن المقفع فقال : « يا قوم ان هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر لأنني منذ تلك اللحظة التي افترقت فيها عنكم كنت أتأمل في هذه الآية : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^(٣) ، ورأيت نفسي عاجزاً عن الاتيان بمثلها .

يقول هشام بن الحكم : في هذه الاثناء مر بالقرب منهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وتلا هذه الآية : ﴿ قُلْ لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾^(٤) .

عندئذ اخذ ينظر كل واحد منهم الى الآخر ويقول : اذا كان للاسلام حقيقة قائمة بذاتها ، ولم يكن يمثل محمد ﷺ سوى جعفر بن محمد عليه السلام فتالله لا يقع نظرنا عليه في وقت من الاوقات الا وتستحوذ علينا أبهته ، وتقشعر أبداننا من هيئته . قالوا هذا الكلام وتفرقوا معترفين بعجزهم .

١ - سورة الحج : الآية ٧٣ .

٢ - سورة الانبياء : الآية ٢٢ .

٣ - سورة الاسراء : الآية ٨٨ .

٤ - سورة النحل : الآية ٩٠ .

٤ - قصة عثمان بن مظعون

وهو أحد صحابة نبي الاسلام ﷺ المعروفين قال عثمان بن مظعون: كنت اسلمت استحياءً من رسول الله ﷺ لكثرة ما كان يعرض عليّ الاسلام ولم يقر الاسلام في قلبي فكنت ذات يوم عنده حال تأمله فشخص بصره نحو السماء كأنه يستفهم شيئاً فلما سري عنه سأله عن حاله فقال: نعم بينا انا احدثك اذ رأيت جبرائيل في الهواء فأتاني بهذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ وقرأها عليّ الى آخرها فقر الاسلام في قلبي وأتيت عمه ابا طالب فاخبرته فقال: يا آل قريش اتبعوا محمداً ﷺ ترشدوا فانه لا يأمركم الا بمكارم الاخلاق وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية فقال: إن كان محمد قاله فنعم ما قال وان قاله ربه فنعم ما قال^(١).

٥ - قصة اسعد بن زرارة

جاءت في كتاب (اعلام الوري) و (بحار الانوار) حكاية اخرى عن الجاذبية والتأثير الهائل لآيات القرآن في نفوس المستمعين.

استناداً الى (بحار الانوار) ننقل الحكاية بصورة مركزة وكما يلي:

«قدم اسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس في موسم من مواسم العرب وهما من الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهرًا طويلاً وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم يوم بعاث، وكانت للأوس على الخزرج، فخرج اسعد بن زرارة وذكوان الى مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان اسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة فنزل عليه فقال له: انه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئنا نطلب الحلف عليهم، فقال له عتبة: بعدت دارنا من

١ - مجمع البيان: ج ٥ و ٦، ص ٣٨١، ذيل الآية ٩٠ من سورة النحل.

داركم، ولنا شغل لا نتفرغ لشيء، قال: وما شغلكم وانتم في حرمكم وأمنكم؟ قال له عتبة: خرج فينا رجل يدعي انه رسول الله، سَفَّه احلامنا وسبَّ آلهتنا وافسد شبابنا، وفرَّق جماعتنا، فقال له اسعد: من هو منكم؟ قال ابن عبد الله بن عبد المطلب من اوسطنا شرفاً، واعظمنا بيتاً، وكان اسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم: النصير وقريظة وقينقاع ان هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجرة بالمدينة لنقتلنكم به يا معشر العرب فلما سمع ذلك اسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود، قال: فاين هو؟ قال: جالس في الحجر وانهم لا يخرجون من شعبهم إلا في الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلمه فانه ساحر يسحرك بكلامه.

وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب فقال له اسعد: فكيف أصنع وانا معتمر لا بد لي ان اطوف بالبيت؟ قال ضع في أذنك القطن، فدخل اسعد المسجد وقد حشا أذنيه بالقطن، فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم فنظر اليه نظرة فجازه، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه، ما اجد اجهل مني؟ أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا اتعرفه حتى ارجع الى قومي فاخبرهم، ثم اخذ القطن من أذنيه ورمى به، وقال لرسول الله: انعم صباحاً، فرفع رسول الله ﷺ رأسه اليه وقال: قد ابدلنا الله به ما هو احسن من هذا، تحية أهل الجنة: السلام عليكم، فقال له اسعد: ان عهدك بهذا القريب، الى ما تدعوا يا محمد؟ قال: الى شهادة ان لا إله إلا الله، واني رسول الله، وادعوكم الى «ان لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا اولادكم من إملاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده واطفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون».

فلما سمع اسعد هذا قال له : اشهد ان لا إله إلا الله وانك رسول الله ، يا رسول الله بابي انت وامي انا من اهل يثرب من الخزرج ، وبيننا وبين اخوتنا من الأوس حبال مقطوعة ، فان وصلها الله بك ، ولا اجد اعز منك ، ومعني رجل من قومي فان دخل في الأمر رجوت ان يتمم الله لنا امرنا فيك ، والله يا رسول الله لقد كنا نسمع من اليهود خبرك ، ويبشروننا بمخرجك ، ويخبروننا بصفتك ، وارجو ان يكون دارنا دار هجرتك عندنا ، فقد اعلما اليهود ذلك ، فالحمد لله الذي ساقني اليك ، والله ما جئت إلا لنطلب الطف على قومنا ، وقد آتانا الله بافضل مما أتيت له ثم اقبل ذكوان فقال له اسعد : هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشرنا به ، وتخبرنا بصفته ، فهلّم فأسلم ذكوان ، ثم قالوا : يا رسول الله ابعث معنا رجلاً يعلمنا القرآن ، ويدعو الناس الى امرك ، فقال رسول الله لمصعب بن عمير ، وكان فتى حدثاً مترفاً بين ابويه بكرمانه ويفضلته على اولادهم ولم يخرج من مكة ، فلما أسلم ، جفاه أبواه ، وكان مع رسول الله في الشعب حتى تغير وأصابه الجهد ، وأمره رسول الله بالخروج مع اسعد ، وقد كان تعلم من القرآن كثيراً ، فخرجا الى المدينة ، ومعهما مصعب بن عمير فقدموا على قومهم واخبروهم بأمر رسول الله وخبره ، فأجاب من كل بطن الرجل والرجلان ^(١) .

٦ - القصة المثيرة للأصمعي

ينقل الزمخشري في تفسير (الكشاف) عن الاصمعي ^(٢) أنه قال : اقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له فقال : من الرجل ؟ قلت : من بني أصمع ، قال : من اين اقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، فقال : اتل عليّ ،

١ - بحار الانوار: الجزء ١٩، ص ٨ - ١٠.

٢ - اسمه عبد الملك بن قريب، عاش في ايام هارون الرشيد، اشتهر بكثرة حفظه ومعلوماته الواسعة عن تاريخ العرب وآدابهم توفي في البصرة سنة ٢١٦، الكنى واللقاب: ٣٧/٢.

فتلوت «والذاريات» فلما بلغت قوله تعالى: «وفي السماء رزقكم» قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالاعرابي قل نحل واصفر، فسلم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: «فورب السماء والارض إنه لحق»، فصاح وقال: يا سبحان الله، من ذا الذي اغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى الجأوه إلى اليمين، قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه^(١).

٧- رد فعل إعرابي تجاه آية من القرآن

وروي أن رجلاً تعلم من النبي ﷺ القرآن فلما انتهى إلى قوله تعالى «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» قال: يكفيني هذه، وأنصرف، فقال: رسول الله ﷺ: انصرف الرجل وهو فقيه^(٢).

٨- القصة المثيرة للسيد قطب

ينقل السيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن قصة عجيبة من حياته، وذلك في ذيل الآية (٣٨) من سورة يونس «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ». يقول: اذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستة، وذلك منذ نحو خمسة عشر عاماً... كنا ستة مسلمين على ظهر سفينة مصرية تمخر عباب المحيط الاطلسي إلى نيويورك، من بين ١٢٠ راكباً وراكبة أجنب ليس فيهم مسلم... وخطر لنا يوم

١- الكشف للزمخشري: ج ٤، ص ٤٠٠.

٢- تفسير روح البيان: ج ١٠، ص ٤٩٥، ونور الثقلين: ج ٥، ص ٦٥٠، وسفينة البحار: مادة قرء ج ٢، ص ٤١٤، وتفسير الأمل: ج ٢٧، ص ٢٣١، ذيل آيات سورة الزلزال.

الجمعة ان نقيم صلاة الجماعة في المحيط على ظهر السفينة ! والله يعلم - انه لم يكن بنا ان نقيم الصلاة لذاتها اكثر مما كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يقوم بمزاولة عمله على ظهر السفينة ، وحاول ان يزاول تبشيريه معنا !... وقد يسّر لنا قائد السفينة - وكان انكليزياً - ان نقيم صلاتنا ، وسمح لبحارة السفينة وطهايتها وخدمتها - وكلهم نوبيون مسلمون - ان يصلي معنا من لا يكون في (الخدمة) وقت الصلاة ! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً ، اذ كانت المرة الاولى التي تقام فيها صلاة الجماعة على ظهر السفينة ... وقمت بخطبة الجمعة وامامة الصلاة ، والركاب الاجانب معظمهم - متحلقون يرقبون صلاتنا وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح (القدّاس) ! فقد كان هذا اقصى ما يفهمونه من صلاتنا ! ولكن سيدة من هذا الحشد - عرفنا فيما بعد انها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم تيتو وشيوخه ! - كانت شديدة التأثر والانفعال تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها جاءت تشد على ايدينا بحرارة ، وتقول :- في انكليزية ضعيفة - انها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح !... وليس هذا موضع الشاهد في القصة ... ولكن ذلك كان في قولها : اي لغة هذه التي يتحدث بها (قسيسكم) ! فالمسكينة لا تتصور ان يقيم (الصلاة) الا قسيس - أو رجل دين - كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة ! وقد صححنا لها هذا الفهم ! وأجبناها : فقالت : ان اللغة التي يتحدث بها ذات ايقاع موسيقي عجيب ، وان كنت لم افهم منها حرفاً ... ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول : ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد ان أسأل عنه ... ان الموضوع الذي لفت حسي ، هو أن (الامام) كانت ترد في اثناء كلامه - بهذه اللغة الموسيقية - فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه ! نوع اكثر موسيقية واعمق ايقاعاً ... هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث في رعدة وقشعريرة ! انها شيء آخر ! كما لو كان الامام - مملوءاً من روح القدس ! حسب تعبيرها المستمد من

مسيحياتها! وتفكرنا قليلاً، ثم ادركنا انها تعني الآيات القرآنية التي وردت في اثناء خطبة الجمعة وفي اثناء الصلاة! وكانت - مع ذلك - مفاجأة لنا تدعونا الى الدهشة، من سيدة لا تفهم مما نقول شيئاً^(١)!

٩ - قصة النجاشي وعلماء الحبشة المسيحيين

انما بدأت هجرة المسلمين الاولى الى الحبشة في الوقت الذي ازدادت ضغوط مشركي مكة وتنكيلهم بالمسلمين، مما اضطر كثير منهم الى الهجرة الى الحبشة باذن من رسول الله ﷺ وقام سلطان الحبشة بايوئهم ومن ثمَّ وجدوا الأمان فيها، وكان هذا الأمر السبب الرئيس في النفوذ التدريجي للإسلام في الحبشة من جهة، ولنفوذ الإسلام في مكة من جهة اخرى، لأن هذا مدعاة لان يؤمن بقية الناس ايضاً، فاذا ما ضاق بهم الخناق من قبل المشركين سلكوا طريق الحبشة.

يذكر ابن هشام في تاريخه المعروف ...:

«فلما رأت قريش ان اصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا واطمأنوا بارض الحبشة، وانهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، إئتمروا بينهم ان يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جُلدين الى النجاشي فيردهم عليهم ليفتنوهم في دينهم ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد الله بن ابي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارفته، ثم بعثوهما إليه فيهم، وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما: ادفعا الى كل بطريق هديته قبل ان تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما الى النجاشي هداياه، ثم سلاه ان يسلمهم اليكما قبل ان يكلمهم، فخرجا حتى قدما الى النجاشي هداياه وقالوا لكل بطريق منهم: انه قد ضوى الى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لنعرفه

نحن ولا انتم وقد بعثنا الى الملك فيهم اشراف قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم البنا ولا يكلمهم فان قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم .

فقالوا لهما : نعم ، ثم كلما الملك : يا ايها الملك ، انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا انت وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم اليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه فقالت بطارفته حوله : صدقا ايها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم ، فغضب النجاشي ثم قال : لاها الله اذا لا اسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى ادعوهم فاسألهم عما يقول هذان في امرهم ، فان كانوا كما يقولون اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما واحسنت جوارهم ماجاوروني . ثم ارسل الى اصحاب محمد ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل اذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علمنا وأمرنا به نبينا ﷺ فلما جاؤا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم : ما هذا الدين الذي فارقتم قومكم فيه ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ فقال جعفر عليه السلام ايها الملك : كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسئ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف حتى بعث الله البنا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاثان وأمر بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم ... وأمرنا بالصلاة والزكاة ،

والصيام فعدد عليه امور الاسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ...
 فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان فخرجنا الى
 بلادك ورغبنا في جوارك ورجونا ان لا تُظلم عندك ايها الملك ، فقال له النجاشي :
 هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قال جعفر : نعم ، قال النجاشي : فاقرأه
 علي ، فقرأ جعفر عليه السلام كهيعص ، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكى
 اساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم ... فضرب النجاشي بيده على الارض ، فاخذ منها
 عوداً ، ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود ان هذا والذي جاء به
 عيسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا ، فلا والله لا اسلمهم اليكما ولا يكادون .
 فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به»^(١) .

١٠ - نفوذ القرآن في اوساط العلماء الاجانب

لم يقتصر نفوذ القرآن على العرب والاحقاب الماضية ، وانما شمل في عصرنا
 هذا - ايضاً - اولئك الذين لا يحيطون علماً برموز الادب العربي ؛ فان تأثيره بينهم قوي
 عجيب ؛ ولهذا السبب انبرى عدد من العلماء الغربيين الى تعظيم القرآن والاعتراف
 بحقائقه التي هي مورد اعتزازنا .

من جملتهم الدكتور (واغليري) الاستاذ بجامعة (فاپل) يقول في كتابه المعروف
 (التطور السريع للاسلام) : « كتاب الاسلام السماوي هو احد نماذج الاعجاز ، والقرآن
 هو الكتاب الذي لا يمكن أن يُقلد ؟ فكيف يمكن ان يكون هذا الكتاب الاعجازي
 من انشاء محمد صلى الله عليه وسلم الرجل العربي الذي لم يتعلم القراءة والكتابة ، اننا نجد في
 هذا الكتاب من المحتويات والمضامين العلمية ما يفوق قابلية واستعداد أذكى افراد

البشر واكبر الفلاسفة واقوى رجال السياسة» (١).

ويقول (كارلايل) العالم الانكليزي المعروف بصدد القرآن: «اذا القينا نظرة واحدة على هذا الكتاب المقدس، لوجدنا حقائق جلية، وخصائص اسرار الوجود مكنونة في مضامينها الجوهرية، بالصورة التي تبين حقيقة القرآن وعظمته بوضوح، وهذا بحد ذاته مزية كبرى يختص بها القرآن وتفتقر اليها كل الكتب العلمية والسياسية والاقتصادية، وان كانت بعض الكتب تحدث تأثيراً عميقاً في ذهنية الانسان، الا انها لا تشابه القرآن في نفوذه وتأثيره».

يذكر (جان ديون بورت) في كتابه (اعتذار الى حضرة النبي والقرآن): القرآن منزّه عن النواقص، والعيوب بحيث لا يحتاج الى ادنى تصحيح او تقويم. ثم يضيف على ذلك قائلاً: ان القسيسين اوجدوا - ولسنوات طويلة - هوة بعيدة بيننا وبين التعرف على حقائق القرآن المقدسة وعظمة المبعوث به (محمد) ﷺ الا اننا كلما قطعنا خطوة في طريق العلم والمعرفة، كلما أنزاحت عنا حُجب الجهل والتعصب، وسيستقطب هذا الكتاب الغني عن الوصف العالم الى نفسه في القريب العاجل، ويحدث تأثيراً عميقاً في العلم والفكر البشري، وسيصبح محور افكار الدنيا (٢).

ويقول الشاعر الالماني الكبير (غوته): «نحن كنا في بادىء الأمر مبتعدين عن القرآن، ولم تنقض مدة طويلة حتى اصبح هذا الكتاب موضع توجهننا واهتمامنا ومبعث حيرتنا، الى الحد الذي اذعنا فيه بالتسليم لاصوله وقوانينه العلمية الكبيرة».

ويقول العالم الفرنسي (جول لافن) في كتاب (تفصيل الآيات): «إن الذي اوقد

١ - كتاب (التطور السريع للاسلام) ترجمة المرحوم سعيد ص ٤٩ (مع التلخيص).

٢ - اعتذار الى حضرة محمد والقرآن. ترجمة فارسية ص ١١١.

فتبل العلم والمعرفة في العالم هم المسلمون ، ونهلوا العلوم والمعرفة من بحر القرآن واجروا منه انهاراً وينابيع الى البشرية في العالم ،^(١).

يكتب (دينورت) احد علماء الغرب في مايلى : «يجب الاعتراف بأن الفضل في انتشار العلوم الطبيعية والفلكية والرياضيات في اوروبا انما يعود الى تعليمات القرآن والمسلمين واننا لمدينون لهم ، بل يمكن القول : ان اوروبا - من هذه الجهة - هي احدى البلاد الاسلامية^(٢) .

ويقول المستشرق الشهير (نولدكه) : «لقد فرض القرآن سيطرته باستمرار على قلوب اولئك الذين يخالفونه على البعد واوجد فيما بينه وبينهم ارتباطاً قوياً»^(٣).



ب الذين لجؤوا الى المعارضة

ذكرنا في ما سبق أن المعجزة عبارة عن دعوة الآخرين الى المقابلة بالمثل وعجزهم عن ذلك ، وهنا يتبادر الى الذهن هذا السؤال : من أين يُعلم -والقرآن قد دعا العالمين كافة - أن أحداً لم يستطع أن يأتي بنظيره على طول التاريخ .

الجواب واضح ، فهذا الموضوع ليس بمسألة هامشية حتى يمكن للتاريخ ان ينساها ، بل هي مرتبطة كثيراً بمصير هذه العقيدة المهمة ومصير منافسيها الذين يمتلكون قدرة هائلة ويصرفون سنوياً مبالغ ضخمة في محاربة الاسلام ومواجهته ولو كان يقع مثل هذا الامر ، لاتخذوا من ذلك وسيلة اعلامية وبوقاً دعائياً واسعاً ومريحاً.

وعليه بناءً على المثل المعروف القائل : «لو كان لبان» لابد ان يبدو للبيان كل

١ - المعجزة الخالدة .

٢ - المصدر السابق .

٣ - مجموعة مقالات على كتاب .

الادلة التي تثبت صدق ادعاء الرسول ﷺ ٨٣

مظهر من مظاهر المعارضة والمواجهة في هذا المجال ، ولهذا السبب كانت ترد بعض الاتهامات على عدة من الافراد الذين قد لا يفكرون في معارضة القرآن اطلاقاً وأتخذ من ذلك وسيلة دعائية ، وهذا يدل بوضوح على الاصرار الكبير على هذه المسألة من قبل المناوئين ولهذا الامر كانوا يتشبثون بكل الوسائل الممكنة في سبيل الوصول الى مقاصدهم الدنيئة .

الشخص الوحيد الذي سجله التاريخ هو (مُسَيْلَمَة) المشهور (بالكذاب) الذي قام بادعاء النبوة في عصر النبي ﷺ وعلى ارض (اليمامة) من منطقة شرق الحجاز .

كان اسمه الحقيقي (مسيلم بن حبيب) وأظهر دعوته في اواخر حياة النبي الاكرم ﷺ (في السنة العاشرة للهجرة) وكان يحاول ما وسعه ذلك ان يقلد رسول الله ﷺ في كل شيء .

ويدعي أن ملكاً ينزل عليه اسمه (رحمان) ويأتيه بآيات تشابه آيات القرآن . وقبل : انه طلب من النبي ان يشاركه في النبوة ويوصي بأن يقوم مقامه بعد وفاته ﷺ حتى يكف عن المخالفة والعداء .

نستشف من هذه القرائن والامارات بأن أيادي العصابة القبلية كانت وراء ، مسيلم وتؤيده على هذا العمل وتوازره .

وكان أهل اليمامة يتخذون هذه الوسيلة للقضاء على سيادة فريش وحاكمة أهل مكة والمدينة التي تحققت تحت ظل مقام نبوة نبي الاسلام ﷺ .

ولهذا السبب كانوا يبحثون عن رجل يثير الشغب ويطلب الرئاسة والمال ، فوجدوا هذه الصفات عند مسيلم .

الآن الحديث الذي ينقل عنه بعنوان المعارضة للقرآن يدل بوضوح - فضلاً عن كل مامر - على انه رجل سخيف ، يعتمد السجع في الكلمات من دون ان يهتم

بمحتوى كلامه .

من جملة عباراته المضحكة التي نقلت عنه في هذا المجال كتقليد للقرآن ، هي هذه الكلمات :

«والمبذرات بذراً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والعاجنات عجنأ، والخابزات خبزأ، والشاردات ثردأ، واللاقمات لقمأ، إهالة وسمناً»^(١).

يبدو انه يريد من وراء هذه الجمل المضحكة ان يتحدث آيات سورة العاديات او الذاريات .

يقول القرآن : «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا * فَوْسَطْنَنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ...» انظر الى هذا التفاوت البعيد .

ينقل عنه في عبارة اخرى انه نزلت عليه هذه الآيات «ياضفدع بنت ضفدعين نقي ماتنقين أعلالك في الماء واسفلك في الطين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين»^(٢).

وسائر الاحاديث او بالاصطلاح الآيات الاخرى التي نقلت عنه هي على هذه الشاكلة ايضاً، بل ان بعضها أسوء حالاً، وبعضها ركيك، فالاعراض عن ذكرها أولى . يستفاد بوضوح من عباراته التي نقلت عنه أنه يولي السجع اهتمامه في جملة فحسب ويرى ذلك كافياً، بالضبط على غرار الاشعار التي تنظم في زماننا للاطفال وهي مطالب خاوية ورخيصة تصب من دون معنى مترابط في قوالب شعرية، ويكتفون بقافتيتها فقط .

١ - سفينة البحار: مادة سلم، - تاريخ ابن الاثير: ج ٢، ص ٣٦١، - اعجاز القرآن للرافعي: ص ١٢٧.

٢ - المصدر السابق ص ١٢٨.

يذكر المؤرخون: أنه كان في عصره امرأة معروفة بالكذب اسمها (سجاح على وزن تباه)، وكانت تقول العرب: «فلان أكذب من سجاح» نظراً لما اشتهر عنها بالكذب. وهي من بني تميم، وكانت تدعي النبوة ونزول الوحي ايضاً وتبعها ثلة من الناس. وأخذت هي الاخرى تنشئ الفاظ السجع كمسيلمة.

يقال: إنّ اتباع هذين الشخصين المتجاورين استعد كل منهما للحرب مع الآخر، إلا أن مسيلمة توسل بأسلوب الحيلة والمكر واختلى بسجاح، وقال لها: هل ترغبين بالزواج مني، فتتحد قبيلتي مع قبيلتك ونحمل حملة رجل واحد على العرب، فرضيت بذلك، ومكثت معه ثلاثة أيام ولما رجعت سألتها افراد قبيلتها عن مهر هذا الزواج، فجاءت الى مسيلمة وطالبتة بالمهر، فأمر مسيلمة احد الاشخاص بالنداء بين القبيلتين: إنّ مهر سجاح هو رفع وحذف صلاة الصبح والعشاء التين وردتا في شريعة محمد.

وعندما قُتل مسيلمة في حرب اليمامة بعد رحلة نبي الاسلام ﷺ على يد قاتل حمزة المعروف (وحشي) اظهرت هذه المرأة الاسلام^(١).

ولقد اشتهر هذان الشخصان بالكذب الى درجة بحيث قال احد الشعراء في حقهما:

والت سَجاح ووالاها مسيلمة كذابة من بني الدنيا وكذاب

٢ - ومن ضمن الافراد الذين قاموا بمعارضة القرآن في اواخر حياة النبي هو (الاسود العنسي) وكان هو الآخر يكتفي بتلثيق الكلمات في معارضة القرآن وان كانت فارغة من المحتوى، وادعى النبوة في ايام حجة الوداع (في اواخر حياة النبي) ولم تستغرق مدة ادعائه للنبوة اكثر من اربعة اشهر.

وقد فرض سيطرته على بلاد (البحرين) و (نجران) وقسم من بلاد (اليمن)

١ - دائرة معارف القرن العشرين: فريد وجدي وفق نقل تنزيه التنزيل للمرحوم الشهرستاني ص ١٧٦.

وسواحل (الخليج الفارسي) وغيرها ومن ثم قتل في اليمن على يد «فيروز» الإيراني مستعيناً بزوجته ، ووصلت انباء قتله الى المدينة في حياة رسول الله ﷺ^(١).

ويقال : انه كان يعيش في الاماكن المنحطة فكرباً وخلقياً ، ولهذا السبب تبعه مجموعة من شذاذ الافاق ، وكان يراهن على السجع في كلماته لمعارضة القرآن ، كما نقل عن مسيلمة ذلك آنفاً . الا ان اتباعه سرعان ما اطلعوا على فساد عقيدته وابتعدوا عنه .

٣ - وردت بعض الاتهامات المفتعلة ايضاً الى عدد من الشخصيات بمعارضة القرآن وان لم يثبت تاريخياً ، وقد يكون السبب وراء تلك الاتهامات أن مجموعة من الجهال فسرت قسماً من المقاطع المسجعة لبعض الادباء العرب على أنها تحد للقرآن الكريم ، او ان الاعداء المحتالين أرادوا أن يستغلوا هذا الاحتمال .

ومن جملتهم : (عبد الله بن المقفع) وهو من الكتاب والادباء المعروفين في القرن الثاني للهجرة عاصر الامام الصادق عليه السلام ويقال عنه إنه كان في بداية الامر مسيحياً ثم أسلم بعد ذلك ، وكان يمتلك الاحاطة الكاملة باللغة الفارسية ، وترجم الى العربية بعض الكتب من جملتها كتاب (كليلة ودمنة) وقد اظهر الاسلام بوضوح في المقدمة التي كتبها لهذا الكتاب . ولكن يقال : إنه سُمع منه احياناً بعض الكلمات الجارحة .

ومن ثمَّ سلّموه الى امير البصرة (سفيان بن معاوية المهلبى) فقتله بسبب بعض الاختلافات الجانبية بينهما ظاهراً .

ويقال : إنه لما أراد سفيان ان يلقيه في التنور قال له : أقتلك وشيء عليّ لانك زنديق قد افسدت عقائد الناس . وعلى اي حال فان عقائده ليست واضحة لنا بدقة ، ولكن المسلم به هو انه لم يدعُ الى معارضة القرآن ، وان كان بعضهم يرى ان كتابه

المعروف (بالدرة اليتيمة) دُوِّنَ لهذا الغرض ، ومن حسن الحظ ان كتابه الانف الذكر بين ايدينا وقد طبع عدة مرات . ولم تر فيه اية اشارة لمسألة المعارضة للقرآن ، ولا يعلم ما هو السبب وراء هذه النسبة له ولكتابه .

وعلى كل حال لا توجد هناك وثيقة تاريخية تدل على معارضته للقرآن ، وكتابه المذكور وان دون بصورة ادبية الا انه لا يوجد فيه شيء يدل على (تحديه) للقرآن .

٤ - من ضمن الاشخاص الذين نسبت اليهم هذه التهمة ايضا : (ابو العلاء

المعري) وهو من الكتاب والشعراء المعروفين في القرن الخامس للهجرة ، وكان رجلاً ملحداً ، نقل عنه كلام جارح ، بحيث لا يمكن القياس بينه وبين (عبد الله بن المقفع) ، الا انه - وعلى اي حال - لا يوجد بين ايدينا سند تاريخي يدل على توجهه الى تحدي القرآن ؛ ولعل توجيه مثل هذه النسبة اليه يعزى الى اتهامه بالالحاد وعدم التدين من جهة ، والى كونه ادبياً وشاعراً وكاتباً من جهة اخرى ؛ يشهد على ذلك استخفافه بالعبارات المسجوعة المذكورة في كتاب (التاج) لابن الراوندي ، اذ يقول بصراحة في (رسالة الغفران) التي كتبها رداً ، على كتاب (التاج) : بان قوافي وسجعبات ابن الراوندي لاتعدو ان تكون نظير ما يقوله الكهنة نحو : أفٍ وثُفٍ وجَوَرٍ وخُفٍ^(١) .

وعلى هذا الاساس ، يرى هو الآخر أن حَبْكَ العبارات المسجوعة من دون مضمون ليس لها أية قيمة وأهمية .

ومن الجدير بالذكر ، انه يمتلك مقالة جيدة بصدد القرآن في رسالة الغفران نفسها تدل على اعترافه بعظمة القرآن وشموخ معانيه (وان كان لا يعتبره وحياً سماوياً) فهو يقول بصراحة : عندما تأتي آية واحدة من القرآن في حديث ما فهي كنجم مضيء يتلأل في ليل بهيم .

٥- (أحمد بن الحسين الكوفي) الشاعر المعروف بالمتنبي الذي يظهر من اسمه انه كان ادعى النبوة، وقد كان من ادباء القرن الرابع للهجرة، وهو على جانب كبير من الذوق الشعري، في بداية الامر اعتنق الاسلام لكنه ادعى النبوة بعد ذلك كما قيل، ومن الجدير بالذكر أن دعواه هذه كانت في السنة السابعة عشرة من عمره.

جاء في حاشية كتاب (اعجاز القرآن) للرافعي: انه ادعى النبوة في سنة ٣٢٠ هـ. وتبعه جمع من (بني كلب)، ومن ثم ألقاه والي حمص في السجن وتفرق عنه اتباعه، فتاب وأفرج عنه، ثم انكر هذا الامر بعد ذلك، ومرت مدة من الزمن أصبح فيها مقرباً الى (سيف الدولة) وكلما ذُكر في مجلسه ادعائه للنبوة كان ينكر ذلك؛ قُتل في نهاية الامر على يد (فاتك بن ابي جهل) بسبب وقوع اختلافات بينه وبين اتباع (عضد الدولة الديلمي) ^(١).

٦- ومن ضمن الاشخاص الذي فكروا في تحدي القرآن: (أحمد بن يحيى) المعروف بابن الراوندي، وهو من متكلمي المعتزلة، لازم الملحدين والمناوئين للاسلام دائماً لانهم كانوا يلومونه كثيراً، وكان يقول: أريد ان احيط علماً بعقائدهم؛ ثم تظاهر بالالحاد بعد ذلك ودخل في منازعات مع الناس، يقال: ان أباه كان يهودياً ثم اسلم، لذا قال بعض اليهود لبعض المسلمين: إن ابن الراوندي سيضيع كتابكم كما ضيع والده كتاب اليهود.

وكتبوا عنه: انه لم يستقر على عقيدة معينة، اذ كتب لليهود كتاباً في الرد على الاسلام، مقابل اربعمائة درهم تحت عنوان (البصيرة) ولما انتهى منه، انبرى للرد عليه، وامتنع عن ذلك مقابل استلامه لمائة درهم.

ويقال: انه قام بتأليف كتاب، يتحدث به القرآن اسمه (التاج) الا انه لم تقع في ايدينا نسخة منه الى وقتنا هذا. وهو الكتاب نفسه الذي يقول عنه (ابو العلاء

الادلة التي تثبت صدق ادعاء الرسول ﷺ ٨٩.

المعري): اما تاجه فليس نعلًا! وهل تاجه الا كما قالت الكهنة: أفٍ وتُفٍ وجوزٍ وخُفٍ^(١).



يُستنتج بشكل واضح من كل ما قلناه: أنَّ احداً لم يعطِ الجواب المثبت لدعوة القرآن الى المناظرة والتحدي، على الرغم من توفر الدواعي لهذا الامر، ابتداءً من زمن المشركين العرب واهل الجاهلية، وانتهاءً بهذا اليوم الذي تخصص فيه القوى الاستكبارية رؤوس اموال ضخمة من اجل الانقضاخ على الاسلام والقرآن، ومن الطبيعي أنه اذا كان باستطاعتهم ان يعبثوا طاقات الادباء العرب والعلماء الاجانب للاتيان بما يماثل القرآن لما ادخروا وسعهم في ذلك.

وما نشاهد في طول التاريخ من اشخاص كمسيلمة وسجاح مع كل فضائحهما فانهم لم يثبتوا قدماً واحداً في هذا وعندئذ سندرك جيداً عدم امكانية هذا الامر، والا لكان ذلك ذريعة كبرى يتوسل بها اعداء الاسلام المعاندون لافشاء هذا الامر في كل مكان، وهذا هو معنى الضعف والعجز من تحدي القرآن.



صور اعجاز القرآن

تمهيد :

يعتقد بعضهم أنّ اعجاز القرآن يقتصر على جانب الفصاحة والبلاغة فحسب وهي المحسنات اللفظية والمعاني الواضحة : في حين ان اغلب اصحاب الخبرة والمحققين في عصرنا يذهبون الى عدم صحة هذا الكلام ، لان جوانب الاعجاز القرآني متنوعة ومتعددة ، حتى يمكن القول إنّنا مع مرور الزمان سنقف على جوانب جديدة من اعجاز القرآن لم تتضح معالمها لنا في الماضي . ويمكن التعرف على الجوانب التالية للاعجاز القرآني في وقتنا الحاضر من خلال الشواهد الموجودة في القرآن نفسه :

- ١ - الاعجاز في الفصاحة والبلاغة وهو ظاهره الحسن وباطنه العميق وبيانه المتين المنزّه وصراحته وقاطعته وشمولية مفاهيمه ، وانسجام الفاظه مع معانيه .
- ٢ - الاعجاز في المعارف والاطروحات العقائدية .
- ٣ - الاعجاز في طرح المسائل التاريخية .
- ٤ - الاعجاز في سن القوانين .
- ٥ - الاعجاز في العلوم العصرية والمفاهيم العلمية المجهولة في عصر القرآن .
- ٦ - الاعجاز في التنبؤات المستقبلية والاخبار الغيبية .

٧- الاعجاز في عدم وجود الاختلاف بين الآيات القرآنية التي نزلت طيلة ٢٣ عاماً بالرغم من تغيرات الظروف للاوضاع الزمانية والمكانية كافة .
ومع هذه الاشارة نعود الى القرآن مرة اخرى لنبحث كل واحدة من الصور المتقدمة بصورة مستقلة :



١- الاعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة

يقول علماء المعاني في تعريف البلاغة والفصاحة : إنّ الفصاحة تستعمل تارة لوصف الكلمة ، وتارة اخرى لوصف الكلام وهي : عبارة عن خلو الكلام من الحروف والكلمات الثقيلة غير المحببة ذات الايقاع الرديء غير المتجانس من العبارات المركبة والضعيفة والمنفرة والوحشية والمعقدة والمبهمة .
وأما البلاغة فهي عبارة عن تناسب الكلام مع مقتضى الحال والانسجام التام مع الغاية المتوخاة من الكلام .

وبعبارة اخرى : الفصاحة ناظرة الى كيفية الالفاظ والبلاغة ناظرة الى كيفية المعنى والمحتوى ، او بعبارة ثانية : الفصاحة تقتصر على الجوانب الشكلية والظاهرية للكلام والبلاغة تقتصر على الجوانب المعنوية والجوهرية .

ومما لا شك فيه ان هذين الامرين ينطويان على جانب ذوقي واستحساني فضلاً عن الجانب العلمي والقانوني ، ولكن هذا الجانب الفني والذوقي نفسه يتفتح ويكتمل ويتسق في ظل التعليم والتربية والاعتماد على القواعد التي تستقى غالباً من كلمات الفصحاء والبلغاء . نظير الحس الشعري أو القابلية على الخط اللذين

يتكاملان بالتعليم والممارسة والاستعانة بالمعلم .

وعلى كل حال يعتقد بعضهم أن اعجاز القرآن والدعوة إلى التحدي التي وردت في آيات مختلفة مستندة إلى هذا المعنى نفسه ، ويمكن الاستدلال على ذلك بالأمور التالية :

١ - اشتهر العرب في عصرهم وزمانهم بالتفنن في مجال الفصاحة والبلاغة فحسب ، بحيث بلغت اشعار الجاهلية اوج فصاحتها ، وكان أحد اهم برامجهم هو قراءة أجمل قصائد تلك السنة خلال التجمع الاقتصادي الذي يعقد في (سوق عكاظ) بالقرب من الطائف في كل عام .

وعندما يقع اختيارهم على افضل هذه القصائد يعلقونها على جدار الكعبة بصفتها اثرأ أدبياً قيماً ، ومع مرور السنين علفت سبع قصائد اشتهرت فيما بعد بـ (المعلقات السبع) .

وعلى هذا الاساس اذا اراد القرآن ان يدعوهم إلى التحدي والمعارضة فيلزم ان يكون في هذا المجال .

٢ - ولعل الاتهام الذي كان يوجهه المشركون العرب إلى القرآن بكونه سحراً وإلى النبي بكونه ساحراً يعود إلى الجاذبية القرآنية الهائلة ، التي تشتمل على روعة الكلام والفصاحة .

٣ - نقرأ في الحديث الوارد عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام في صدد توافق معجزات الانبياء مع العلوم والفنون المتطورة في اعصارهم : ان الله تعالى لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على اهل عصره السحر فأتاهم من عند الله تعالى بما لم يكن في وسعهم مثله وما أبطل به سحرهم واثبت به الحجة عليهم وأن الله تعالى بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات واحتاج الناس إلى الطب فأتاهم من عند

الله بما لم يكن عندهم مثله وبما احيى لهم الموتى وأبرء الاكمه والابرص باذن الله ،
واثبت به الحجة عليهم وان الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ في وقت كان
الغالب على أهل عصره الخطب والكلام (وأظنه قال : الشعر) فأتاهم من الله عز
وجل ومواعظه واحكامه ما ابطال به قولهم ، واثبت به الحجة عليهم^(١) .

إنَّ جميع هذه القرائن تدل على ان الاعجاز القرآني كان ولا يزال ناظراً الى جانب
الفصاحة والبلاغة ألا ان واقع الأمر هو أن الاعجاز في الفصاحة والبلاغة كان مورد
اهتمام عميق ألا أنه لم ينحصر به .

خصوصاً أن الجوانب الأخرى من الاعجاز القرآني واضحة جلية .

وللحصول على اطلاع كاف بصدد اعجاز القرآن فلا بد من الالتفات الى النقاط

التالية :

١ - تقدمت الاشارة الى ان عرب الجاهلية كانوا على جانب كبير من الفصاحة
وبلاغة بحيث إن القصائد المتبقية من ذلك العصر ومن جملتها (المعلقات السبع)
مازالت تعرف بالقصائد المنتخبة لدى العرب .

الآننا نعلم بانهم جمعوا قصائدهم كلها بعد نزول القرآن وخضعوا امام الفصاحة
القرآنية المنقطعة النظير ، وبالرغم من امتلاكهم كل الدواعي والحوافز الذاتية
لمعارضة القرآن ومنازلته إلا أنهم أخفقوا في ابداء شيء ما .

ولقد اطلعنا على نماذج حية واضحة من تأثير القرآن في هذا المجال في البحث
السابق لجاذبية القرآن .

٢ - يقف ثلة من الذين تعرضت مصالحهم اللامشروعة للخطر بوجه رجال الحق
دائماً وعلى طول التاريخ ، ليوجهوا اليهم التهم والافتراءات ، وبالرغم من كونها كاذبة

١ - عيون اخبار الرضا : (وفق نقل تفسير نور الثقلين : ج ١ ص ٤٣) ونقله ايضاً الكليني في الكافي والعلامة
المجلسي في بحار الانوار .

الآ انها تحكي عن بعض الحقائق الموجودة في تلك البيئة .

فعلى سبيل المثال ، من ضمن الافتراءات التي وجهت الى نبي الاسلام ﷺ هي مسألة السحر والساحرية ، التي كانت تستخدم ضمن نطاق واسع . ويقول القرآن في الآيات (٢٤) و (٢٥) من سورة المدثر على لسان الوليد كبير المشركين : ﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ^(١) فالسبب الرئيس وراء هذه النسبة المفتعلة للنبي ﷺ هو النفوذ العجيب والخارق للآيات القرآنية التي استحوذت على القلوب من خلال فصاحتها وبلاغتها العجيبة ؛ بحيث لا يمكن ان يعتبروا هذا النفوذ امرأ عادياً ولذلك لم يجدوا لفظة مناسبة ينسبونها له سوى لفظة (السحر) ، التي تعني في اللغة كل عمل خارق للعادة ومجهول المنشأ ، فأولئك وان ارادوا بهذه النسبة ان يسدلوا الستار على هذه الحقيقة الناصعة وينكروا الاعجاز الالهي ، ألا انهم اعترفوا بحديثهم هذا بدون وعي منهم بعظمة القرآن وجاذبيته السحرية .

٣ - إن من يتتبع آثار المؤلفين والادباء يجد انهم عادة ينقسمون الى فئتين مختلفتين : فئة تعلق اهتماماً كبيراً على الجانب الفني للالفاظ ، وتجعل المعاني في بعض الاحيان ضحية للالفاظ . وبعكس ذلك فئة لا تولي اهتماماً كبيراً للالفاظ وانما تستخدم كامل قدرتها ونبوغها في النظر الى عمق المعاني ولهذا السبب قسّم كتاب تاريخنا الادبي الاثار القديمة للشعراء الكبار ، الى اسلوبين مختلفين ، الاسلوب العراقي والاسلوب الهندي .

الشعراء الكبار الذين نظموا قصائدهم على النحو الاول ، استخدموا قابلياتهم الفنية في مجال التفنن بروعة الالفاظ وحسنها في حين ان اتباع النحو الثاني وجهوا اهتمامهم في الغالب الى دقائق المعاني والملابسات المحيطة بها .

١ - ورد في تفصيل قصة الوليد بن المغيرة وحديثه بصدد جاذبية القرآن في البحوث السابقة .

ومما لا يقبل الانكار ان الذين أبدوا اهتمامهم بكلا الامرين وخلفوا وراءهم آثاراً طيبة ، هم نزر يسير . إلا ان الحديث عن مدى نجاحهم في هذا المضمار ذو شجون . والدليل على هذا الكلام واضح ، لان الالفاظ الجميلة العذبة لا تتحكم في واقع المعاني المطلوبة ، ولا تعكس حقائقها الدقيقة فيها ، ولهذا غالباً ما يقف الشاعر والمتكلم على مفترق طريقين : جمالية اللفظ وجمالية المعنى ، ومن ثم يضطر الى اختيار احدهما ، ولذلك في كثير من النثر والنظم تذهب المعاني ضحية للسجع والقافية .

غير أن الذين اطلعوا على آداب العرب وتعرفوا على حقائق القرآن يفهمون جيداً أن هذا الكتاب الالهي الكبير حافظ على الامتياز المهم الى حد الاعجاز فالفاظه في منتهى العذوبة والحلاوة ، والجمل المحبوكة في غاية الدقة والجمال . والكلمات فيه ذات ايقاع ووزن عذب ، والمعاني قد أعطي حقها بكل خصائصها ودقتها ، وهذه هي احدى ابعاد اعجاز القرآن في الفصاحة والبلاغة .

ان القرآن لا يتكلف باداء المعاني ويبين مراده بوضوح وفي الوقت نفسه يضمني على المعاني الفاظاً عذبة وفي منتهى الجمال .

٤ - اشتهر الشعراء والفصحاء بهذه الصفة : وهي انهم غالباً ما يبالغون الى حد الكذب في احاديثهم من اجل التوصل الى حلاوة البيان وطراوته ؛ وعلى سبيل المثال يجعلون الطبقات السبع للارض ستاً ، والطبقات السبع للسماء ثمانية . لتساعد غبار حوافر خيل العسكر ، في الصحراء او وضع تسعة مقاعد من الفلك تحت قدميه ليصل الى طول ركاب (قزل ارسلان) . او يجعلون من القلب بحراً ، ومن الدم ومن دمع العين نهر (جيحون) حتى قالوا :

لاتراوغ في الشعر وفي فنه لأن أكذبه هو أحسنه

وعلى هذا الاساس فان اعذب الشعر اكذبه ويشير التعبير القرآني في صدد

الشعراء الى أنهم غالباً ما يستغرقون في تخيلاتهم وتشبيهاتهم الشعرية : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾^(١).

غير أننا حينما نراجع القرآن لا نجد في جميع الموارد هذه المبالغة الكاذبة ، وبالرغم من وجود كل الدقة والجمال في الالفاظ والمعاني نجدها كلها تشترك في تبين الحقائق .

ولهذا السبب نشاهد أن القرآن يبريء ساحة نبي الاسلام ﷺ من تهمة الشاعرية ، وساحته ايضاً من تهمة الشعر^(٢).

نعم على الرغم من خلو القرآن من عن التخيلات الشاعرية والمبالغات والاستغرافات البعيدة عن الحقيقة الشعرية ، والتشبيهات والاستعارات الوهمية ، ولا ينطوي إلا على بيان الحقائق بصورة واقعية وقطعية ، بالرغم من ذلك كله نجده في الوقت ذاته في منتهى العذوبة والجاذبية بحيث استقطب الى نفسه البعيدين عن الاسلام بل حتى المخالفين للنبي ﷺ وذكرنا امثلة لذلك في البحث السابق عن جاذبية القرآن .

ومن الجدير بالذكر ما ينقله التاريخ من أن كثيراً من الشعراء العرب عندما اصطدموا بفصاحة القرآن ، ارتضوا الاسلام طوع انفسهم ، ومن جملة الشعراء الذين اسلموا تحت تأثير جاذبية القرآن هو (لبيد) الذي كان له في زمن الجاهلية احدى المعلقات السبع (وهي سبع قصائد شعرية معروفة ومتميزة انتخبت وعلقت على جدار الكعبة) .

وكذلك أسلم حسان بن ثابت تحت تأثير جاذبية القرآن وهو احد الشعراء

١ - سورة الشعراء : الآية ٢٢٥ .

٢ - ينقل القرآن هذه التهمة عن المشركين في ثلاث آيات من سورة الانبياء : ٥ ، والصفات : ٣٦ ، والطور : ٣٠ ، وينفيها الله سبحانه وتعالى عن نبيه بصراحة في آيتين من سورة يس : ٦٩ ، والحاقة : ٤١ .

الاثرياء ايضاً.

ومن الشعراء الذين دخلوا الى الاسلام طواعية واستفادوا كثيراً من جاذبية القرآن هم كل من (الخنساء) شاعرة العرب النفاذة، و(الاعشى) الذي كان من نوادر الشعراء.

٥ - من الظواهر الاخرى للفصاحة والبلاغة القرآنية هو الابقاع الخاص الموجود في القرآن نفسه.

إن احاديث الادباء عادة إما أن تكون شعراً او نثراً، اما القرآن فليس شعراً ولا نثراً عادياً ومعروفاً، وانما هو نثر ذو ايقاع خاصة به، نثر حينما يتلوه قراء القرآن يقع غالباً في قالب موزون كامل.

واذا كان لا يمكن استعمال كلمة (الموسيقى) فيما يخص القرآن لانه يمتزج في عُرْفنا بالمفاهيم السلبية. إلا ان بعض الكتاب العرب المعروفين نظير (مصطفى الرافعي). يقول في كتابه (اعجاز القرآن): «الاسلوب القرآني يسبب ويوجد الحاناً تلفت اسماع كل مستمع اليها، وهي نوع من الموسيقى الخاصة التي لم تكن في الكلام الموزون في ذلك الزمان وهذا الترتيب والنظم كان يلطف طباع العرب ويعرفهم اسلوباً جديداً في الكلام لم يكن موجوداً سابقاً».

ويقول (بولاتيتلر) احد العلماء الغربيين في هذا المضمار: «من الخطأ ان نفكر بأن الفصاحة الانسانية تستطيع أن تؤثر بمثل ما يؤثر القرآن لأنه دائماً يسير باطراد الى الارتفاع بدون ان يرى فيه اي ضعف وفتور، وكل يوم يفتح لنا قمماً جديدة، نعم انه معجزة يتضاءل أمامها اناس الارض وملائكة السماء»^(١).

ويضيف الى ذلك عالم آخر اسمه (كنت هنري دي كستري) قوله: «اذا لم تكن في القرآن غير عظمة المعاني وجمال المباني لكان كافياً لأن يتسلط على كل العقول ويجذب جميع القلوب اليه»^(٢).

١ - اثبات الهداة: ج ١، هامش ص ٢٢٣.

٢ - المصدر السابق: ص ٢٢٢.

٦ - ومن الامور المهمة أيضاً: أن أيَّ حديث يبعث الملل والسأم مع التكرار عادةً، إلا القرآن فإنه في منتهى الروعة بحيث لو قرىء مئات المرات لاحتفظ بجاذبيته ورونقه، الامر الذي يدركه عشاق القرآن وغيرهم بوضوح.

وهذا ما نقرأه جلياً في الحديث المشهور عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام بان رجلاً سأل الامام الصادق عليه السلام «ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس الا غضاضة، فقال: لان الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غرض الى يوم القيامة». ويقول علي عليه السلام في جملة مختصرة وبليغة ايضاً: «لا تُخلقه كثرة الردّ ولوج السمع».

٧ - ومن دقائق الفصاحة والبلاغة في القرآن هو تجنب كثرة الالفاظ ومراعاة الاختصار، مع ما يؤديه من وضوح المعنى وبيان تمامية المقصود، وهو ما يسمى اصطلاحاً بترك «الايجاز المخل» و«الاطناب الممل».

وقد تمت مراعاة ذلك في آيات القرآن على أحسن وجه، فنجد احياناً آية واحدة من القرآن تبين معالم قصة طويلة بحيث ان كل جملة منها تتكلم عن مجال واسع من هذه القصة، ونقف على هذا في أمثلة كثيرة من القرآن، ومنها الآية المشهورة التي نقول: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(١).

نعم هذه هي الآية نفسها التي جثى لها الاديب العربي المعروف (ابن المقفع) على ركبتيه عندما قصد القيام بمعارضة احد ارباع القرآن حسب الاتفاق الذي عقده مع زملائه، وحينما وصل الى هذه الآية اعرض عن ذلك واقرّ في نفسه بالضعف والعجز الكامل.

ذلك لانها تروي قصة طوفان نوح عليه السلام باختصار بارع بكل تفاصيلها ونتائجها، وبعبارات قصيرة وغنية بالمعاني، وحسب قول أحد المحققين إنها تشتمل على

(٢٣) نكتة من النكات الأدبية ، من قبيل : (الإستعارة ، الطباق ، مجاز الحذف ، الإشارة ، الموازنة ، الجناس ، التسهيم أو الإرسال ، التقسيم ، التمثيل ، الاردا ف و...)^(١).

٨- احدى خصائص القرآن من الناحية الادبية ، هي الصراحة القاطعة بما يقل نظيرها ، اضافة الى اللطافة والدقة في العبارات .

ومن المعلوم ان كل انسان يستمتع بالنبرة الصريحة لأحد الفصحاء ، ذلك لأنه يبين الحقائق بصدق وامانة وبدون أي تسوية أو تشويش ، وليس هناك لذه تفوق لذه درك الحقائق .

إنّ التشدق والتحدث بأشكال متعددة ، يدل بوضوح (إلا في الموارد الاستثنائية) على عدم إيمان المتكلم بأقواله ، أو على مخاوفه واحتراسه من حكم المستمعين له ، وفي كلتا الحالتين يحكي ذلك عن ضعف وعجز المتكلم .

وتفترن الصراحة والصدق القاطع بالخشونة في اغلب الاحيان والمهم في الأمر أن على المتكلم في الوقت الذي يكون صريحاً فيه أن يهتم بلطافة البيان أيضاً ، ونشاهد ذلك في آيات القرآن بشكل واضح .

ومن أهم الجبهات القتالية للاسلام هي جبهة التوحيد والشرك ، وقد استفاد القرآن من أعلى مراتب الصراحة والقاطعية في هذا المجال فتارة يقول : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾^(٢).

وتارة اخرى يقول رداً على عبدة الاوثان الذين احتموا بذريعة اتباع عقائد آبائهم وأشرافهم هروباً من المنطق الصاعق للقرآن : ﴿بَلْ تَتَّبِعْ مَا آَلَفْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٣).

١ - أساليب اعجاز القرآن : ص ٥٢ .

٢ - سورة الحج : الآية ٧٣ .

٣ - سورة البقرة : الآية ١٧٠ .

وفي موضع آخر يصعد من حدة قاطعته في مقابل التوسل بأدب وتقاليد الأجداد بقوله على لسان ابراهيم عليه السلام: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَتْشَمُ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١). ويقول في صدد الايمان بنبي الاسلام ﷺ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢).

وعلى هذا الاساس يعتبر الشرط الاساسي للايمان الصادق التسليم ظاهراً وباطناً وسراً وعلانيةً، اضافة الى ايجاد التوافق بين الرغبات الذاتية والأوامر النبوية الشريفة، وبالرغم من كل هذه الصراحة والقاطعية نشهد اللطافة والدقة في العبارات بصورة كاملة ايضاً.

ونلاحظ هذه القاطعية ايضاً بشكل واضح في المباحث الاخرى، المرتبطة بالمبدأ أو المعاد، والقوانين الاجتماعية، او المسائل المتعلقة بالحرب والصلح، أو البحوث الأخلاقية، والتي يتطلب شرح كل واحدة منها كتاباً مستقلاً.

٩ - المتانة والنزاهة في البيان: الاشخاص الاميون لا يعبؤون بعباراتهم عادة وغالباً ما يستعينون بالجميل البعيدة عن الادب والذوق من أجل التوصل الى اداء مقاصدهم من الكلمات، وبالرغم من أن القرآن ظهر في أوساط هذه الفئة من الناس، إلا انه لم يتأثر بتلك البيئة على الإطلاق، وحرص على مراعاة منتهى المتانة والعفة في تعبيراته وهو مما اضفى على فصاحة القرآن وبلاغته طابعاً خاصاً.

وحينما يتصدى الخطباء والكتاب الكبار لحوادث العشق أو مسائل اخرى مشابهة، فهم يضطرون لان يطلقوا العنان لألسنتهم وأقلامهم كيفما شاؤوا فيطرحون ألواناً كثيرة ومختلفة من التعابير المهيجة والمؤذية لرسم معالم الصورة الواقعية للأبطال الحقيقيين في القصة، واما أن يسدلوا ستار الغموض والإيهام على جانب من هذه الوقائع - مراعاةً للعنة والذوق العام - ويتحدثوا مع رقبائهم بشكل مغلق.

١ - سورة الانبياء: الآية ٥٤.

٢ - سورة النساء: الآية ٦٥.

والجمع بين هذين الأمرين : أي رسم معالم الواقع بصورة كاملة ، وعدم تلوث القلم واللسان بكل ما يخدش العفة والآداب ، يعتبر أمراً في منتهى الصعوبة لا يؤديه إلا قليل .

فكيف يكمن ان نتصور شخصاً امياً ظهر في مجتمع متخلف متوحش يحدد المعالم الدقيقة كاملة للاوضاع القائمة ، ثم لا نجد في تعابيره ادنى معنى يخدش العفة والآداب ؛ وعلى سبيل المثال حينما يبدأ القرآن في وصف الوقائع الحساسة لقصة يوسف الواقعية وما اشتملت عليه من معاني الحب والغرام الذي اشتعل في قلب تلك المرأة الجميلة المتهورة نجده يستفيد من جميع اصول الاخلاق والعفاف من دون اي تمويه وتعتيم على الحقائق ، أو إجمال الحوادث في جو من الابهام والغموض انه لا يدع اي شاردة وواردة في الحديث الا وذكرها ولكنه لا يتطرق الى ادنى انحراف عن اصول العفة في البيان ، فعلى سبيل المثال يقول في صدد شرح قصة اختلاء زليخا بعشيقها : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْآبَوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(١) .

ومن الجدير بالذكر استعمال القرآن لكلمة « راود » التي تستفاد في مورد اللاحاح في الطلب من انسان ما بشيء من الهدوء والمرونة ، وهي تنسجم تماماً مع اداء المعنى المقصود هذا من جهة ، من جهة ثانية ، لا يذكر اسم زليخا ولا زوجها عزيز مصر بل يقول : ﴿ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ﴾ من اجل ان يبين مروءة يوسف وعدم خيانتة لمولاه ، كما يبين في الوقت ذاته تقواه ، ومقاومته لمن يعيش في كنفه وتحت امرته . ومن جهة ثالثة تشير جملة ﴿ غَلَّقَتِ الْآبَوَابَ ﴾ التي تفيد معنى المبالغة بحكم مصدر باب التفعيل الى مدى صعوبة الموقف وتلاطم الاحداث التي مرت بها هذه الواقعة .

ومن جهة رابعة توضح جملة ﴿ قَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ ذلك الحديث الاخير لزليخا

الاعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة..... ١٠٥

الذي قالته لبلوغ وصال يوسف، ألا اننا نلاحظ هنا مدى رزاقته وقوة سبكه المصحوبة بنزاهة البيان وسمو المعنى.

ومن جهة خامسة يشير كلام يوسف ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ راداً على زليخا التي تنديد صارخ بها، بمعنى انني لا اقوم بخيانة صاحب البيت الذي انعم عليّ وقاسمته هموم العيش، بالرغم من الايام القليلة لتي قضيتها في هذا البيت فما بالك انت وقد قضيت هنا عمراً طويلاً.

وتوضح الآيات اللاحقة التي يطول شرحها هذه القصة بشكل رائع، ومن ثم ترسم معالم المقاومة الخيرة، لعواصف الهوى والتهور وتسليم الامور الذاتية بيد الله تعالى في هذه المشاهد بشكل ممتع وجميل.

في آية اخرى عندما يصف أحاسيس نساء مصر، حينما دعتهن زليخا الى ضيافتهن لتبرئة نفسها، يقول في جملة مختصرة: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وبدل تعبير ﴿مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ على مدى عفّته ونقائه الفائقين فضلاً عن دلالة على مدى جماله المنقطع النظير، وهذا مثل تعبيرنا عن عفة احد الاشخاص عادة بانه مَلَكٌ من الملائكة، وكذلك توجد على اثر هذه الحوادث جمل تحتوي على قدر كبير من الفصاحة والجمال، تدلل على عظمة ومقام يوسف بصورة كاملة ذلك المثل الاعلى في العفة والطهارة^(١).

١٠ - أمثلة القرآن: يستخدم القرآن أمثلة كثيرة من اجل تبيان الحقائق وهي باجمعتها تجليات واضحة للفصاحة والبلاغة في هذا الكتاب الالهي العظيم، مما يبعث على اعتزاز الانسان واعجابه الكبير، هي الادوات الدقيقة التي استخدمت في هذه الامثلة والامور الصغيرة الجذابة الممتعة التي نلاحظها في كل واحد منها: ومما لا يقبل انكاره أساساً هو دور المثل في توضيح وتفسير البحوث، ولهذا

السبب لا يمكن الاستغناء عن ذكره في أي مبحث مهم ، لتوضيح الحقائق وتقريبها من الذهن .

فالمثال الجيد والمنسجم مع المعنى المقصود يمكن ان يؤدي دور احد الكتب احياناً ، فيوضح المطالب المعقدة ويجعلها قابلة للفهم ، ولهذا يعتبر التمثيل من احد الفنون التي يعتمد عليها الفصحاء والبلغاء والادباء والشعراء في العالم ؛ يقول الزمخشري في الكشف في صدد (المثل) .

المثل في اصل الكلام معناه مثل يعني نظير... ولضرب الامثال عندهم والتحدث بالامثال والنظائر لدى العلماء شأن رفيع ذلك لانها ترفع الحجاب عن المعاني الخفية وتوضح النكات المبهمة بحيث يصبح الامر المتخيل حقائق ويقع الشيء المتوهم مستيقناً في محله وتتجلى صورة الغائب على غرار صورة الشاهد ولهذا الجهة اورد الله تعالى امثالا كثيرة في كتابه القرآن المبين وسائر كتبه الاخرى^(١) .

وللامثلة فوائد عديدة ، منها انها تجعل المسائل العقلية حسية وتقرب الطرق البعيدة ، وتوصل فهم المسائل الى جميع الناس وبصورة شاملة ، وتصدد درجة الاطمئنان بالامور المطروحة ، ومن ثم المثال المناسب يعتبر رداً صاعقاً على منطق المعاندين . وقد جمع بعض المحققين أمثال القرآن في كتاب درس وحلل فيه أكثر من مائة مثال قرآني .

ان امثلة القرآن معجزة حقاً ، ويكفي من اجل الوصول الى هذه الحقيقة ، ان نجعل قسماً منها مورداً للبحث .

مقتطفات من الأمثلة الاعجازية للقرآن

حينما يريد القرآن رسم مشهد دقيق عن الحق والباطل يقول : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءٌ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ
حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا
مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١﴾.

لقد بين الله تعالى معالم ظاهرة الحق والباطل على أحسن وجه في هذا المثال
الغزير بالمعاني والمشتمل على الفاظ وعبارات موزونة . وتجدر الإشارة هنا الى
بعض الحقائق المهمة التي اندمجت في هذا المثال :

١ - يحدث أحياناً ان نتعقد كثيراً معرفة الحق والباطل مما يفرض الرجوع الى
الامثلة والادلة .

٢ - الحق دائماً يعود على الانسان بالخير والفائدة نظير الماء الزلال الذي هو
أصل الحياة أو نظير المعدن الخالص الذي يستخدم للزينة او لوسائل الحياة .

٣ - الحق غني في ذاته دائماً ، اما الباطل فيستمد العون من مكانة الحق ويسعى
الى التلبس به والاستفادة من قيمه مثلما يستمد أي نوع من أنواع الكذب وجوده
وشأنه من الصدق بحيث لو لم يظهر على مسرح الوجود كلام صادق لم يتصور احد
معنى الكذب ، واذا لم يكن للحق وجود لما صال الباطل صولته .

٤ - ان استفادة اي موجود بحسب قابليته وظرفيته كما يجمع الوادي من ماء
المطر على قدر اتساعه واستيعابه .

٥ - الباطل يروج سوقه وسط الزحام والاضطراب الاجتماعي مثلما يحمل
السيّل الزبد عندما ينحدر من الجبل الهائج الغضبان ، فاذا وصل السهول الواسعة
هدأت فورته واضطرابه وذهب زبده هباءً .

٦ - الباطل لا يظهر في صورة واحدة وانما يظهر في كل لحظة بشكل معين ، مثلما
تطفو الرغوة على سطح الماء وعلى سطح المعادن في الكور ، لذلك لا ينبغي

الانخداع بتلك المظاهر المختلفة على الإطلاق، ولابد من تحديد مقاييس لمعرفة الحق والباطل، لتشخيص وفرز كل واحد منهما عن الآخر.

٧- المعركة بين الحق والباطل مستمرة استمرار الحياة وتتوارث من جيل لآخر فهذا ماء عذب وهذا ماء ملح اجاج، يسري بين الخلائق حتى نفخ الصور فكما ان تساقط الامطار من السماء وذويان المعادن في الكور مستمر ودائم، كذلك هذا الامر مستمر ودائم ايضاً.

٨- الباطل ينزع الى ارتقاء المراتب العالية ويتظاهر بالمبدئية ولكنه فارغ المحتوى اما الحق فينزع نحو التواضع والهدوء والتفنن، وتستفاد من هذه الآية ملاحظات اخرى من نواح متعددة وضرب امثلة اخرى نظير المثال الذي ورد في صدد الانفاق في سبيل الله وتشبيهه بالحبوب والعناقيد (البقرة: ٢٦١).

وكالمثال الذي ورد في صدد الاعمال المرائية وتشبيهها بهطول المطر على الحجر الشائك وغسل وازاحة ما عليه من تراب قليل في حين ان الاعمال الخالصة، كالمطر الذي يهطل على الارض الخصبة التي تتعرض لهواء طلق واشعة الشمس (البقرة ٢٢٤: ٢٦٥).

وكالذي ورد في صدد اعمال الكفار وتشبيهها بالرماد في مقابل الريح (ابراهيم: ١٨)، او تشبيهها بالسراب (النور: ٣٩)، او بالظلمات المتراكمة في البحر وعند قدوم الليل والسحب تغطي السماء (النور: ٤٠).

وكالذي ورد في صدد اعمال المنافقين وتشبيهها بالشخص التائه في صحراء مقفرة في الليل البهيم، وقد هزمت صواعق الرعد والبرق واذا به يرى لحظة واحدة ان اشعة البرق قد اضاءت ما حوله وحين يعتقد العزم على التحرك في طريقه تعود الظلمة لتغطي كل الارحاء في نظره (البقرة: ١٩ و ٢٠).

وكالذي ورد في صدد تشبث عبدة الاصنام باصنامهم العديمة الشعور والقدرة

وتشبيهها ببيت العنكبوت (العنكبوت : ٤١).

وما ورد في صدد تشبيه المغتابين بأولئك الذين يأكلون لحوم اخوانهم الموتى (الحجرات : ١٢) ومن ثم ما ورد في صدد الذات القدسية لله تعالى بأنه نور السموات والارض ، وتشبيه ذلك النور بالمصباح والخواص المتعلقة به المقترن بأنواع الظرافة والروعة (النور : ٣٥).

ويمكن ازالة الستار في هذا القسم من الفصاحة والبلاغة القرآنية عن موارد اخرى كثيرة يستغرق الكلام عنها وقتاً طويلاً، وهي بدورها تطلعننا على حياة مليئة بالقيم واضدادها تواجهنا في حياتنا اليومية وتبين لنا عالماً من المعارف في حلة من الأمثلة البديعة .



٢- الاعجاز القرآني على
صعيد المعارف الالهية

٢- الاعجاز القرآني على صعيد المعارف الالهية

بعد الفراغ من مسألة الفصاحة والبلاغة يصل دور المحتوى وقبل كل شيء تطرح مسألة المعارف وتبين المسائل المتعلقة بالمبدأ والمعاد والعقائد الدينية . ومن الامور الاساسية هي ان بيان المسائل المرتبطة بالمبدأ والمعاد والنبوة والامامة ، يُعدُّ أحد المعايير الفاصلة بين الأديان الحقّة والباطلة ، لان بحوث هذا القسم وبالأخص ما يتعلق بالذات القدسية لله تعالى وصفاته واسمائه في غاية الدقة والتعقيد ، بحيث يصبح الحد الفاصل بين الشرك والتوحيد ادق من الشعرة احياناً . ان هذا القسم من الآيات القرآنية على جانب كبير من الابداع والعمق والدقة ، بحيث لو لم يوجد دليل على اعجازه سوى الايضاحات الدقيقة التي يبينها في هذه المسائل ، لكان هذا كافياً للاستدلال عليه .

خصوصاً وان القرآن ظهر في بيئة مكتظة بالاصنام وبمعابدها بدءاً من الاصنام المنزلية وانتهاءً بالاصنام العشائرية والاصنام الكبيرة العامة ، التي كانت مقصداً لكل بلد وحي .

لقد كانوا يصنعون الاصنام بايديهم من الاخشاب أوالصخور او المعادن ، وبالرغم من علمهم بعدم امتلاكها لادنى احساس وشعور وحركة ورؤية نجدهم

ينسبون اليها القدرة الهائلة استناداً الى حفنة من التخيلات المحضة التي تدور في اذهانهم ، ومن ثم يسلمونها مقابلد امورهم ومقدراتهم ويخضعون لها في عجز وتضرع يلتمسونها ويسجدون لها ويقدمون لها القرابين حتى تصير واسطة للفيض والشفاعة بينهم وبين الله تعالى ، وكان يصل بهم الأمر احياناً الى ان يصنعوا اصناماً من التمر ، واتفق في احدى سني القحط بعد ان خلت منازلهم من الطعام ان يحملوا عليه حملة رجل واحد ، فأكل عبدة هذا الاله الهمهم في منتهى الوقاحة والصلافة ، ومن شواهد هذه القصة هو الشعر الذي لا يزال شاخصاً بين اشعار الحقبة الجاهلية :

أَكَلْتُ حَنِيفَةً رِيَّهَا عَامَ التَّقَحُّمِ وَالْمَجَاعَةِ

لَمْ يَحْذَرُوا مِنْ رِيَّهِمْ سُوءَ الْعَوَاقِبِ وَالتَّبَاعَةِ

هذه هي من اسوأ الافكار الخرافية انحطاطاً واكثرها سخافة يمكن ان تخطر في ذهن انسان .

ان الاكثرية الساحقة من عرب الجاهلية تعتبر الملائكة بنات الله ، في حين انهم انفسهم كانوا ينفرون من مجرد سماع اسم البنت - لما أثر عنهم من تحقيرهم للمرأة في تلك البيئة - كما نقرأ ذلك في الآية (١٧) من سورة الزخرف : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ .

وتوجد هناك مسائل خرافية اخرى كثيرة بطول شرحها سواء في مبحث المعرفة الالهية او في مبحث المعاد وغيرها .

وعندما نشاهد شخصاً ظهر من تلك البيئة يدعو الى التوحيد الخالص والمعارف الاصلية ببيان دقيق يدعن له كبار الفلاسفة ، حينئذ لا يعترينا الشك بان بيان مثل هذه المعارف لا يصدر الا من الله عز وجل ، وليست هناك ادنى مبالغة في هذا القول ولا حاجة الى قطع طريق بعيد طويل للتوصل الى الحقيقة ، فاذا القينا نظرة على المجلد الثاني والثالث لهذه المجموعة «رسالة القرآن» ويتضمن الاول منها

البحث عن الله تعالى والثاني حول معرفة الله لاطلعنا على سعة المعارف القرآنية وعمقها، وكذلك الحال بالنسبة الى المعاد في القرآن فقد أفرد له بحث واسع في المجلد الخامس والسادس من «رسالة القرآن».

لذا نقف هنا عند البحث الاجمالي ونكتفي باشارات عابرة في هذا المجال، على ان نعيد قرائنا الاعزاء الى المجلدات السابقة.

وبالرغم من سيطرة فكرة الشرك بالله وعبادة الاصنام على تلك البيئة بحيث لا يجروا احد على النيل من هذه العقيدة بادنئ لوم او توبيخ، انبرى القرآن بقاطعية كاملة الى ضرب تلك العقيدة الخرافية، فتارة ينقل ذلك على لسان ابراهيم الخليل عليه السلام فيقول: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١).

وتارة اخرى يقول في صدد قصة عجل السامري الذي أصبح مورداً لإنشداد عدة من جهال بني اسرائيل اليه واغترارهم به: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾^(٢).

وبجملة مختصرة: إن القرآن يندد كثيراً بالشرك ويذم عبادة الاصنام بحيث انه يعفو ويصفح عن جميع الذنوب ما عدا الشرك، فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(٣).

ان هذا التنديد القاطع والحاسم بفكرة عبادة الاصنام يعد بحق أمراً فريداً من نوعه؛ لأن هذه الفكرة تعتبر سنة معروفة للاجداد، والثقافة الرائجة في جميع انحاء تلك البيئة بحيث ان العدول عنها يعد من عجائب الامور ومورداً لكل انواع الذم والتفريع، أما نحن ففي الوقت الحاضر نلقي نظرة عفوية على هذه الآيات ونعتبرها

١ - سورة الانبياء: الآية ٦٦ - ٦٧.

٢ - سورة طه: الآية ٨٩.

٣ - سورة النساء: الآية ٤٨.

امراً عادياً بغض النظر عن ان تلك البيئة كانت تعيش ضمن ظروف و اوضاع خاصة تختلف عن اوضاعنا، هذا من جانب ومن جانب آخر عندما يشرع في بحث التوحيد، يعمد الى طرح الدلائل الفطرية والمنطقية و (برهان النظام) و (برهان الصديقين) بشكل لا يتصور الانسان ما هو اروع منه .

ويشير في بحث التوحيد الفطري الى المسألة التي كانت تحدث في حياة كل اولئك الناس وبأشكال مختلفة فيقول: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(١).

وبهذه الطريقة يبين استقرار نور التوحيد في اعماق وجودهم، ويزيح النقاب عن طوفان الحوادث تلك الشعلة المستترة في اقبية الجهل والجاهلية، فعندما يأتي الى التوحيد الاستدلالي يقول في جملة مختصرة: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

بعد هذا البيان الاجمالي يأخذ بيد البشرية ويجوب كل نقطة من نقاط هذا العالم الفسيح ليريه الآيات في الآفاق وفي انفسهم واحدة تلو الأخرى فتارة يقول: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٣).

ثم بالبراهين المفصلة على عظمة الله تعالى وقدرته وحكمته في السماء والنجوم والارض، والنباتات والطيور، والليل والنهار، والهواء والمطر.... فيستأنس الانسان عند البحث فيها وتأخذه حالة سرور غامر^(٤).

ونجده يبدي رأيه ايضاً حينما يشرع في بحث الصفات الالهية وهو من اعقد الابحاث العقائدية وواحد من أهم المنزقات الفكرية المحيرة لكثير من العلماء؛ ففي أحد المواضع يكرم الله تعالى وينزّهه من أي نوع من الصفات الممكنة

١ - سورة العنكبوت: الآية ٦٥.

٢ - سورة ابراهيم: الآية ١٠.

٣ - سورة الذاريات: الآية ٢٠ - ٢١.

٤ - شرحنا هذه الآيات تحت عشرين عنواناً في المجلد الثاني من هذا الكتاب (رسالة القرآن).

المحدودة الناقصة ، فيقول في جملة مختصرة : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١) ، وعلى هذا الاساس ينفي عنه جميع الأوصاف الممكنة ، ويثبت له الصفات الجمالية والكمالية المنقطعة النظير .

ويتوسع في كلامه احياناً فيقول : ﴿هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِيءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢) . وفي الواقع اننا لو عقدنا مقارنة بين الوصف الذي رسمه القرآن في عدة آيات عن خالق الكون وبين الرؤية التي يمتلكها المشركون والانطباعات السائدة في بيئة ظهور القرآن عن الله تعالى ، لما امكن تصور ان هذا البيان الساطع الفريد من نوعه هو وليد تلك البيئة الخرافية المظلمة اطلاقاً .



ويصف في موضع آخر العلم اللامحدود لله تعالى بهذا الرسم الذي يفوق حد التصور ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾^(٣) .

في واقع الامر ان هذه الصورة تتضمن الإشارة الى حالة غير متناهية إلا انها صورة حية ، لان العدد اللامتناهي قد ويستفاد منه بشكل جامد في الرياضيات والتوضيحات الفلسفية ، وقد يستفاد منه وهو ينبض بالحياة على شاكلة الصورة التي وردت في الآية الأنفة الذكر ، بحيث ترتقي بفكر الانسان ، الى ذرى اللانهاية .

١ - سورة الشورى : الآية ١١ .

٢ - سورة الحشر : الآية ٢٢ - ٢٤ .

٣ - سورة لقمان : الآية ٢٧ .

ونحن عندما نستطيع ان نفق على عمق المعارف الاسلاميه فيما يخص ادق المسائل النوحديه والاسماء والصفات الالهيه نكون قد بحثنا دوره لكل القرآن المجيد بهذا الصدد^(١).



وحينما يضع اللبناات الاولى لمسأله المعاد والحياه بعد الموت نجده تارة يفند جميع المزاعم والافتراضات الخاطئه للمناوئين في جمله مختصرة ويقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(٢).

وتارة يقول في تبيان اوسع: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ * بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣).

ونارة اخرى بجسم لهم مشهد المعاد والبعث في لوحه حبه بدون ان يكلفوا تفكيرهم عناء الاستدلال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن مِّتَوَفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن مَّيْرَدٌ إِلَىٰ阿َذَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِّن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤).

وبناء على ذلك يبين القرآن مشهد البعث في عالم الانسان وطيه لمختلف المراحل الجنينية التي تعد كل واحدة منها بعثاً عظيماً، وفي عالم النباتات ايضاً

١ - يراجع المجلد الثالث من (رسالة القرآن)، للحصول على اطلاق واسع منظم بهذا الصدد.

٢ - سورة الاعراف: الآية ٢٩.

٣ - سورة يس: الآية ٨١ - ٨٢.

٤ - سورة الحج: الآية ٥ - ٦.

نلاحظ مشهد الموت والحياة ويعثها في كل شتاء وربيع من كل سنة .
ان الآيات التي تطرقت الى الحياة بعد الموت والادلة المختلفة عليها تعرضت
الى المنازل والمشاهد المتعددة للآخرة ، وما يقع هناك من حوادث ، وكيفية تجسم
الاعمال والحساب والكتاب والميزان والشهود في يوم القيامة ، تحتوي على أمور
ومسائل دقيقة ، تجعل مطالعتها والبحث فيها كل انسان غارقاً في تعجبه ، وبامكانكم
مطالعة نبذة من هذه المسائل بشكل موسع في المجلد الخامس والسادس من هذا
الكتاب .



٣- اعجاز القرآن على
صعيد العلوم الحديثة
والاكتشافات العلمية

٣- اعجاز القرآن على صعيد العلوم الحديثة والاكتشافات العلمية

قبل الدخول في هذا البحث لابد من الاشارة الى أمرين لتصحيح أي نوع من سوء الفهم بصدد هذا البحث :

١ - يجب ان لا يتوقع احد أن يبين القرآن الكريم جميع مسائل العلوم الطبيعية واسرار وخواص كل الاشياء ، لان القرآن لم ينزل لبيان هذه الامور ، فهو ليس دائرة للمعارف أو كتاباً لعلم طبقات الارض «الجيولوجيا» أو لعلم النبات وانما هو كتاب للتربية والهداية ، نزل ليقود الناس الى حياة نقية مقترنة بالسعادة والفضيلة ويحكمها الصدق والامانة والنظام والرحمة ، وليوصلها في النهاية الى القرب من الله تعالى ؛ واما الغرض من قوله تعالى في صدد القرآن : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) ، فهو لبيان كليات الامور التي تتعلق بنجاة الانسان وسعادته وتربيته ولذلك يقول تعقيباً على هذه الجملة : ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٢) .

بيد ان بعضاً من الآيات الالهية ومن اسرار الخلق في العالم وفي وجود الانسان ذاته تساعد على معرفة الله والتعرف على عظمة عالم الخلائق الذي هو من صنع الله تعالى ، لذلك قد نجد احياناً اشارات الى هذه المسائل بين الآيات القرآنية وقد

رفعت الستار عن امور خفيت واستترت عن جميع علماء العالم في ذلك الوقت .

وملخص الكلام هو : ان الاتيان ببعض اسرار العلوم وحقائق عالم الوجود في القرآن لا لعرض العلوم الطبيعية أو لتأليف دائرة للمعارف بل الغرض منه هو تبين الاهداف التربوية والاخلاقية ، وتعليم درس التوحيد ومعرفة الله ، وفهم اسماء وصفات الحق ، او الاطلاع على جانب من اسرار المعاد وماشاكل ذلك .

٢ - هل من الصحيح التشبث بمثل هذه البحوث وتطبيق الآيات القرآنية على الاكتشافات العلمية ؟ هل يحق لنا ان نطبق المسائل المختلفة للعلوم الطبيعية على الآيات القرآنية ، أو بالعكس ؟ في حين أن آراء العلماء لا تستقر على حال ، وهي في تغير دائم ، ولذلك ليس من المنطق في نظرنا أن نطبق امراً ثابتاً مستحكماً على آخر متغير ؟

والاجابة على هذا السؤال لابد من القول : بوجود ثلاثة آراء مختلفة ، أتباع الرأي الأول : وهم الذين إتخذوا طريق الإفراط في هذا المجال ، وذلك بأن طبقت الآيات القرآنية على الفرضيات العلمية لأدنى تناسب أو توافق بينهما - لا على الحقائق المسلّمة والقطعية للعلوم - ظناً منهم أنهم قد أسدوا خدمة الى معرفة القرآن من هذا الطريق .

في حين أننا نعلم في وقتنا الحاضر أن القيام بهذا الاشتباه بمكان بحيث أنه ليس فقط لا يعد خدمة للقرآن فحسب ، بل سبباً لسقوط إعتبار القرآن ومكانته ، لأن الفرضيات العلمية - لا قوانينها المسلّمة - في حالة تحول وتغير مستمر ، ولذلك ليس من المنطق وإسداء الخدمة للعلم والعقيدة تطبيق الحقائق القرآنية الثابتة على جملة من الامور المتحولة والمتغيرة ، والمشكوكة أو المظنونة .

وأما القائلون بالرأي الثاني : فهم الذين سلكوا طريق التفريط ، واعتقدوا بعدم جواز التطبيق في أي مورد من الموارد حتى في المسلّمات العلمية التي تنسجم

بصورة أو باخرى مع العبارات القرآنية الصريحة . إلا أن هذا نوع من التعصب والجمود والبعد عن المنطق والدليل أيضاً .

فالرأى الثالث والصحيح هنا هو الذي يمثل حلقة الوصل بين هاتين النظريتين الخاطئتين . فلو أننا خرجنا من محيط الافتراضات ودخلنا في عالم القوانين العلمية الثابتة بالدلائل القطعية أو الشواهد المُسلَّمة وكانت دلالة القرآن على هذه الامور صريحة وواضحة .

إذاً ما هو المبرر لامتناعنا من- تطبيق هذه المسائل على آيات القرآن ؟ ولماذا يصيبنا الجزع من هذا التوافق الذي هو احد الادلة على عظمة هذا الكتاب السماوي ؟ وإذا ما المانع من ان يكشف القرآن الستار بوضوح عن البحوث التوحيدية ومعرفة الله تعالى ، والمسائل التربوية المستندة لجملته من الحقائق العلمية المجهولة بصورة كاملة في ذلك العصر ، ومن ثم يوجه أتباعه ويوقفهم على هذا الامر . فبالاضافة الى تحقق النتائج التوحيدية والاخلاقية من وراء ذلك ، يعتبر إمارة واضحة على حقانية القرآن فضلاً عن أنه يفتح باباً واسعاً للعلوم والمعارف .

وعلى هذا الاساس سننتطرق بدقة الى نكتين في هذا البحث المتواصل فعلاً :

١ - سنختار المسائل الثابتة والمسلَّمة مئة بالمئة من العلوم الطبيعية مثل قانون الجاذبية ، والزوجية في عالم النباتات ، حركة الارض ، وحركة المنظومة الشمسية ، وامثال ذلك مما ثبت بالادلة الحسية في يومنا هذا .

٢ - سننتخب من الآيات في هذا المجال ما هو صالح للانطباق على القواعد العلمية العصرية بدون أدنى تكلف أو تأويل ، أو بعبارة أخرى فدلالة الآيات التي تقع مورداً للقبول ، هي التي تكون وفق القواعد الادبية التي يكثر فيها إستفادة المعاني من الجمل والكلمات .



١ - القرآن وجاذبيته العامة

نقرأ في الآية الثانية من سورة الرعد قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمُوتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

مما يستحق الإهتمام في هذه الآية، أن القرآن لا يقول: إن السماء ليس لها عمد، وإنما يقول: ليس لها عمد قابل للرؤية والمشاهدة. يستفاد جيداً من هذا التعبير أن الأعمدة المرئية لا وجود لها، وإنما الأعمدة اللامرئية هي التي أرسدت دعائم السماء^(١).

نقرأ في حديث عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام: بأن أحد اصحابه واسمه «حسين بن خالد» يسأل عن معنى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ...﴾^(٢). فقال الامام عليه السلام: سبحانه الله، أليس الله يقول: «بغير عمدٍ ترونها»؟ قلت: بلى، فقال: ثمَّ عمدٌ ولكن لا ترونها^(٣).

فهل يوجد توجيه وتفسير لهذا، الحديث سوى العمدة الذي نطلق عليه في عصرنا هذا إسم «التوازن بين القوة الجاذبية والدافعة».

وتوضيح ذلك، يكمن في أن النظرية الوحيدة التي غزت أفكار علماء ذلك العصر - زمان نزول القرآن الكريم - ومن ثم القرون السابقة واللاحقة، هي نظرية «الهيئة» لبطليموس التي سيطرت بقوة تامة على المحافل العلمية الدولية. ووفقاً

١ - يستفاد من ظاهر الآية ان «ترونها» وصف ل«عمد»، وقول البعض بان مفهوم الآية «ترونها بغير عمد» هو انكم ترون السماء بغير عمد (وعلى هذا، فعبارة «بغير عمد» جار ومجرور ومضاف اليه متعلقة ب«ترونها»)، خلاف الظاهر اولاً، وثانياً، فان هذا التعبير يشير الى أنكم ترون السماء بدون عمد في حين ان لها اعمدة في حقيقة الأمر.

٢ - سورة الذاريات: الآية ٧.

٣ - تفسير البرهان: ج ٢، ص ٢٧٨. ورد هذا الحديث في التفسير المزبور عن طريقين، عن تفسير علي بن ابراهيم، وكذلك عن تفسير العياشي.

لذلك صوّرت السماوات على شكل كرات متداخلة نظير طبقات البصل المتلاصقة وكانت الارض في مركزها ، ومن الطبيعي ان تستند السماوات كل منها الى الأخرى .
إلا أنه ثبت بطلان هذه العقيدة بالادلة القطعية بعد مرور زهاء الالف سنة من نزول القرآن ، وذهبت تماماً نظرية الافلاك - قشور البصل - الى غير رجعة ، واصبح من المسلّمات ان كلاً من هذه الكرات السماوية معلقة وثابتة في مدارها وموضعها ، وان المجاميع والمنظومات متحركة ، والشيء الوحيد الذي يحافظ على ثباتها واستقرارها هو نفس هذا التعادل بين القوة الجاذبة والدافعة .

ان الذي يتسبب في التحرك السريع لكل الكرات السماوية ومن ثم اجتماعها في مركز واحد ، هو القوة الجاذبة - التي تقول ان الجاذبية بين كل جسمين تتناسب طردياً مع وزنيهما ، وعكسياً مع الجذر التربيعي للمسافة بينهما - بيد ان الحركة الدورية الموجودة في الكواكب السيارة أو المنظومات - ولا يخفى ان الميزة الدورية هي نفس القوة الطاردة المركزية هي التي تؤدي الى الابتعاد السريع لهذه الكرات والمنظومات عن بعضها (على شاكلة الهروب من دائرة النار في حالة دورانها وذلك عندما ينقطع سلكها ويتطاير الشرر من قطع النار المتقاذفة) ، اما لو كانت القوة الجاذبية متوازية مع القوة الدافعة بالدقة بدون ادنى نقيصة او زيادة ، فسيظهر في هذه الحالة العمد اللامرئي القوي حتى يشبثها في موضعها الخاص كما ان الكرة الارضية تتحرك في دورانها حول الشمس بمدار معين ملايين السنين بدون أن تُجذب اليها ولا أن تبتعد عنها ، وهذه من دلائل عظمة الله واعجاز القرآن .

ومن الظريف ان المفسرين القدامى وقفوا على هذه النكتة إجمالاً بيد أنهم لم يعبروا عنها سوى بالقول بمسألة القدرة الإلهية ، بحيث يقول « ابن عباس » وفقاً لنقل الطبرسي في « مجمع البيان » والآلوسي في « روح المعاني » : إن معنى الآية هو ان

السماء تكون بدون عمد قابل للمشاهدة، وعليه يكون عمدها هو القدرة الالهية الهائلة^(١).



٢ - القرآن وخلق العالم

للقرآن الكريم تعابير متعددة في صدد حدوث العالم، إذ يقول في أحد المواضع: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٢).

وفي موضع آخر يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

لقد أشير في هاتين الآيتين إلى ثلاث نكات مهمة في صدد خلق العالم والموجودات الحية:

١ - كان العالم في بادىء الامر على شكل غاز وبخار.

٢ - كان العالم متصلاً في البداية ثم فصلت الكرات السماوية عن احداها الأخرى.

٣ - بدأت خلقة الموجودات الحية من الماء.

وهذه هي نفس الامور التي عرفت في هذا اليوم بعنوان النظريات العلمية المسلمة.

ويتقرر توضيح ذلك: بأنه بالرغم من وجود فرضيات مختلفة لم تخرج عن حدود الفرضية في صدد كيفية نشوء العالم، إلا أنه نظراً للمطالعات التي أجريت

١ - مجمع البيان: ج ٥، ص ٢٧٤، روح المعاني: ج ١٣، ص ٧٨.

٢ - سورة فصلت: الآية ١١.

٣ - سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

على المجرات والمنظومات التي تتجه نحو التكون والحدوث ، بدا من المسلم ان العالم كان على شكل اكوام من الغاز في بادىء الامر نظير الشيء المضغوط الذي تنعزل منه قطعاته وتتطاير أوصاله على أثر دورانه حول نفسه ، وهذه القطع تبرد شيئاً فشيئاً ثم تظهر بشكل مائع او جامد في كثير من الاحيان لتشكل الكرات المسكونة وغير المسكونة .

وبعبارة أخرى تدل مطالعات العلماء الفلكيين في مجال السحب ، والعوالم البعيدة عن متناول اليد والتي تأخذ طريقها نحو الانتماء على أنهم أخرجوا هذه المسألة وهي كون الدنيا على شكل اكوام من غاز البخار من حيز الفرضية واعتبروها من النظريات القطعية ، وهذا الأمر وقع مورداً لتأييد المحافل العلمية الدولية . وكذلك نقرأ في بداية الآية الاولى بصراحة بـ « أن السموات » الكرات السماوية كانت في بداية الامر على هيئة دخان وهذه الآية تنسجم مع الاكتشافات العلمية للعلماء التي لم تزل حديثة العهد ، وفي ذلك دلالة واضحة على الاعجاز العلمي للقرآن الذي يكشف عن الحقيقة التي كانت مجهولة في زمن نزول القرآن بصورة كاملة .

والآية الثانية أيضاً تُعبّر عن حالة الترابط في العالم في بادىء الامر ، ومن ثم انفصال اجزائه الاخرى وهذا أيضاً وقع مورداً لتأييد المحافل العلمية كأصل من الاصول في يومنا هذا . وكذلك الحال بالنسبة الى ظهور الموجودات الحية من ماء البحار في بادىء الامر - الأعم من كونها نباتية أو حيوانية - هي الاخرى تعتبر اليوم من النظريات العلمية المعروفة ، وان كان البحث قائماً على قدم وساق بين العلماء في صدد كيفية التحول والتطور ، وظهور الأنواع المختلفة للنباتات والحيوانات .

والقرآن أيضاً يفصح عن حقيقة ظهور كافة الموجودات الحية من الماء في الآية الثانية المتقدمة الذكر ، فضلاً عن ذلك تصرح الآيات التي تنسب خلقه الإنسان الى

التراب ، بأن هذا التراب كان ممتزجاً مع الماء على هيئة طين .
ونقرأ ايضاً في الآية « ٤٥ » من سورة النور: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ .
وللمفسرين أحاديث مطولة في صدد «الرتق» و «الفتق» المستعملتان في الآية
الثانية والتي هي في الاصل بمعنى «الاتصال» و «الانفصال» .
اختار البعض المعنى المتقدم ، وهو السماء والارض كانت على هيئة أكوام
عظيمة من البخار والغاز المُخْرِق ، وتجزأت شيئاً شيئاً على أثر الانفجارات الداخلية
وحركتها حول نفسها ، ومن ثم ظهرت الكواكب والنجوم ، من جملتها المنظومة
الشمسية .

ويرى البعض الآخر أن ذلك إشارة الى الوحدة النوعية في مواد العالم ، بحيث
كانت متداخلة في بداية الامر بحيث ظهرت على هيئة مادة واحدة ، لكنه انفصلت
هذه المواد احداها عن الأخرى ، وتشكلت مع مرور الزمان تركيبات جديدة .
وذهب جمع آخر ايضاً الى أن ذلك إشارة الى عدم نزول المطر ونمو النباتات
من الارض ، بمعنى ان السماء كانت في بداية الأمر متصلة مع بعضها الآخر ، ولم
يكن ينزل المطر ، والارض ايضاً كانت متصلة مع بعضها الآخر ، فلم يكن ينمو
النبات ، ثم بأمر من الله تعالى انفجرت السماء ونزل المطر ، وتفتحت الارض فنمت
النباتات .

وقد اشارت الى المعنى الأخير روايات متعددة من طريق اهل البيت عليهم السلام ،
وكذلك قسم من الروايات الواردة من طريق العامة^(١) ، في حين تتضمن بعض
الروايات الأخرى الإشارة الى المعنى الأول^(٢) . وتبدو الإشارة الى هذا الاتصال ايضاً
في الخطبة الاولى من نهج البلاغة . وفي كل الاحوال ينسجم ظاهر الآية مع التفسير

١ - راجع نور الثقلين: ج ٣، ص ٤٢٤، الأحاديث ٥٢، و ٥٣، و ٥٤، و ٥٥، والدر المنثور: ج ٤، ص ٣١٧.

٢ - نفس المصدر.

اعجاز القرآن على صعيد العلوم الحديثة ١٣١

الاول ، علاوة على عدم وجود مانع من الجمع بين التفاسير المتقدمة ، فمن الممكن الجمع بين كل من المعاني الثلاثة في المفهوم الجامع للآية .

ومما يسترعي الإنتباه هو قول الله تعالى في الآية (٢٧ - ٣٢) من سورة النازعات : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنِيهَا ... وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحِيهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعِيهَا * وَالْجِبَالُ أَرْسُيَهَا ﴾ .

وتدل هذه الآيات بوضوح ايضاً على كون السماء مخلوقة قبل الارض ، ثم ان ظهور الماء والنباتات والجبال كان بعد الانتهاء منها .

وبناءً على ذلك ، يكون هذا الأمر هو الشيء الذي يؤكد عليه العلم الحديث ، وهو يرى أن الارض وجدت بعد وجود الشمس ، ويعتبر ظهور الماء من سطح الأرض ، ومن ثم النباتات وكذلك ظهور الجبال بعد خلق الارض .



٣- القرآن وحركة الارض

نقرأ في الآية (٨٨) من سورة النمل قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ .
تتجلى في هذه الآية عدة نكات :

أولاً : ان الجبال التي تبدو ساكنة في نظركم ، هي في حركة سريعة كسرعة حركة السحب ، (وينبغي الالتفات الى أن السرعة الفائقة تُشَبَّه عادة بسرعة السحاب ، إضافة الى خلو الحركة السريعة للسحب من التزلزل والصخب) .

ثانياً : إن هذا هو صنع الله الذي خلق كل شيء بميزان معين .

ثالثاً : إنه عز وجل مطلع على اعمالكم .

عند التأمل بدقة في هذه الجمل الثلاثة ، يتضح أن الآية لا ترتبط بيوم القيامة كما

تخيّل بعض المفسرين ، بل ترتبط بنفس هذه الدنيا ، إذ تقول : « انتم تتخيلونها وتتصورونها هكذا في حين أنها ليست كذلك » . وأما حركة الجبال في القيامة او على مشارف القيامة فليست هي من الأمور المخفية والمبهمة ، بل إنها واضحة ومهولة بحيث لا يقوى احد على تحملها والإصطبار على مشاهدتها .

إضافة الى ان الاتقان في الخلقة وحاكمة النظم والموازن فيها ، هو اشارة ودلالة على وضعها الفعلي لا على زمن اقتراب يوم القيامة ، سيتلاشى النظام العالمي ليبنى على أنقاضه نظام جديد .

فضلاً عن ذلك فان الاطلاع الإلهي على الاعمال التي نقوم بها يرتبط باعمالنا في هذه الدنيا ، وإلا فان القيامة يوم الحساب لا يوم العمل .

ويتضح من خلال هذه القرائن الثلاثة ان هذه الآية لا تطابق حركة الجبال في نهاية مسيرة العالم ومشارف يوم القيامة بأي شكل من الاشكال ، غاية ما في الأمر أن جماعة من المفسرين لم يتمكنوا من ادراك عمق المفهوم في الآية ، فما وجدوا بُدأً سوى القبول بخلاف ظاهر الآية ، وتفسيرها بمسألة القيامة .

كما تتضح هذه المسألة ايضاً وهي ان حركة الجبال لا تنفصل عن حركة الارض ، بل هما مترابطان مع بعض كوحدة واحدة ، فاذا تحركت الجبال فان معناه الحركة الدائبة للارض .

إلا أنه ينقدح في الذهن هذا السؤال : لماذا اقتصر الله تعالى على ذكر الجبال ، ولم يقل انك ترى الارض فتحسبها ساكنة في حين انها متحركة .

والجواب على هذا السؤال واضح ، لأن الجبال من اعظم الموجودات على وجه الارض ، وهي مظهر من مظاهر الصلابة والصمود والاستحكام ، ولذا نقول لضرب المثل المعروف « ان الشخص الفلاني منيع وصامد كالجبل » ، ولذلك يمكن اعتبار حركة الجبال على عظمتها وصلابتها وثباتها ، على انها أحد العلامات على

اعجاز القرآن على صعيد العلوم الحديثة ١٣٣

القدرة اللامتناهية للحق تعالى ، لكن مما لا جدال فيه ان حركة الجبال هي احدى التجليات الواضحة لحركة الارض .

وفي كل الاحوال ، تعتبر الآية المزبورة أحد المعاجز العلمية المهمة للقرآن ، اذ من المعلوم ان العقيدة الرائجة والحاكمة على كافة المحافل العلمية الدولية في عصر نزول القرآن وزهاء الالف سنة بعد ذلك هي نظرية ثبات الارض ودوران الكرات حولها ، والتي نشأت من هيات «بطلميوس» .

ومن العلماء الاوائل الذين اكتشفوا حركة الارض هم كل من « غاليلو » الايطالي ، و « كبرنيك » البولندي ، وذلك بعد مرور ما يقارب الالف سنة ، اذ اعلنوا عقيدتهم في اواخر القرن السادس عشر واولائل القرن السابع عشر الميلادي ، مما اثار على الفور حفيظة ارباب الكنيسة بشدة بحيث هددوهما بالقتل . في حين ان القرآن الكريم كشف الستار عن هذه الحقيقة بعشرة قرون قبلها ، وطرح بعباراته البديعة المتقدمة حركة الارض باعتبارها إحدى علائم التوحيد والعظمة الالهية .

وعلى كل حال ، مما لا شك فيه أن هذه الآية تتحدث عن حركة الجبال (وبتعبير آخر حركة الأرض) في هذه الدنيا ، ذلك ان حركة الجبال على أعتاب يوم القيامة ، تحدث زلزلاً قوياً في الكرة الارضية بحيث تضع كل ذات حمل حملها ، وتذهل كل مرضعة عن مرضعها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، وهذا الكلام لا ينسجم مع جملة « تَحْسَبُهَا جَامِدَةً » على الاطلاق .

إضافة الى أنه لا يبقى مجال لأعمال الخير والشر في تلك اللحظات الحرجة ، حتى يتأتى القول بان الله تعالى مطلع على الاعمال التي نقوم بها .

والقول بان الآيات التي تسبق الآية المتقدمة او ما بعدها ترتبط بالقيامة لا يمكن اعتباره دليلاً قطعياً على ان مفهوم هذه الآية يرتبط بالقيامة ، لأن هذا ليس أحد المصاديق النادرة في القرآن ، فَرُبَّ آية تتحدث في مسألة معينة وتحدث التي قبلها

أو بعدها عن مسألة أخرى . وبعبارة أخرى فالاطلاع على محتوى الآية نفسها والقرائن الموجودة فيها اهم وافضل من الملاحظات الأخرى .

وهذه النكته تستحق الاهتمام ايضاً وهي أن التشبيه بحركة السحب بالاضافة الى انه إشارة الى السرعة الفائقة لها ، يعتبر جواباً قاطعاً على هذا السؤال ، وهو فيما لو كانت الارض متحركة فلماذا لا نستشعر بها ؟ فيأتي الجواب على انها تتحرك ببطءٍ ومرونة وهدوءٍ بحيث لا يمكن تشخيص ذلك ، كما لو صعد احد على السحاب مثلاً ، فانه لم يكن يشخص حركتها ايضاً .

ومما يدعو الى الاهتمام هذه النكته ايضاً وهي أن القرآن يقول في الآية (٢٥ و ٢٦) من سورة المرسلات : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴾ .

نشاهد في منابع اللغة التي من جملتها « المفردات » للراغب وكتاب « العين » انه قد ذكر معنيان للفظ « كَفَات » المأخوذة من مادة « كَفَت » وهما الجمع والطيران السريع ، فاذا كان المعنى الاول هو المقصود ، يكون مفهوم الآية على ان جعلنا الارض محطاً لاجتماع بني البشر في حياتهم ، وما تحت الارض مقراً لاجتماعهم بعد مماتهم . واذا كان المقصود المعنى الثاني ، يكون مفهومها الطيران السريع للارض . وهذا يتناسب مع الحركة الانتقالية للارض حول الشمس التي تسير بسرعة فائقة - تقدر بـ (٢٠) كيلو متر في كل ثانية و (١٢٠٠) كيلو متر في كل دقيقة - ثم انها تحمل الاموات والاحياء معها وتدور بهم حول الشمس .

ولعل السبب في اطلاق لفظ « كَفَت » على الطيران السريع ، هو ان الطيور عندما تريد ان تطير بسرعة فائقة في السماء تجمع اجنحتها بصورة كاملة وبشكل متناوب و تسبح في الفضاء ، لكن نظراً لكون لفظ « كَفَت وَكَفَات » تحتل معنيين ، لم نذكر هذه الآية بعنوان احد الادلة القطعية على مسألة دوران الارض .

٤- القرآن وحركة المنظومة الشمسية

يقول القرآن الكريم في الآية (٣٨ و ٤٠) من سورة يس : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

كما تقدمت الإشارة اليه من قبل ان النظرية التي تحدثت في صدد السماء والارض وسيطرت على المحافل العلمية في عصر نزول القرآن والقرون السابقة واللاحقة عليه ، هي نظرية الهياة لـ « بطليموس » الذي كان يعتبر الارض مركز العالم ، ويعتقد على ان النجوم والشمس مندكة في قلب الافلاك البلورية ، ويتصور ان الافلاك تدور حول أطراف الارض .

ويذكر القرآن في الآيات أعلاه مطلباً يتنافى مع هذا الكلام بصورة كاملة ، فهو

يقول :

اولاً البلوري : ان الشمس تتحرك باتجاه احدى المقرات (أو ان الشمس تتحرك في قرارها المختص بها) ، لا أن الشمس مع فلكها البلوري تدور حول الارض .
ثانياً : إن كلاً من الشمس والقمر يسبح في فلكه الخاص به .

وبعد إنهيار دعائم فرضية « بطليموس » على اثر اكتشافات القرون الاخيرة ، وتحزُّر الأجرام السماوية من قيود الافلاك الخارجية ، استحكمت هذه النظرية التي ترى ان الشمس ساكنة وثابتة في مركز المنظومة الشمسية ، وتدور حولها المنظومة الشمسية بأكملها .

وفي هذا المضممار ايضاً لم تكن هناك معلومات عن حركة الشمس باتجاه قرارها الخاص او في دائرة نفسها .

وهكذا تطور العلم أكثر فاثبت من خلال مشاهداته النجومية بالاستفادة من

المراصد الفلكية القوية جداً على ان للشمس حركتان على أقل تقدير: الحركة الموضعية حول نفسها، والحركة الانتقالية بصحبة المنظومة الشمسية باكملها باتجاه نقطة معينة من السماء، او بتعبير آخر باتجاه نجم «ويكا» وهو يعتبر من نجوم الصورة الفلكية التي تسمى «الجائي على ركبتيه»^(١).

جاءت في إحدى دوائر المعارف: ان للشمس بالاضافة الى الحركات الظاهرية، حركة واقعية، «الحركة الدورية للمجرات تسير بالشمس وتدور بها في الفضاء بسرعة مليون ومائة وثلاثين ألف كيلو متر في الساعة تقريباً، وكذلك ليست الشمس ثابتة في داخل المجرات، بل تتحرك باتجاه الصورة الفلكية التي تدعى «بالجائي» بسرعة تراوح (٧٢) ألف كيلو متر في الساعة، والسبب في عدم اطلاقنا على الحركة السريعة للشمس في الفضاء هو الدورة الفلكية للأجرام السماوية».

ثم تضيف على ذلك بالقول: ان للشمس في دورانها حول نفسها حركة دورية موضعية أيضاً (الدورة الموضعية لحركة الشمس في استوائها تستغرق (٢٥) ليلة تقريباً)^(٢).

إذاً مما لا يقبل الشك ان جملة «كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» لا تتلاءم مع نظرية الافلاك البلورية (بطليموس) التي اثبتت كل واحدة من الكرات في موضعها الخاص، وتنسجم تماماً مع إكتشافات العلم الحديث، علاوة على ان الحركة باتجاه «المستقر» إشارة أخرى الى حركة الشمس باتجاه أحد جوانب المجرات ايضاً، ويعتبر بيان هذا المطلب معجزة واقعاً.



١ - تطلق الصورة الفلكية «الجائي على ركبتيه» على النجوم التي تكون بمجموعها على هيئة شخص جاثٍ على ركبتيه يريد القيام، ونجم «ويكا» يعد من هذه المجموعة التي تدور حوله المنظومة الشمسية بما فيها الشمس.

٢ - قاموس «دهخدا»، ج ٢٢ مادة الشمس «باللغة الفارسية».

٥- القرآن واتساع العالم

نقرأ في الآية (٤٧) من سورة الذاريات: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

«أيدٍ» (على وزن صيدٍ) معناه القدرة والقوة، كما جاء هذا المعنى في آيات أخرى من القرآن ايضاً، وذكر بعض المفسرين اضافة الى ما قلناه معنى (النعمة) «إيدٍ» ايضاً، في حين أن «يَدٌ» تأتي بمعنى «النعمة» في بعض الأحيان والتي يكون جمعها «أيدي» وجمع جمعها «أيادي».

وعلى كل حال، تدل جملة «إِنَّا لَمُوسِعُونَ» بوضوح على ان الله تعالى الذي خلق السموات بقدرته التامة يضيف عليها عامل الاتساع والاستيعاب بصورة مستمرة. وبناء على عدم وضوح هذا المطلب بالنسبة للعلماء والمفسرين سابقاً، فقد فسّر الكثير منهم هذه الجملة بانها تعطي معنى سعة رزق الله تعالى على عباده من خلال نزول المطر، او من خلال طرق مختلفة. وفسّرها بعض على أنها تعطي معنى الغنى والكفاف، وبأن الله تعالى كلما اجزل نعمة واعطى لا تنقضي خزائنه ابداً. بيد اننا لو القينا نظرة على ما اثبتته المشاهدة النجومية بواسطة المراصد الفضائية على ان المجرات تبتعد عن احداها الاخرى بسرعة، وان العالم في حالة اتساع مطرد، لإتضح مفهوم هذه الجملة في اذهاننا بصورة كاملة.

نقرأ في كتاب «بداية ونهاية العالم» لمؤلفه «جان ألدر»:

«لقد كشفت احدث وادق القياسات على طول مسيرة الامواج التي تنبعث من النجوم، الستار عن وجه إحدى الحقائق العجيبة والمدهشة، ذلك انها بينت على ان مجموعة النجوم التي تشكل هيئة العالم تبتعد بسرعة فائقة عن مركز العالم بصورة مستمرة، وكلما اتسعت الفاصلة بينها وبين مركز العالم كلما زاد ذلك من سرعة

سيرها، ويبدو ان النجوم باكملها كانت مجتمعة في هذا المركز في يوم من الايام ثم تشتت شملها بعد ذلك، وانفصلت عنها مجموعة من النجوم الكبيرة لتشق طريقها في مسالك الفضاء المختلفة، علاوة على ان العلماء استفادوا من هذا الموضوع على ان للعالم نقطة شروع في بداية الأمر،^(١).

ونقل في نفس الكتاب عن « جرج كاموف » قوله في كتاب «خلق العالم» :
 «إن فضاء العالم المتكون من مليارات المجرات، في حالة إتساع مطّرد، وفي الحقيقة ان عالمنا ليس في حالة سكون وانما في حالة انبساط، والتوصل الى الحقيقة القائلة بان هذا العالم هو في حالة انبساط وتوسع، هو المفتاح الذهبي للتعرف على لغز هذا العالم، لان قولنا: ان العالم في حالة انبساط حالياً، يستلزم منه ان العالم كان في حالة انقباض شديد جداً في يوم من الايام»^(٢).

ونقرأ في كتاب « حدود النجوم » لمؤلفه « فرد هويل » حول سرعة الانبساط واتساع العالم مايلي :

« تصل اقوى درجات السرعة لتقهقر الكرات التي خضعت للقياس الى وقتنا هذا الى حدود ست وستون الف كيلو متر في الثانية، ان نور المجرات الأبعد يبدو ضعيفاً بنظرنا الى درجة بحيث يتعسر علينا قياس سرعتها، نظراً لعدم وجود النور الكافي لقد بينت الصور التي التقطت من السماء بوضوح من ان فاصلة هذه المجرات ابعد بكثير من فاصلة المجرات القريبة»^(٣).

وعلى هذا الاساس نقف على تفسير واضح جداً في صدد الآية السابقة واتساع السموات، والتي تكشف الستار عن السر وراء أحد المعجزات العلمية للقرآن.
 ومما يستحق الاهتمام ايضاً أن عبارة: «أَنَا لَمُوسِعُونَ» والتي استعمل فيها اسم

١ - « بداية ونهاية العالم »، ص ٧٤ - ٧٧ (باختصار).

٢ - نفس المصدر.

٣ - « حدود النجوم »، ترجمة رضا أقصى، ص ٣٣٨، عن النسخة الفارسية.

الفاعل والجملة الاسمية ، تدل على حالة الاستمرار والديمومة ، وعلى تداوم حالة التوسع والانبساط .



٦- القرآن ووجود الحياة في الكرات الأخرى

جاء في الآية (٢٩) من سورة الشورى ما يلي : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝ ﴾ .

يا ترى هل العيش والحياة مختص بالكرة الارضية ، والكرات الأخرى ليست مسكونة اطلاقاً ؟ لقد كان العلماء الاوائل يتابعون هذه المسألة دائماً بشيء من التردد او الحكم المنفي ، بيد ان التحقيقات الاخيرة للعلماء اثبتت لنا ان العيش والحياة لا تختص بالكرة الارضية .

ونقرأ في كتاب « الحياة في العالم » من منشورات مجلة « لايف » ما يلي :
« من الممكن حسب احصاءات العلماء ان تتواجد في مجرتنا ملايين النجوم التي تكون سياراتها التابعة لها أهلة بالسكان » .

وذهب البعض الى اكثر من ذلك واعتقدوا بوجود موجودات حية في بعض الكرات السماوية تفوق حالة التطور لدى الانسان بكثير ، فالارسالات الراديوية التي يبثونها في الفضاء ولا نستطيع الاتيان بمثلها ، قابلة للاطلاع عليها بصورة كاملة من خلال اجهزة الاستقبال التي بحوزتنا ، وان كنا لا نفهم لغتهم ولا نعي بمغزاها .

وعلى كل حال فتصريح الآية المتقدمة بالتول : بان الله تعالى بث الموجودات الحية في السموات والارض ، يخبر عن حياة الموجودات الاخرى بشكل واضح . ومن الاشتباه بمكان ان نتصور ان المقصود من الموجودات الحية في السماء هي الملائكة ، ذلك لكون كلمة « دابة » تطلق على الموجودات الجسمانية فحسب ولا

تطلق على الملائكة .

ولهذا ففي الموضع الذي يريد القرآن الكريم ان يذكر الملائكة يتحدث عنها بصورة مستقلة بعد ذكر كلمة «الدابة» ، كما نقرأ ذلك في الآية (٤٩) من سورة النحل : ﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ﴾ . بحيث نجد ان «الملائكة» جعلت في قبال «الدابة» ، وهذا يدل على عدم شمول كلمة الدابة للملائكة في الآية التي وقعت مورداً للبحث .

ومن الظريف ما يقوله «الفخر الرازي» في تفسير الآية التي وقعت مورداً للبحث بانه : «لا يستبعد ان يقال ان الله خلق في السموات انواعاً من الموجودات الحية تمشي كما يمشي الانسان على وجه الارض»^(١) .

ونقرأ في حديث ظريف عن الامام علي عليه السلام ما يلي : «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الارض مريوطة كل مدينة الى عمود من نور»^(٢) . ووردت في بعض المصادر الاسلامية روايات اخرى في هذا المجال^(٣) .

ومن المعلوم أن هذه المعلومات استقيت من نفس المصدر الذي استفاه القرآن الكريم ، والألم يطلع احد على هذه المسائل في ذلك العصر .



٧- القرآن وخلق الجبال

ورد في القرآن الكريم عبارات مختلفة وغنية في معانيها في مجال خلق الجبال ، بقول تعالى في احد المواضع :

﴿وَالْقَىٰ فِي الْاَرْضِ رَوَاسِيًۢا اَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَاَنْهَاراً وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٤) .

١ - تفسير الفخر الرازي : ج ٢٧ ، ص ١٧١ .

٢ - سفينة البحار : مادة النجم ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ .

٣ - لمزيد من الاطلاع راجع كتاب «الهيئة والاسلام» .

٤ - سورة النحل : الآية ١٥ .

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾^(١).
ونقرأ في آية أخرى قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً قُرَّاتًا﴾^(٢).

ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾^(٣)، وهناك آيات أخرى بهذا المضمون أو قريبة منها في القرآن الكريم أيضاً.
الامر الذي نواجهه لأول وهلة في هذه الآيات، هو تأثير وجود الجبال في الحفاظ على استقرار الأرض، والتي عبر عنها تارة بـ«الأوتاد» والتي تستخدم عادة في اقفال اقسام مختلفة من الابواب والصناديق والسفن وما شابه ذلك، أو صيانة المخيمات وتقويتها في مقابل هبوب الرياح.

وتارة أخرى عبر عنها بـ«أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» المأخوذة من مادة «مَئِدَان» بمعنى الاهتزاز والاضطراب، ومعنى ذلك ان الجبال تُحْدُ دون اضطراب الأرض واهتزازها. ولم يطلع احد على هذا المطلب في ذلك العصر، ونحن في هذا الوقت نعلم جيداً مدى دور الجبال على هذا الصعيد، وذلك للنقاط التالية:

أولاً: ان الجبال في واقع الامر هي في قوة احد الدروع الفولاذية التي تحيط بالأرض من كل جوانبها، ونظراً لقوة ارتباطها واتصالها باعماق الأرض تشكل بدورها احد الشبكات القوية الشاملة، واذا لم يكن كذلك وكانت الرمال الناعمة تغطي صعيد الأرض، لوقعت تحت تأثير الجاذبية القوية للقمر بكل سهولة، ولهزَّ الجزر والمدُّ كل شيء على اليابسة نظير المد والجزر في البحار، واستولى الاضطراب والاهتزاز والحركة على وجه الأرض في الليل والنهار، ولتعرض لامكان الانهدام والسقوط كل مبنى من المباني.

١ - سورة النبأ: الآية ٦-٧.

٢ - سورة المرسلات: الآية ٢٧.

٣ - سورة لقمان: الآية ١٠.

بيد ان وجود هذا الحصن المنيع في الارض ينزل بالمد والجزر الى ادنى مستوى، وحالياً تأخذ القشرة السميكة للارض بالارتفاع والانخفاض بمقدار ثلاثين سائمتراً في كل يوم وليلة ايضاً، وهذا بعكس البحار التي ترتفع وتنخفض على اثر الجزر والمد امتاراً متعددة احياناً.

وتوجد جاذبية الشمس الجزر والمد ايضاً وان كان ضعيفاً، ولو وقع مسير الشمس والقمر في خط واحد واتصلت الجاذبيتان في جانب واحد، لاشتدت قوة هذه الحركات واحتدت. إلا ان القرآن يذهب بالقول الى ان الجبال التي هي اوتاد الارض تصونها من الاهتزاز.

ثانياً: إن الضغط الداخلي للارض بواسطة حرارتها المركزية الهائلة يؤثر على قشرة الارض بصورة دائمة، ولولا وجود الجبال لأصبح مصدراً من مصادر الاضطراب المستمر للارض.

والآن تدبروا لو اشتد الاضطراب لحركة الجزر والمد والضغط الداخلي على اثر مرونة قشرة الارض وطرواتها، هل كان للهدوء والاستقرار الذي نستشعره في وقتنا الحاضر معنى يذكر على الاطلاق؟ وهل نجد بيتاً وملجأ ومأوى نلجأ اليه؟

ثالثاً: لقد ثبت في وقتنا الحاضر ان الجبال باعمدتها القوية تحرك معها الهواء الحاصل في اطراف الارض، والآن لو فرضنا أن الارض تتحرك في دورانها حول نفسها بسرعتها الذاتية المعهودة - أي ما يقارب الثلاثين كيلو متر في الدقيقة -، وبناءً على عدم وجود الجبال، لما تحقق مثل هذا الدوران للهواء المتناثر في أطرافها، ولثارت ثائرة العواصف والاعاصير والرياح الشديدة على اثر اصطدام جزيئات الهواء بوجه الارض، فضلاً عما يؤكّد ذلك من حرارة هائلة تحرق الأخضر واليابس. كما ان الطائرات السريعة لو سارت في الطبقات السفلى للجو لاجتمعت اجنحتها من الحرارة بحيث قد يؤدي ذلك الى عواقب وخيمة. لهذا تضطر الى الصعود في

اعجاز القرآن على صعيد العلوم الحديثة..... ١٤٣.

الطبقات العليا للجو لتتحرك في وسط الهواء الرقيق جداً حتى يقل احتكاكها بالهواء الذي هو المنشأ لايجاد الحرارة .

بلا، لقد أزال منخفضات ومرتفعات وجبال الارض هذه الازمة وحركت الطبقة السميكة للجو مضافاً الى حركة الارض ، تماماً كدوران اسنان الدواليب ذات المقود التي تدور مع دورانها بقية الأشياء الأخرى .

فبناءً على ذلك ، تعتبر الجبال وسيلة من وسائل استقرار الارض واستقرار ساكنيها سواء في مقابل جاذبية القمر والشمس ، او في مقابل الضغط الداخلي ، او في مقابل العواصف الشديدة والمستمرة ، او في مقابل تولد الحرارة الشاقة .

من جهة أخرى ، تقدمت الاشارة في الآيات السابقة الى وجود العلاقة بين الجبال وبين نزول المطر وارتواء الاراضي والحصول على ماء الفرات وهو « الماء العذب » ، يقول عز من قائل : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِي شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ۝ ﴾ .

مما لا يقبل الشك هو ع دم الاحاطة

بهذا الارتباط الدقيق بين هذين الامرين في السابق ، الا اننا نعلم في الوقت الحالي ، اولاً: ان الجبال هي سبب من اسباب تجمع بخار الماء ، بمعنى تراكم السحب . وثانياً: إنها سبب من أسباب برودة طبقة الهواء المجاور لها ، وثالثاً: إنها تحتفظ بالقسم الاكبر من الأمطار على شكل ثلج ، كما انها منبع من المنابع المستمرة لجريان المياه على سطح الارض ، ومن ثم صيانة المياه من الهدر والضياع . بالاضافة الى ان الامتداد الواسع للجبال ، وقشرتها المتعكرة تقلب امواج الماء وتعرضها للهواء النقي ، فيصفوا الماء ويتحول الى « ماء الفرات » وهو (الماء العذب) .

وبغض النظر عن كل ذلك ، فان النكتة الظريفة الاخرى التي استأثرت باهتمام بعض من العلماء في صدد جبال الارض ، هي أن الجبال في مقابل تحولات الضغط

الارضى في قوة «الدوار الثابت» الذي يحول دون تبدل السرعة .

توضيح ذلك : ان المقصود من «الدوار الثابت» هو نفس الشيء الموجود في كافة الوسائل التي لها حركة دورية مشابهة ، وذلك في صورة دوار ثقيل يدعى بالدوار الطيار أو الدوار الثابت ، ينصب في محورها حتى ينظم سرعتها ، وعلى سبيل المثال لو ورد ضغط من الخارج على هذه الوسيلة ذات الحركة الدورية ثم انقطع الضغط فجأة لقفزت الى الأمام ووجهت صدمة الى ذلك الجهاز ، اما اذا نصب الدوار الثابت عليها لاحتفظت بهذا الضغط في داخلها ، ثم تدفعه بالتدريج بدون ان تتوجه اي صدمة الى ذلك الجهاز (تأمل جيداً) .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى بإمكان العواصف الهائجة التي تهب احياناً في الجهة المخالفة او الموافقة للارض ان تؤثر على حركتها ... ، وحينما تهدأ فورة العاصفة تتحول الارض الى حالة من الاندفاع العشوائي الذي يوجه ضربة قاصمة الى جميع الموجودات الارضية ، بحيث يولد الاضطراب في كل شيء .

إلا أن لوجود الجبال التي هي بمثابة «الدوار الثابت» دور في الاحتفاظ بكل هذه الضغوط المثبتة فيها والمنشبة فتحدُّ دون حدوث الصدمات ، وتحافظ على الحركة المتوازنة للارض ، وعلى حد تعبير القرآن تنف مانعاً دون حدوث الاهتزازات وزعزعة الاستقرار .

ولو كان البحث في زمن هذه الآيات قائماً على قدم وساق في مجال مباحث «الدولاب الثابت» وآثاره في ذلك العصر ، لما كانت التعبيرات في هذه الآيات مدهشة ومثيرة ، ولكن نظراً الى عدم وجود مثل هذه المسائل في ذلك الزمن على الاطلاق ، خصوصاً انه لم يكن للفيزياء معنى في محيط الجزيرة العربية ، فضلاً عن هذه المسائل المعقدة ، فلا بد من الاعتراف بان بيان مثل هذه الآيات تعبير من

احدى المعاجز العلمية الكبرى^(١).

والنكته الأخرى هي أن القرآن في صدد ايجاد الجبال يقول : ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾^(٢).

ويقول في مكان آخر : ﴿أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا... وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي﴾^(٣).
هذه التعابير ونظائرها التي تكررت في القرآن تبين بوضوح على ان الجبال خلقت بعد خلق الارض ، واثبت العلم الحديث هذا المعنى بوضوح ايضاً ، وذهب الى القول بأن الكثير من الجبال حدث على اثر تعرجات الارض ، والبعض حدث على اثر المواد الذائبة المحرقة ، والبعض الآخر حدث بسبب تنقية المواد الرخوة من اطراف المواد الصلبة للارض الذي يحصل على اثر نزول المطر، وكل ذلك تحقق بعد خلق الارض وايجادها .. ومما لا ريب فيه ان هذه المسائل لم يتأنى معرفتها حين نزول هذه الآيات من القرآن .



٨- عنصر الزوجية بين النباتات في القرآن

وردت الاشارة الى عنصر الزوجية في عالم النباتات في آيات خمس من القرآن الكريم ، فنقرأ في الآية (١٠) من سورة لقمان قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ .
وورد نفس المضمون في كل من الآية (٧) من سورة الشعراء والآية (٧) من سورة ق .

١ - ما تقدم أعلاه موجز من مقال محقق تحت عنوان «أثر الجبال في استقرار الارض» (مسألة الدوار الثابت) في المجلة الدينية والعلمية «دين الاسلام» العدد ٨، السنة ١٣ (ص ٦٨ - ٧٣ باللغة الفارسية)، وللمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع والوقوف على جزئياته راجع المقال المزبور.

٢ - سورة النحل : الآية ٦١ .

٣ - سورة النحل : الآية ١٥ .

ويقول تعالى في الآية (٥) من سورة الشعراء : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ إِفْتَرَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ .

ونقرأ ايضاً في الآية (٥٣) من سورة طه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ .

عندما وصل اغلب المفسرين الاوائل الى هذه الآيات فسروا « زوج » بمعنى « النوع » و « الصنف » ، و « الأزواج » بمعنى « الأنواع » و « الأزواج » المختلفة للنباتات ، لأنه لم يتأتى بعد التعرف على حقيقة الزوجية في حقل النباتات بمعناها المعروف في ذلك الزمان .

إن الناس في سالف الزمان وان كانوا يعلمون نوعاً ما عن ان بعض أنواع النباتات جنسين ، الذكر والانثى ، وانهم كانوا يستخدمون عملية التلقيح من اجل تكثيرها (خصوصاً شجرة النخل التي يعلم بوجود الذكر والانثى فيها منذ قديم الزمان ، وانهم كانوا يحرصون على انماؤها عن طريق التلقيح) ، لكن احد العلماء المعروفين في حقل النباتات من السويد يدعى « لينه » اعرب عن هذه المسألة لأول مرة في اواسط القرن الثامن عشر للميلاد وهي ان عنصر الزوجية (بين الذكر والانثى) في عالم النباتات تعتبر من احدى المسائل العامة ، والمتفق عليها ، وان النباتات كاغلب الحيوانات انما تتكاثر وتترعرع من خلال الامتزاج بين نطفة الذكر والانثى ، ومن ثم تعطي الثمار .

إلا ان القرآن الكريم - كما رأينا - قد رفع الستار عن هذه الحقيقة قبل هذا العالم باثني عشر قرناً ، وأشار الى عنصر الزوجية في عالم النباتات في موارد متعددة ، إلا انه نظراً لعدم امتلاك هؤلاء للجراءة في التصريح بهذه الحقيقة ، عمدوا الى تفسير الزوجية بمعنى اخر على خلاف ظاهرها .

ومن الظريف ان النباتات مختلفة من هذه الجهة ، ففي كثير منها يجتمع الذكر

والانثى فيها في اصل واحد، وفي البعض الآخر تنفصل اشجار الذكر عن اشجار الانثى.

خذوا وردة من الورود ثم إفصلوا اوراقها عنها، وتأملوا بدقة في داخلها تجدون عالماً مليئاً بالعجائب والاسرار. وفي الواقع ينعقد هناك محفل كبير، بيد انه لاصخب فيه، ويخلو من اي لون من ألوان العنف والاعتداء، ان المياسم الظرفية واللطيفة التي تحمل معها اكياس حبوب اللقاح تحيط بما حولها ثم تتحرك مع هبوب الرياح، لتنثر تلك الحبوب على المدقة. ان الحبات المذكرة التي تمثل كل واحدة منها خلية صغيرة جداً، تنجذب بسرعة وبعد العبور من على عنق المدقة تمتزج مع نطفة الانثى في المبيض في اصل الورد لتشكل بدورها بذرة الورد أو الفاكهة.

وكان الاوراق الزاهية للورد بمنزلة احدى معالم الزينة لهذا المحفل الغرامي العجيب او الاستار الموضوعة على الحجرة المزينة للعروسين، ثم تدعى الحشرات والفراشات الجميلة والنحل الى هذا المحفل البهيج ايضاً.

ويتناول كل منهم الحلوى المخصصة والمعدة له من قبل رحيق الازهار وبيعثون لنا حصّة منها، وما نشاهده من العسل في الاسواق، هو نصيبنا من ذلك المحفل.

وعلى كل حال استناداً الى تصريح القرآن في آيات مختلفة على شمولية عنصر الزوجية للنباتات، وبالرغم من بعض الاستثناءات القليلة الواهية الموجودة في كل قانون كلي، يكون قد رفع الستار عن هذا السر المهم الذي خفي عن انظار العلماء في ذلك العصر والقرون التي تلته وهذه بحد ذاتها من المعاجز العلمية البديعة.



٩- القرآن والزوجية العامة

نقرأ في الآية (٤٩) من سورة الذاريات قوله عز من قائل : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

ويقول في الآية (٣٦) من سورة يس : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

فهذه الآية تبين - بوضوح أكثر - شمولية عنصر الزوجية للنباتات والبشر والاشياء الخارجة عن حدود العلم البشري . ونظراً لان كثيراً من المفسرين لم يجدوا هنا مفهوماً للزوجية بالمعنى الحقيقي (أي عنصري الذكر والأنثى) ، فقد عمدوا الى تفسيرها بالاصناف المختلفة للموجودات في العالم التي تبدو على شكل زوج مثل النهار والليل ، النور والظلمة ، البحر والبر ، الشمس والقمر ، الحرب والسلم وغيرها .

الآننا نعثر على تفسير أدق لهاتين الآيتين في وقتنا الحاضر ، ذلك إن التحقيقات العلمية اثبتت هذه الحقيقة بوضوح وهي ان جميع الموجودات لعالم المادة تتشكل من اجزاء صغيرة جداً تدعى بالذرة . وهذه الاجزاء التي عرفت قديماً بالموجود الذي لا تنقسم عراه (اجزاء لا تتجزأ) وسمي بـ«الذرة» لهذا السبب قد تحطم على أثر تطور القدرة العلمية والفكرية للانسان . ومن هذا المنطلق نشأت القوة الذرية والصناعات المتعلقة بها .

وعندما حللوا الذرة وجدوا أنها مركبة من أجزاء متكونة غالباً من الكثرونات (الجزئيات التي تغلف النواة ، وتحمل شحنة سالبة) ، بروتونات (الجزئيات التي تحمل شحنة موجبة) .

وعلى هذا الاساس تحصل من ذلك معنى أدق للزوجية في كل ذرات عالم

اعجاز القرآن على صعيد العلوم الحديثة ١٤٩

الوجود وهو توفر عنصري (الذكر) و (الأنثى) ، (الموجب) و (السالب) ، (الفاعل) و (القابل) وبدون اي استثناء ايضاً ، في حين ان التفسير الذي قال به العلماء الأوائل بالرغم من عدم انسجامه الكامل مع مفهوم الزوجية ، فيه استثناءات كثيرة ايضاً . وعلى اي حال ، توجد هناك جاذبية قوية بين الزوجين الحقيقيين ، وكذلك بين جسمين بشحنتين كهربائيتين مختلفتين سالبة وموجبة ، وهي كثيراً ما تشابه الجاذبية الجنسية . في حين لا يوجد اي نوع من انواع الجاذبية بين الليل والنهار ، النور والظلمة ، البحر والبر ، وما شابه ذلك .

ومن الجدير بالذكر ما صرح به بعض المفسرين القدامى من خلال ما استلهموه من الآيات السالفة ، بأن المقصود من الزوجين في هذه الآيات هو عنصري الذكر والانثى نفسيهما ، وإن لم يوضحوا هذا المطلب بصورة كاملة^(١) .



١٠ - القرآن يكشف النقاب عن مسألة مراحل تطور الجنين

وردت ضمن الآيات القرآنية المرتبطة بعلائم التوحيد ودلائل المعاد اشارات غزيرة المعاني الى مسألة خلق الانسان من النطفة ومن ثم مراحل تطور الجنين . والتي يمكن عدّ بعض منها في قائمة المعجزات العلمية للقرآن .

من جملتها ما نقرأه في الآية الثانية من سورة الانسان : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

(النطفة) في اللغة بمعنى الماء الصافي او الماء القليل^(٢) . (الامشاج) جمع

١ - جاء في تفسير (مجمع البيان) عن احد المفسرين القدماء ويدعى «ابن زيد» انه قال في تفسير الآية (ومن كل شيء خلقنا زوجين...) الزوجين الذكر والانثى . (مجمع البيان ، ج ٩ ص ١٦٠) . كما ورد هذا المعنى نفسه عن قتادة في تفسير الآية «سبحان الذي خلق الأزواج كلها» . (تفسير القرطبي ، ج ٨ ص ٥٤٧٠) .

٢ - تمت الإشارة الى المعنى الاول في معجم مقاييس اللغة والمفردات ، والى المعنى الثاني في لسان العرب .

مشج (على وزن نسج او على وزن سبب). او جمع مشيج بمعنى الشيء المختلط .
وقد ابدى المفسرون احتمالات متعددة في صدد الجواب عن ما هو الشيء الذي
تختلط به النطفة .

فتارة تصوروا أن ذلك اشارة الى تركيب نطفة الانسان من «الحيامن» و
«البويضة» ، وتارة بأنه اشارة الى كونها مركبة من الاستعدادات المختلفة من الناحية
الجسمية او الروحية (القبح والحسن ، الذكاء والغباء و...) . واخرى الى أنه اشارة الى
أن نطفة الانسان مركبة من مواد مختلفة من المعادن نحوها .

بطبيعة الحال ان ذلك كله حسن ، ولعله كان من افضل التفاسير في عصره ، إلا
انه لا ينطبق بدقة على معنى الآية . ذلك ان لفظة الأمشاج جمع ، واطلاقها على
شيئين أي (البويضة والحيمن) خلاف الظاهر ، هذا اولاً ، وثانياً : ان وجود
الاستعدادات المختلفة في الاشخاص بشكل مستقل لا يتلاءم مع معنى الامشاج ،
وكذلك ليس من المناسب القول بتركيب النطفة من انواع المعادن واشباهها ، لان هذا
الأمر لا ينحصر في النطفة فقط ، وانما تتركب من هذه المواد كل الموجودات العالية
نظير الانسان والنبات والوان الاطعمة ، اضافة الى أن كلمة النطفة في آيات متعددة
من القرآن جاء في خصوص نطفة الرجل .

فمثلاً نقرأ في الآية (٣٧) من سورة القيامة قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ

يُمْنِيٍّ؟

لكن مع تطور العلم واتساع نطاق تحقيقات العلماء ثبت اليوم بأن القطرات
القليلة للمني والتي تدعى بـ (النطفة) مركبة من مياه متعددة تفرزها الغدد المختلفة
للجسم ، وبشكل رئيسي فهناك خمس غدد تتظافر فيما بينها لكي تصنع المنى من
ترشحاتها ، وهي عبارة عن :غدتان تقعان في أكياس قريبة من غدة البروستات
وتدعى بـ (البويضة) .

والأخرى هي غدة البروستات نفسها ، وكذلك غدتا «الكوبر» و «اللبتر» اللتان تقعان بالقرب من مجاري الادرار^(١).

وتختلط هذه المياه الخمسة مع بعضها بنسب دقيقة وموزونة لتشكل مادة الحياة (النطفة).

ويعتقد هذا العالم الفرنسي ان التعبير بـ (الامشاج) الوارد في القرآن هو اشارة الى تلك النكته الدقيقة التي خفيت عن انظار علماء ذلك العصر.

ومما يسترعي الانتباه هو قوله تعالى في ذيل الآية السابقة : ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ، بمعنى ان نعمة السمع قد تقدمت على نعمة البصر ، لاحتمال ان يكون السبب في ذلك كما ذهب اليه العلماء من أن الحس الاول الذي يبدأ بالعمل لدى الرضيع هو السمع ، فهو يستعد لالتقاط الاصوات في الايام الاولى من حياته . بل ان له قبل ذلك نشاطاً محدوداً في العالم الجنيني ايضاً.

وهذا بخلاف البصر فانه يستعد للابصار بعد ذلك ولعله بعد مرور اسبوعين ، لعدم امتلاك العين المغمضة أي استعداد لرؤية امواج النور في البيئة المظلمة للرحم . ولهذا السبب فان عين الرضيع تبقى مغمضة بعد ولادته مدة من الزمن ايضاً ، حتى تعتاد على الضياء بالتدريج .

من جانب آخر يقول في الآية (٢٠) الى (٢٣) من سورة المرسلات : ﴿وَالَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ .

لقد توصل علماء الاجنة اليوم من خلال مطالعاتهم ومشاهداتهم الدقيقة

١ - مقتبس من كتاب (مقارنة بين التوراة والانجيل والقرآن والعلم) تأليف الدكتور «بوكاري» ترجمة المهندس «ذبيح الله دبير» باللغة الفارسية - ص ٢٧١ . الملفت للنظر ان هذا الدكتور الفرنسي يتعلق كثيراً بالقرآن حينما يصمم على مقارنة هذه الكتب فيما بينها ، وحيث ان ترجمات القرآن المتداولة لا تشفي غليله ، نراه يسمى وراء الادب العربي ويحيط به احاطة تامة ليتمكن من استيفاء ما يحتاجه من القرآن مباشرة دون حاجة للرجوع الى ترجماته .

والمصورة عن تحولات الجنين الى هذه النقطة ، بان لقاء (الحيامن والبيوض) إنما يتم خارج الرحم وفي الممرات المنتهية اليه . ثم تنعقد النطفة لتشق طريقها نحو قرارها الاصلي وهو الرحم فتلتصق بجداره .

ويتبين هذا المعنى بوضوح في الآية الآنفه الذكر ايضاً ، ففي البداية تتحدث عن خلقه الانسان ، ومن ثم عن استقراره في قرار الرحم (وينبغي الالتفات الى أن «ثم» تُستعمل في لغة العرب عادة للترتيب بشيء من الفاصلة) ، وعليه فان الأمر الذي توارى عن نظر جميع العلماء في ذلك العصر ومابعده قد جاء في القرآن بشكل واضح .

والتعبير بـ«القرار المكين» هو الآخر تعبير غني جداً في معناه والذي كان مجهولاً في ذلك الزمان قطعاً .

نعلم في وقتنا الحاضر ان هناك خصائص مهمة أخذت بنظر الاعتبار في خلق الرحم بحيث أصبح من آمن الاماكن للجنين .

وبغض النظر عن الاغشية الثلاثة التي تحيط بالجنين من كل جوانبه (غلاف باطن الام ، جدار الرحم ، الكيس الخاص لاستقرار الجنين) . فان كل جنين يسبح في كيس يحتوي على ماء لزج ، ويستقر هناك تقريباً في حالة من انعدام الوزن وعدم الاتكاء على شيء معين ، وهو يتحمل كثيراً من الصدمات التي ترد على انحاء جسد الأم ، ذلك ان الصدمات في الواقع تصيب (كيس الماء) لا الجنين نفسه مباشرة ، وبعبارة اخرى يمكن ان نسمي ذلك الكيس ومحتواه بالجهاز المضاد للصدمات نظير النوايض المرنة للسيارة التي تخفف من تأثير عراقيل الطريق . فضلاً عن ذلك انه يحول دون تسليط ضغط على اعضاء جسم الجنين ، ذلك ان هذا الضغط يلحق الضرر بذلك الجسم اللطيف ، اضافة الى ان البرودة والحرارة الخارجية لا تنتقل الى الجنين بسهولة كما لا يخفى ، لانها تضطر في سبيل الى الجنين ان تخترق ذلك الكيس المملوء بالماء ، فتصل اليه معتدلة الحرارة ، والأمن الممكن ان يختل وضع

الجنين بصورة كاملة عند استحمام واحد للأم بالماء البارد او الحار .

وبناءً على هذه الامور التي توضح لنا مفهوم (القرار المكين) بصورة كاملة لا يعتبر الرحم ملجأً آمناً ومناسباً للجنين فحسب ، بل ان هذه الامنية والحصانة تسايره في المراحل التي تمر بها ولادته ايضاً .

وكما قال بعض المفسرين الجدد : ان المادة السائلة الخاصة التي يسبح فيها الجنين تتسبب في اتساع فوهة الرحم حين الولادة وتعقيم المجرى الذي يمر منه الجنين ليتمكن من اجتياز هذا المجرى المتلوث بانواع الميكروبات عادة فيخرج الى الدنيا سالماً ، في منتهى الأمن والراحة^(١) .

ومما يستحق الاهتمام ان القرآن الكريم عندما يريد أن يفصح عن سلسلة المراحل التكاملية للجنين يقول في الآية (١٤) من سورة المؤمنين : ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً * فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ * فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ .

ومن طريف القول هو ما اثبتته علم الاجنة حالياً بأن الجنين عندما يطوي مرحلة كونه علقه ومضغة ، تتبدل كل خلاياه الى خلايا عظمية ، ثم تغطيها العضلات واللحم بالتدرج (وقد أثبت ذلك الافلام الدقيقة الباهضة التكاليف التي أخذت لكل المراحل الجنينية) .

وهذا هو ما جاءت به الآية السابقة بدقة اذ تقول : ﴿فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ ، وهذه هي احدى المعجزات العلمية للقرآن الكريم ، ذلك انه لم يكن في ذلك الزمن ما يسمى بعلم «الأجنة» ، وعلى الخصوص في محيط جزيرة العرب الذي لم يتوفر فيه الاطلاع عن بابسط المسائل العلمية^(٢) .



١ - تفسير المراغي جلد ١٨ ص ١١ .

٢ - اشار سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) ج ٦ ص ١٦ الى ذلك . وقد شاهدنا ذلك اخيراً في فيلم وثائقي عجيب عن المراحل التكاملية للنمو الجنيني .

١١- القرآن يتحدث عن الآثار المهمة للغلاف الجوي للأرض

نقرأ في الآية (٣٢) من سورة الانبياء قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

لقد أبدى المفسرون القدماء وجهات نظر مختلفة في صدد بيان حقيقة السقف السماوي المحفوظ ، فتارة يذهبون الى : انه محفوظ من نفوذ الشياطين ، وتارة يقولون : انه محفوظ من السقوط على الأرض ، وتارة ثالثة : انه محفوظ من الانهدام بالرغم من تقادم الزمن^(١).

ان السر وراء هذه التفاسير المبهمة هو عدم اطلاع البشر على السماء اطلاعاً دقيقاً في ذلك العصر.

وعندما وجد علم الهيئة الجديد أثبت أن الكواكب باجمعها تسبح في الفضاء اللامتناهي ، وانه لا يوجد سقف اساساً. اصبح مفهوم هذه الآية اكثر تعقيداً بالنسبة لبعض المفسرين ، حتى لجأ الى القول : ان معناها هو أن السماء كالسقف المحفوظ الذي يحول دون حدوث اي اختلال في نظام الوجود.

وعلى هذا الاساس صار المتبادر من معنى السقف هو المعنى المجازي والذي جاء بصورة التشبيه والكناية .

الآن العلم البشري لم يزل يواصل تقدمه نحو الامام ، واصبح مفهوم هذه الآية اكثر وضوحاً نظراً الى ما حصل عليه العلماء من معلومات جديدة عن طبقات الغلاف الجوي ، فثبت أنه يوجد سقف محفوظ بمعناه الحقيقي .

توضيح ذلك : انه توجد طبقة عظيمة للهواء تحيط بالأرض من كل اطرافها تسمى «الغلاف الجوي» يصل سمكها مئات الكيلو مترات ونظراً لضخامة هذه الطبقة

١- مجمع البيان ج ٧ ص ٤٦ والتفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢٢ ص ١٦٥ وتفسير اخرى.

الشفافة ظاهراً والمتكونة من الهواء ، بعض الغازات الاخرى ، نجدها على جانب كبير من القوة والمقاومة يقدرها بعض العلماء بمقاومة سقف فولاذي سمكه عشرة أمتار، تُصان به الكرة الارضية من الوان المخاطر.

فمن جهة يقف سداً منيعاً امام هطول القذائف المستمرة -ليلاً ونهاراً- للاحجار (الشهب) المنجذبة نحو الارض بسرعة هائلة وتشكل خطراً كبيراً فيما لو اصطدمت باحدى الاماكن .

وتتضح اهمية هذه المسألة اكثر من خلال النظر الى ما قاله العلماء : ان ملايين من هذه الشهب تتجه نحو الارض في كل يوم وليلة ، وعندما تجابه هذه الاحجار السريعة بمقاومة الغلاف الجوي تعثرها الحرارة فتحترق وتشتعل متحولة الى رماد ، يحط على الارض رويداً رويداً احياناً يكون هذه الاحجار كبيرة جداً فتجتاز الغلاف الجوي (بعد أن يحترق جزء منها) فتصيب نقطة من الكرة الارضية ، وتحدث اضراراً مخيفة ، سُجلت نماذج لها في التاريخ ، ولعله انذار موجه الى الغافلين بأن الله تعالى لو لم يخلق هذا السقف المحفوظ ، لتعرضتكم باجمعكم الى هذا القصف الخطير ، ولما كان للهدوء والاستقرار معنى في حياتكم .

ومن جهة اخرى نعلم أن الشمس تنبعث منها أشعة تدعى بالاشعة فوق البنفسجية (تلك الاشعة هي نفسها التي تقع فوق اللون البنفسجي عندما يتحلل ضوء الشمس ولا تشاهد بالعين المجردة) والمقدار القليل منها مفيد ونافع جداً ، فضلاً عن انه لا يلحق الضرر بأحد ، وبالاخص إنَّ له دوراً كبيراً في قتل الميكروبات ، إلا اذا ازداد وكثر فانه يحرق البدن بدون ان يشعر الانسان بالحرارة ، (ان السبب وراء الحروق التي تصيب جلد الرأس والوجه والبدن في المناطق القريبة من خط الاستواء في فصل الصيف هو ان الشمس تسطع بصورة عمودية وتجتاز طبقة قليلة من الهواء ، فلا تحظى بقدر كافٍ من التصفية) لو لم يوجد هذا (السقف المحفوظ) وهو «الغلاف الجوي» لم يستطع اي انسان ان يقاوم الشمس ولو لحظة واحدة .

من جهة ثالثة ان الاشعاعات المميتة المسماة بـ (الاشعة الكونية) تتجه بسرعة نحو الارض مما وراء المنظومة الشمسية فيقف جزءاً من الغلاف الجوي ويسمى بـ «طبقة الاوزون»^(١) مانعاً من نفوذ هذه الاشعة القاتلة وتقاومها كالسقف المحفوظ .
اخيراً برزت مخاوف كثيرة للعلماء على اثر الثقب الذي حدث في طبقة الاوزون بسبب تصاعد الغازات الضارة من بعض اجزاء السيارات في الهواء والحاقتها الضرر بتلك الطبقة هذه المخاوف ظهرت بصورة جدية بحيث أخذ رجال الدول والعلماء يفكرون في وضع مقررات دولية تمنع حدوث هذه الاضرار .
هذا ما توصلنا اليه حالياً من التعرف على الاثار المعجبية لهذا (السقف المحفوظ) ، اي الطبقات العظيمة للهواء ومن الممكن الكشف عن حقائق أهم وأكثر في هذا المضمار مستقبلاً .

وقد يخطر الى الذهن هذا السؤال وهو هل يمكن اطلاق اسم «الغلاف الجوي» على السماء فتصدق عليه ؟ وهل السماء الا الكواكب السماوية والمنظومات والمجرات ؟

في الجواب على هذا السؤال نقول : ان القرآن الكريم هو الذي اطلق مراراً هذه الكلمة على الغلاف الجوي ومن جملة ذلك ما نقرأه في الآية (٢٢) من سورة البقرة قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾^(٢) ،
ويتجلى بوضوح نموذج آخر لهذا المعنى في الآية (٧٩) من سورة النحل حيث يقول عز من قائل : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَنِّ السَّمَاءِ﴾ .



١ - الاوزون : غاز أزرق اللون ذو رائحة نفاذة ويعد اخطر من غاز الاوكسجين . ويتكون عند التفريغ الكهربائي للاوكسجين ، ويستعمل لاغراض الصباغة وتصفية الماء والهواء .

٢ - وورد نظير هذا المعنى في كل من الآية (١٦٤) من سورة البقرة ، و(٩٩) من سورة الانعام ، و(٩٦) من سورة الاعراف ، و(٢٤) من سورة يونس ، و(٤٤) من سورة هود ، و(١٧) من سورة الرعد وآيات اخرى متعددة .

١٢- القرآن والغلاف الجوي للأرض أيضاً

نقرأ في الآية (١٢٥) من سورة الانعام قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ماهي العلاقة القائمة بين الصعود إلى السماء وضيق الصدر؟
وهو سؤال لم يجد له المفسرون الاوائل جواباً دقيقاً.

قال كثير منهم: ان المقصود من ذلك هو كما أن الصعود إلى السماء أمر عسير او محال كذلك تحصيل الايمان بالنسبة إلى الكفار المعاندين والجهلاء المتعصبين^(١).
في حين ان الاعمال الشاقة والمستحيلة كثيرة على وجه الارض فليس هناك مبرر للتشبيه، اضافة إلى ان هذا التفسير بحاجة إلى تقدير: وهو ان الايمان يشابه الصعود إلى السماء، في حين ان القرآن يقول: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

وقالوا في بعض المواضع: شبه الله الكافر في نفوره من الايمان وثقله عليه بمنزلة من تكلف مالا يطيقه، كما ان صعود السماء لا يطاق^(٢)، ولا يخفى عدم تناسب هذا التفسير مع محتوى الآية ايضاً.

أما بالنظر إلى الاكتشافات الأخيرة فإن للآية المتقدمة تفسيراً آخر يناسب هذا المعنى من كل الجهات وهو:

لقد ثبت اليوم ان الهواء المحيط باطراف الكرة الارضية مضغوط بصورة كاملة في الاماكن المجاورة لسطح الارض ويلائم تنفس الانسان ويناسبه، لأنه يحتوي

١- مجمع البيان، روح البيان، تفسير القرطبي و... ذيل الآية المذكورة.

٢- روح البيان ج ٣ ص ١.

على الاوكسجين الكافي ، وكلما ابتعدنا عن سطح الارض اصبح الهواء اقل كثافة فيغدو التنفس شاقاً جداً على ارتفاع عشرة كيلو مترات عن سطح الارض بدون استخدام الانسان نقاب الاوكسجين ، ويصاب بحالة من الضيق الحاد في التنفس ، وكلما ارتفع الى الاعلى اكثر ، ازدادت حدة الضيق في تنفسه حتى يصل الى الوقت الذي يغمى عليه لقلة الاوكسجين .

إذاً توجد هناك علاقة وثيقة بين ضيق التنفس والصعود الى السماء ، ولم تتبلور هذه الحقيقة في ذهن اي شخص في ذلك العصر^(١) . بيد أنها قد تبلورت في اذهان الجميع في يومنا هذا ، فقد سبق لنا ان سمعنا هذا الحديث من مضيفي الطائرة عدة مرات اثناء سفرنا بها ، بأن الهواء الموجود داخلها ينظم بجهاز خاص ، فاذا حدث خلل فيه ، فحينئذ ينبغي الاستفادة من نقاب الاوكسجين ، لتستغل الطائرة سرعتها وتصل الى الطبقات السفلى للجو الاكثر ضغطاً .

كما أن العلاقة بين هذا المعنى وبين تفسير الآية واضحة جلية .

وهي في الواقع تشبيه المعقول بالمحسوس ، فقد شبه الجمود الفكري والتعصب واللجاجة وقصر نظر الضالين المعاندين في اعتناقهم للاسلام ، بضيق التنفس الناجم عن قلة حصول الاوكسجين بالنسبة للشخص الذي يصعد الى السماء .

ونُهي هذا البحث بمقولة للمراغي في تفسيره هذه الآية ، اذ يقول (سُبْحَانَكَ رَبِّي نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر ، ولم يفقه معرفة كنهها الا بعد أن مضى على نزولها نحو أربعة عشر قرناً ، وتقدم فن الطيران ، الآن علم الطيارون بالتجربة صدق ما جاء في كتابك ، ودل على صحة ما ثبت في علم الطبيعة من

١ - يصاب الانسان احيانا بضيق في التنفس عند تسلق الجبال ، هذا صحيح ومعروف منذ الايام السالفة ، ويحصل نتيجة للجهد البدني الشديد ويشاهد في حالة الركض على الارض المستوية ايضا . غير أن القرآن يقول : ان ضيق التنفس يسببه الصعود الى السماء لا الجهد البدني الشديد .

اعجاز القرآن على صعيد العلوم الحديثة..... ١٥٩

اختلاف الضغط الجوي في مختلف طبقات الهواء ، وقد عُلِمَ الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة من الطبقات التي هي أسفل منها ، وأنه كلما صعد الانسان الى طبقة أعلى شعر بالحاجة الى الهواء وبضيق في التنفس نتيجة لقلة الهواء الذي يحتاج اليه ، حتى لقد يحتاجون أحياناً الى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير في تلك الطبقات ، وهذه الآيات وامثالها لم يستطع العلماء ان يفسروها تفسيراً جلياً لأنهم لم يهتدوا لسرها ، وجاء الكشف الحديث وتقدم العلوم فامكن شرح مفزاها وبيان المراد منها بحسب ما أثبتته العلم ، ومن هذا صح قولهم ، «الدين والعلم صنوان لا عدوان» ، وهكذا كلما تقدم العلم أرشد الى ايضاح قضايا خفي أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين^(١).



١٣ - القرآن واسباب نزول المطر والبرد

نقرأ في الآية (٤٣) من سورة النور قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ» .

في هذه الآية تعابير مختلفة ، لم تتوضح معانيها بدقة في الماضي .
«يزجي» مأخوذة من مادة (ازجاء) ومعناها في الاصل هو الدفع او التحريك الملائم الهاديء .

يقول الراغب في المفردات : «التزجية» معناها هو التحريك على سبيل الترتب والتسلسل .

واستعمل القرآن الكريم هذه الكلمة لحركة السفن على اثر هبوب الرياح في البحر^(١).

«الركام» (على وزن غلام) وهي تعني الاشياء المتراكمة فوق بعضها.

«وَذِقْ» (على وزن شَرِقْ)، وهي حسب رأي بعض من المفسرين بمعنى قطرات المطر، وحسب رأي بعضهم الآخر بمعنى البرق.

«التَّبَرْدُ» (على وزن سَبَدَ) وهو القطع المتجمدة للمطر، وهي في الاصل مأخوذة من مادة بَرَدَ (على وزن سَرَدَ) وهي البرودة. ولأن قطع البرد ذات طبيعة باردة وتبعث على برودة الارض ايضاً اطلقت هذه الكلمة عليها^(٢).

«جِبَالٍ» جمع جَبَلٍ، جاء في (معجم مقاييس اللغة) هو بمعنى تجمع الشيء مصحوباً بالارتفاع وورد هذا المعنى في (التحقيق) ايضاً وعليه فالجبل لا يراد منه جبال الحصى والرمال فحسب، بل ان كل مرتفع متراكم ومخزون يقال له في لغة العرب: جبل.

واستناداً الى ما قيل في هذا المجال نعود الى الآية الآتفة الذكر: «وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ».

لم يدرك احد في ذلك العصر بدقة أنّ السحب في السماء على هيئة جبال بارتفاعات متفاوتة نشاهد قاعدتها غالباً. لاننا نراها بصورة لوحة واسعة في السماء، لكن عندما نحلق بالطائرة الى أعلى السحب، نشاهدها جبلاً وودياناً ومرتفعات ومنخفضات، كما نشاهد ذلك على سطح الارض وبعبارة اخرى: إن السطح الاعلى للسحب غير مستوٍ وعلى غرار سطح الارض يحتوي على تضاريس كثيرة، وفي كثير من الاحيان يكون متراكماً على هيئة جبل.

١- سورة الاسراء، الآية ٦٦.

٢- جاء في كتاب (التحقيق): «البرودة في الماء أن يبرد الى أن يصل حد الانجماد فيقال له البرد».

ومن أجل ان يتضح مفهوم الجبال في الآية اكثر يمكن ان نضيف النكته الدقيقة والتي ثبتت نتيجة لتطور العلوم وازدهارها وهي :

ذكر أحد العلماء في تحليله الشخصي ما خلاصته : ان السحب المرتفعة عُبر عنها بجبال الثلج ، في الآية التي وقعت مورداً للبحث ؛ لأن العلماء في تحليلاتهم الجوية اصطدموا بسحب متكونة من إبرٍ ثلجية ، يصدق عليها عنوان (جبال من الثلج) واقعاً، ومن الغريب هو ما ذكره بصددها احد العلماء الروس اثناء شرحه لبعض (السحب المحملة بالامطار) بأنها جبال من الثلج ، أو جبال من السحب .

هذا كله من جهة ومن جهة اخرى ذهب علماء معاصرون في صدد كيفية نشوء البرد في السماء الى القول : بأن قطرات المطر تنفصل عن السحاب وتضطرم بالمناطق العليا الباردة للجو وتنجمد ، ولكونها صغيرة جداً تقذفها الى الاعلى من جديد تيارات هوائية شديدة مسلطة على تلك المنطقتين فتنفذ تلك الحبيبات داخل السحب مرة اخرى لتستقر مقابلها صفحة جديدة من الماء ، تنجمد مرة ثانية حينما تنفصل عن السحاب ، ويحدث احياناً ان يتكرر هذا الأمر عدة مرات حتى يصبح حجم البرد كبيراً ، ولا تقوى التيارات الهوائية على دفعه الى الأعلى او أن تهدأ تلك التيارات بصورة مؤقتة ، فحينئذ يشق طريقته الى الارض ويستط باتجاهها بدون اي مانع ، ويحدث ان يكون كبيراً ثقيلاً في بعض الاحيان فيلحق اضراراً بالمزارع والبساتين والحيوانات وحتى افراد البشر ايضاً .

من هنا يتبين ان وجود برد كبير الحجم ثقیل الوزن ممكن عندما تتراكم الحبيبات المنجمدة فوق قمم السحب الجبلية الى أن تظهر رياح شديدة فتقذفها وسط السحب ، وتجمع مقداراً اكثر من الماء ، فتصبح ثقيلة الوزن .

وعلى هذا الاساس تعتبر السحب الجبلية منبعاً مهماً لتكوّن برد كبير الحجم ، سبقت الاشارة اليه في الآية .

وتتضح المسألة أكثر فيما لو قلنا: ان هذه الجبال هي الاكوام المتكونة من الذرات الثلجية نفسها^(١).

والسؤال الوحيد الذي يبقى هنا هو: لماذا وجه القرآن الكريم الخطاب الى النبي ﷺ بقوله: (أَلَمْ تَرَ) في حين اننا نعلم ان هذه المسألة لا تقبل الرؤية على الاطلاق، وانما تمكن ملاحظاتها في عصرنا فقط من خلال التحليق بالطائرة؟ والجواب على هذا السؤال واضح، ذلك أن (أَلَمْ تَرَ) والجمل المشابهة لها يراد منها (أَلَمْ تَعْلَمْ)، ولهذا يقول القرآن مخاطباً النبي ﷺ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(٢)، بالرغم من ولادته ﷺ في عام النبل (العام الذي هجم فيه ابرهة على مكة) وعدم حضوره تلك الواقعة.



١٤ - القرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر

ورد الحديث عن الرعد والبرق في القرآن الكريم مراراً ثم وردت الاشارة الى تساقط الامطار بعد ذلك مباشرة.

نقرأ قوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

١ - ذهب المفسرون في تفسير: (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) الى قولين ينبثقان من سياق تركيب الآية؛ الاول: ان الجار والمجرور في «من برد» متعلق بينزل وهي في حكم المفعول فيصبح معنى الآية: ان الله ينزل حبات البرد من جبال في السماء (وهنا ذكرت الجبال بصورة مطلقة). والثاني: ان الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف يقع صفة لـ «جبال» فيصبح معنى الآية بناء على ذلك: ان الله ينزل برداً من جبال الثلج التي في السماء (وهنا يكون مفعول ينزل محذوفاً ويفهم من سياق الكلام).

وكلا التفسيرين يوضح الاعجاز العلمي للقرآن وفقاً لما ذكرناه سابقاً. لان قولاً تضمن ذكر جبال من الثلج، وقولاً آخر تضمن جبال السحاب، وكلاهما لم يكن معروفاً في زمانه.

٢ - سورة الفيل: الآية ١.

اعجاز القرآن على صعيد العلوم الحديثة ١٦٣

ونقرأ في الآية (١٢) من سورة الرعد: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.

وفي الماضي لم يكن احد يعرف بدقة منشأ (الرعد) و (البرق)، ولذا كان كل شخص يخلق لنفسه فرضية معينة، ويضفي عليها أحياناً طابع الاساطير والخرافات، أما اليوم فقد أصبح مسلماً أن حدوث الرعد والبرق يرتبط بالتفريغ الكهربائي بين سحابتين لهما شحنتان كهربائيتان مختلفتان (احدهما موجبة والآخرى سالبة).

وفي الواقع مثلما يتصل سلكان كهربائيان احدهما بالآخر فتحدث شرارة كهربائية تصحبها الصوت والحرارة معاً، كذلك يحدث هذا الأمر بين السحب. (فالبرق) هو الشرارة الكهربائية الهائلة و(الرعد) هو صوت تلك الشرارة.

وقد يحدث هذا التفريغ الكهربائي بين قطع السحاب التي لها شحنات كهربائية موجبة وبين الارض ولها شحنة كهربائية سالبة عادة. فتتدفق شرارة نارية الى سطحها يطلقون عليها اسم (الصاعقة) والتي تسبب الحرائق الكبيرة في الصحاري والغابات وحتى في المباني والعمارات في بعض الاحيان.

ويمكنها أن تحول قطعاً كبيراً من الغنم الى رماد في لحظة واحدة واذا ما ضربت جبلاً ما فسوف يتلاشى وينهار، او اذا اصاب سطح البحر قضت على كل ذي روح يعيش في ذلك الموضع منه؛ ويُعزى ذلك كله الى أن الحرارة الناجمة من تلك الشرارة النارية هائلة جداً، (تصل الى حدود خمسة عشر الف سانتيجراد، أي ضعف حرارة سطح الشمس تقريباً)، فتحيل كل الاشياء الى دخان ورماد.

واذا ما كان البرق والرعد من المظاهر المرعبة لعالم الطبيعة الا أنهما بالرغم من ذلك يشتملان على فوائد ومعطيات كثيرة ايضاً.

فمن احدئ اثارهما المهمة هي نزول الامطار الغزيرة، وذلك لان الحرارة المتولدة من البرق، تُسخن متادير كثيرة من الهواء المحيط بها، فيقل ضغطه، ومن

المعلوم أن السحب ستفرغ ما فيها من امطار على أثر قلة الضغط . ولهذا السبب ستظهر امطار غزيرة بعد حصول الرعد والبرق .

ومما يجدر ذكره : عندما تقترب السحب المتراكمة من الارض لتظللها ويصبح الجو مظلماً ، ويسمع صوت الرعد المخيف وتترأى انوار البرق ، في الوقت ذاته تؤثر العواصف العاتية على السحب فتجعلها محملة لقطرات كبيرة غزيرة وتؤدي الى تزايد وزنها^(١) ، وهذا هو عين ما قرأناه في الآيات السابقة التي تحدثت عن السحب الثقيلة بعد أن اشارت الى مسألة البرق ، اضافة الى أن الحرارة الشديدة للبرق تؤدي الى ان تتركب قطرات المطر من مقادير اكثر من الاوكسجين ، فينتج من ذلك ماء مؤكسد ويسمونه بالماء الثقيل ايضاً (H_2O_2) .

ولهذا الماء الثقيل تأثير كبير في القضاء على كثير من الميكروبات والآفات النباتية ، ولذا ذهب العلماء الى القول بتكاثر الآفات النباتية في السنة التي يقل فيها الرعد والبرق (وهذا تفسير آخر في صدد السحب الثقيلة) .

واضافة الى ذلك فإن قطرات المطر الممتزجة بكاربون الجو وبواسطة الحرارة الشديدة للبرق ، تنتج حامض الكربونيك الذي ينتشر على الارض ويتفاعل مع مواد اخرى لينتج مركبات تعد من افضل الاسمدة لنمو الاعشاب ، حتى ذهب العلماء الى القول : ان مقدار الاسمدة الناشئة من الرعد والبرق في الكرة الارضية تصل الى حدود العشرة ملايين طن في جميع انحاء الكرة الارضية ، وهو رقم كبير جداً .

وتتوضح عظمة القرآن العلمية بالمتارنة بين هذه الاكتشافات والآيات الأنفة الذكر ، خصوصاً اذا أخذ بنظر الاعتبار عدم وجود ادنى أثر لهذه العلوم في ذلك العصر وفي بيئة الجزيرة العربية .



١٥ - القرآن واسلوب تحديده لهوية الانسان

نقرأ في الآية (٣) و (٤) من سورة القيامة قوله عز من قائل : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ .

جاء في الروايات ، ان احد مشركي العرب ويدعى (عدي بن ربيعة) وكان رجلاً معانداً ومتعصباً جداً، اتى الى النبي ﷺ وسأله عن يوم القيامة وكيفية وزمان تحققه ، وقال : انني لا اصدقك ولا أومن بك وان رأيت ذلك اليوم بأُم عيني ، كيف يمكن التصديق بان الله تعالى يجمع هذه العظام النخرة ، هذا ممالا يقبل التصديق فنزلت الآية (١) .

(بنان) في اللغة بمعنى الاصابع ، وقد ورد احياناً (بمعنى رؤوس الاصابع) ، وهو مأخوذ من مادة (بَنَ) بمعنى الاقامة .

وبناءً على كون الاصابع ، اداة لاصلاح احوال اقامة الانسان في العالم ، اطلق عليه هذا الاسم (٢) .

ان للاصابع دوراً مهماً جداً في حياة الانسان ، وتعد من عجائب الخلقة ، وإن غفلنا عن اسرارها . لانها تحت تصرفنا دائماً ، ولو قطعت اصابع يد أحد ما ، فإنه سوف لا يستطيع ان ينجز عملاً دقيقاً باي شكل من الاشكال ، وستستحيل عليه الكتابة ، وتصفح اوراق الكتاب ، وتناول الطعام بسهولة ، والاتصال بالهاتف ، وفتح الابواب بالمفاتيح وانواع الصناعات الدقيقة وتستحيل عليه بقية الصناعات الاخرى كاتواع الاعمال المتعلقة بالسيارات ، وحتى أخذ الاشياء الثقيلة باليد أيضاً . بل ويمكن لنقص احد الاصابع ان يوجه ضربة عنيفة لكثير من الاعمال اليومية التي

١ - التفسير الكبير: ج ٣، ص ٢١٧، والقرطبي: ج ١٠، ص ٦٨٨٥.

٢ - المفردات للراغب، ومجمع البحرين ومعجم مقاييس اللغة مادة بن .

يقوم بها الانسان . ولهذا السبب تنجز الحيوانات ذوات الاربع كثيراً من اعمالها بفمها أو رأسها .

ويمكن القول بعبارة اخرى : ان وجود الاصابع لدى الانسان يعتبر من العوامل المهمة للتقدم الحضاري له ، والتعبير بـ «البنان» المأخوذ من مادة الاقامة والدوام ، اشارة لطيفة الى هذه الحقيقة نفسها ، وذلك لصعوبة وجوده في العالم بدونها .
تقول الآية الآتفة الذكر ان بإمكاننا ان نعيد العظام الصغيرة الدقيقة في يوم القيامة ايضاً فضلاً عن العظام الكبيرة .

واحتمل جماعة من المفسرين ايضاً ان المقصود من تسوية البنان هو وصالها مع بعضها واخراجها بصورة حافر حيوان من ذوات الاربع وليس لهذا التفسير تناسب مع آيات السورة .

من الامور التي يمكن استفادتها من هذه الآية هو هذا الاكتشاف المهم ، فقد اصبح من الثابت ان معرفة هوية أحد ما يتم بوسيلة رؤوس اصابعه . وهي اوثق وادق من كل امضاء ولايستطيع أحد تزويره ، في حين أن التزوير قادر على التسرب الى اعقد الامضاءات ، ولهذا السبب أصبحت مسألة «أخذ البصمات» من الحقائق العلمية في عصرنا الحاضر واستحدثت لأجلها دائرة خاصة في المراكز الامنية ، من خلالها يكشف النقاب عن كثير من المجرمين ، فيكفي ان يضع احد السراق يده على مقبض الباب ، أو زجاج الغرفة ، أو على القفل والصندوق والكرسي عند دخوله لاحد الغرف أو المنازل ومن ثم يبقى اثرها على تلك الاشياء ، أو يتم العثور على سلاح في قضية قتل عليه بصمات احد الاشخاص ، يكفي لاخذ نماذج فورية لها ويطابقونها على بصمات الاشخاص المشكوك بهم في تلك الحادثة ، - اضافة لما لديهم من معلومات عن المجرمين والسراق - ومن ثم يلتون القبض على الجاني .

إذا تقول الآية بناءً على هذا التفسير : اننا لسنا قادرين على ان نجمع العظام

اعجاز القرآن على صعيد العلوم الحديثة..... ١٦٧

الكبيرة والصغيرة فحسب ، بل ان في مقدورنا ايضاً أن نعيد الاصابع وبصماتها بجميع مزاياها ، التي هي من أدق ما في البدن من خصوصيات الى حالتها الاولى .
وبعبارة اخرى ان مفهوم تسوية البنان (ومعناها التنظيم والترتيب) ، شامل لجميع الخصوصيات والجزئيات ، من جملتها بصمات الاصابع .

ومن الجدير بالذكر هو ما نجده من توافق بين هذا المعنى وبين مسألة القيامة ، المحكمة الكبرى للعدل الالهي ، التي يجب التحقيق فيها مع المجرمين والمذنبين ، ذلك أن هذه المسألة يستناد منها ايضاً في محاكم الدنيا ، قبل اي مكان آخر .



١٦ - القرآن يكشف الستار عن عظمة خلق السماوات

نقرأ في الآية (٥٧) من سورة المؤمن قوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

صحيح أن اغلب المفسرين اعتبر هذه الآية رداً على جدال المشركين في (المعاد)^(١) ، أي انكم تشكون في بعث الانسان من جديد ، في حين ان خلق الانسان ليس بأعظم من خلق السماوات ، بل ان خلق السماوات والارض أهم من ذلك وأعظم . بيد ان جملة (ولكن اكثر الناس لا يعلمون) هي اشارة الى حقيقة ان عظمة السماوات كانت مجهولة لدى معظم الناس سابقاً .

وبالرغم مما اكتشفه العلم الحديث من اسرار عظيمة ومهمة جداً عن وجود البشر لم يكن واحد من الالف منه معروفاً في العصور السابقة ، إلا ان الاكتشافات التي تحققت بصدد عظمة السماوات ، تدل على أن خلقها والارض يفوق بمراتب

١ - تفسير مجمع البيان ، العاصي ، الفخر الرازي ، الكشاف ، روح المعاني وروح البيان .

خلق البشرية بكل ما تنطوي عليه من عجائب .

ان آخر ما توصل اليه العلماء بصدد السماوات وبالاخص المجرات يقول إنه قد اكتشف الى اليوم اكثر من مليار مجرة بواسطة المراصد الفلكية الكبيرة . ومنظومتنا الشمسية ما هي إلا جزء ضئيل من احدى المجرات التي تسمى بـ «درب التبانة» ، ففي مجرتنا فقط اكثر من مائة مليار كوكب والشمس بعظمتها هي احدى النجوم المتوسطة في هذا الجيش الجزار للنجوم .

الفضاء واسع جداً بحيث ان سبر اغواره يستحيل بالمركبات الفضائية البشرية فحسب ، بل اننا لو ركبنا ذرات الضوء - التي تسير بسرعة فائقة تصل الى ثلاثمائة الف كيلو متر في الثانية الواحدة - لاستغرقت رحلتنا هذه مليارات السنين الضوئية ايضاً حتى يمكننا ان نقطع المساحة المكتشفة في هذا العالم .

وكلما كان حجم المراصد الفلكية اكبر وادق ، كلما كشفت لنا الحجب عن عوالم جديدة أخرى .

بالرغم من ذلك فانه لا يعلم اية عوالم وراء مانعرفه ونشاهده . ولعل ما اكتشف باكبر المراصد هو زاوية صغيرة وتافهة من هذا العالم العريض .

حسب قول احد العلماء : ان كل هذا العالم الواسع الذي نشاهده ليس إلا ذرة صغيرة ، وجزء لا حدود له من عالم اكثر عظمة^(١) .

ومن هنا نقف على عمق الآية الأنفة الذكر التي تقول : ﴿لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ .

ونتساءل ألا يُعدُّ بيان مثل هذه الامور من قبل فرد أمي في عصر نزول القرآن وفي بقعة من أكثر بقاع العالم تأخراً ، معجزة ؟

اعجاز القرآن على صعيد العلوم الحديثة.....١٦٩

وبهذا النحو نصل الى نهاية بحث الاعجاز العلمي للقرآن ، وان كانت لا تزال هناك ملاحظات كثيرة لم نتطرق اليها .

ونعتقد أن البحث في النماذج الستة عشر السابقة اثبت بشكل منصف ولكل انسان واع حقيقة استحالة أن يكون هذا الكتاب العظيم أي القرآن من صنع عقل البشر .



٤- الإعجاز القرآني من
الناحية التاريخية

٤- الاعجاز القرآني من الناحية التاريخية

دور التاريخ في المسائل التربوية

مما لا يقبل الشك أن القرآن ليس كتاباً تاريخياً، لكنه يضم بحوثاً تاريخية متنوعة لاسباب مختلفة، ذلك أن المسائل التربوية وبالاخص الاجتماعية لا يمكنها ان تنفصل عن المباحث المرتبطة بـ (تاريخ القدماء) لأن التاريخ من اكبر معلمي الحياة وهو معيار جيد لتحديد وتبيين مزايا وخصائص المبادئ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفصل الحقائق عن الاوهام والمثاليات عن ما يناقضها.

إنَّ الخلافة الكبرى للتاريخ تتمثل باظهارها المسائل الفكرية والعقلانية في قالب محسوس تؤدي خدمة كبيرة لفهم المسائل الانسانية بصورة صحيحة فمن جملة المسائل التي تُستنبط من التاريخ : الى اين تؤول عاقبة الظلم والجور والاستبداد، وماهي نتيجة الاختلاف والتشردم، وماهي خاتمة التعصب والعناد والانانية، عدم الاعتناء بالحقائق الواقعية ؟

ولهذا السبب يمكن القول : إن التاريخ هو ماء الحياة الذي يمد الانسان بالعمر الطويل، فمن خلال مطالعة تاريخ القدماء تستحصل من صفحات مركزة عصارة آلاف السنين من التجارب الانسانية وتوضع بين يدي جيل الحاضر والمستقبل.

واشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة المهمة بجملة مختصرة إذ يقول :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ حِكْمَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

والجدير بالذكر هنا أن القرآن بين هذا المفهوم بعد قصة النبي يوسف ٧ المليئة بالحوادث والعبر التي يستفاد منها

في الأبعاد المختلفة للمسائل التربوية.

وفي موضع آخر يعتبر القرآن قصص وتاريخ القدماء وسيلة لابتفاظ الأفكار والعقول فيقول : ﴿فَأَقْصَصْ

الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

وفي آيات أخرى بعد تاريخ الأنبياء الأوائل وسيلة ناجحة لاثبت قلب) نبي الاسلام ﷺ ونفوية ارادته

ولتوعية المؤمنين وابتفاظهم ، فيقول عز من قائل : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ

فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

ويقول تعالى في صدد التعريف بقصة نوح : ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ

مُذَكِّرٍ﴾^(٤) ، يذكر الآثار المتبقية للقدماء بتعبير حي جميل ، فيقول : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي

الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ

وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٥).

وعلى هذا ، فالاحداث التاريخية المفصلة والآثار التاريخية الغابرة للقدماء

تساهم في إنارة البصائر وتفتح آفاق جديدة رحبة .

ومن خلال هذه الإشارة الى فلسفة تاريخ القدماء نعود الى القرآن مرة ثانية لنلقي

نظرة على الاعجاز التاريخي للقرآن .



١ - سورة يوسف : الآية ١١١ .

٢ - سورة الاعراف : الآية ١٧٦ .

٣ - سورة هود : الآية ١٢٠ .

٤ - سورة القمر : الآية ١٥ .

٥ - سورة الحج : الآية ٤٦ .

الخطوط العريضة للتاريخ في القرآن

سبق القول الى أنّ مقطعاً مهماً من المباحث التربوية والمواعظ والنصائح والبشائر والنذر والعهود والآمال القرآنية بُيِّنَتْ بصفاتها مسائل تاريخية شيقة معبرة ومؤثرة تجذب السامع تلقائياً نحو الاهداف العليا، ولايستطاع الوقوف على عظمة البحوث التاريخية المعجزة في القرآن مالم يُطالع بدقة سورة يوسف، والانبياء، وطه، والتقصص، ومريم، وآل عمران، وامثالها.

تنطوي البحوث التاريخية على الخصوصيات الاساسية التالية :

١ - الاستناد الى المقاطع الحساسة والتقاء نظرة فاحصة ونافذة على المسائل التربوية المهمة.

٢ - خلوها من أي شكل من اشكال الزوائد والاضافات.

٣ - خلوها من حالات التضاد والتناقض وعدم الترابط والانسجام.

٤ - خلافاً لاسلوب كتابة التاريخ المتعارف عليه في ذلك الزمان (وحتى في القرون التي تلتها)، حيث طرح التاريخ فيها كمادة مسلية، ووسيلة للاطلاع على اوضاع الماضين، فلم يشتمل على اية نظرة فاحصة محللة تشكل فلسفة التاريخ والدروس والعبر المستلهمة من حياة القدماء.

بينما اهتم القرآن المجيد في تواريخه بأصول المسائل وبظواهرها ايضا بشكل يبعث حب الاطلاع في نفس القارئ والمتلقي ويحفز ذهنهما على التفكير الدقيق في الحوادث.

ومن الجدير بالذكر: انه يحذف الحوادث النافهة التي لا هدف لها سوى اطالة الكلام واتلاف الوقت من كل اياته.

٥ - أولى القرآن اهتماماً بالغاً وبشكل دقيق الى فصل الحقائق التاريخية عن

الاساطير، وهي من المسائل المعقدة احياناً، لان هناك عوامل مزجت التاريخ بالاساطير الكاذبة دائماً من جملتها: الترفيه وارضاء العواطف الطفولية، ادارة الخيال وايجاد الروابط المفتعلة، بحيث يمكن القول: إن الاساطير والخرافات تستأثر بمقطع مهم من تواريخ القدماء وتشكل احدا اركانها الاساسية.

فبناءً على ذلك لو فرضنا انفسنا في زمن نزول القرآن واجواء حياة نبي الاسلام ﷺ لشاهدنا مدى امتزاج تواريخ ذلك الزمان بخرافات. تتناقل على الألسنة وتعد في قائمة المسلمات بحيث لا يستطيع المتعلمون الفصل بينهما، فضلاً عن احد الأميين.

وقد كان علماء ذلك العصر من الربانيين و (احبار) اليهود والنصارى ومشركي العرب يدافعون عن هذه الاساطير والخرافات ومن الطبيعي ان من يعيش في مثل تلك البيئة ويصل سنه الى الاربعين تنسج افكاره بهذه الاساطير والخرافات ويستحيل الفصل بينها عادة ترى هل يستطيع أحد ان يطهر التاريخ في تلك البيئة المظلمة ويفصل الحقائق عن الاوهام والخرافات؟ إن احداً من المحققين، والمطلعين على التاريخ في يومنا هذا لا يتمكن من القيام بمثل هذا العمل إلا بشق الانفس، فكيف يمكن توقع ذلك من شخص أُمي لم يؤت حظاً من القراءة في ذلك العصر؟

والآن نتوقف عند بعض الامثلة في القرآن وبشيء من المقارنة يتضح ماقلناه

سابقاً:



١ - كيفية خلق «آدم» في القرآن وفي العهدين

بيّن القرآن الكريم (خلقة) الانسان في سورة البقرة من آية (٣٠ الى آية ٣٧)

بالشكل التالي :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

وقد أشير إلى هذا المعنى أيضاً في سور قرآنية أخرى كالاعراف وطه .

ويستفاد من الآية (١٢) من سورة طه بشكل واضح ، بان الشيطان خدع آدم من خلال قوله له : ان هذه الشجرة ، شجرة الحياة الأبدية ، في حين ان آدم تلقى انذاراً مسبقاً من ذي قبل يقضي بان الشيطان عدوٌ لك فلا تغتر باقواله .

وكذلك يستفاد من الآية (٢٦ و ٢٧) من سورة الاعراف و (١٢١) من سورة طه هذا المعنى ايضاً بان آدم وزوجته كانا يرتديان الاثواب في الجنة لكن عندما تناولا من تلك الشجرة المحرمة عليهم ، خلعت عنهما اثواب الجنة .

وصنعوا لانفسهما لباساً من اوراق اشجار الجنة ، واستناداً إلى الآيات السابقة

نستنتج مايلي :

اولاً: ان أعلى نقاط القوة في آدم هو وصوله الى مقام الخلافة الالهية وسجود الملائكة له ، وهي نفس حالة اطلاعه على «علم الاسماء» وعلمه بالحقائق والاسرار الكونية .

ثانياً: السبب وراء خروج آدم من الجنة ، هو تناوله من تلك الشجرة التي حُظرت عليه من قبل وان كان القرآن لم يذكر اسماً لهذه الشجرة ، لكن الظاهر في الأمر انها تمتلك فاكهة طيبة وجيدة والغاية من الأمر بتركها هو اختبار آدم ﷺ وامتحانه من أجل غربة ايمانه وصقل ارادته في مقابل الوسوس النفسانية والشیطانية .

ويتضح من عبارة «وَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ» هذا المعنى بأن التناول من تلك الشجرة المحظورة لا يعدو أن يكون مخاضاً من المخاضات وليس هو من نوع ارتكاب الذنب والطغيان امام قدرة الله وانتهاك حرمة العبودية .

والآن نخرج على التوراة لنرى كيف امتزجت هذه الحادثة التاريخية بانواع الخرافات والمسائل غير المنطقية والصيبانية ؟

جاء في الفصل الثاني من (سفر التكوين ٧ - ٢٥) مايلي :

٧- ثم صور الله تعالى آدم من صعيد الارض ونفخ في انفه نسمة الحياة ، فآخذ روح آدم ينبض بالحياة . ٨- وغرس الله تعالى بستاناً في الجانب الشرقي من عدن ، وأنزل الانسان الذي صوره هناك . ٩- وأنبت الله تعالى كل شجرة بديعة ولذيذة المطعم ، وأنبت شجرة الحياة وسط البستان وشجرة المعرفة (بالحسن والقبح) . ١٥- وأخذ الله تعالى آدم وأنزله في بستان عدن ليرعاه ويحرسه . ١٦- وأمر الله تعالى آدم وقال انك مخير بان تأكل من كل اشجار البستان . ١٧- ولكن لا تأكل من شجرة المعرفة ، لأنك ستستحق الموت حين تناولك منها . ٢٥- وكان آدم وزوجته كلاهما عاريين ولا يستحيان .

ووردت تنمة هذه الواقعة في الفصل الثالث من (سفر التكوين) نفسه على النحو

التالي :

- ١ - خلق الله الافعى (الشيطان) امكر من كل ذي روح يدب على وجه الصحراء ،
- فقال للمرأة : هل قال الله حقاً لا تأكلا من جميع اشجار البستان . ٢ - وقالت المرأة
- للافعى باننا نأكل من فاكهة اشجار البستان . ٣ - إلا ان الله تعالى أمرنا بأن لا نأكل من
- ثمار الشجرة التي في وسط البستان ولا نلمسها حتى لا نموت . ٤ - وقالت الافعى
- للرأة وبالطبع لاتموتان . ٥ - الحقيقة أن الله يعلم أنكما يوم تأكلان منها تنور
- بصيرتكما ، وتصبحان كالالهة (الملائكة) الذين يعلمون الحسن والقبح . ٦ - فرأت
- المرأة أن من الصلاح أن تأكل من الشجرة التي تبدو رائعة المنظر ، جذابة لمن يعشق
- المعرفة فوظفت من ثمارها واكلت واعطت لزوجها ايضاً فأكل . ٧ - حينئذ تنورت
- بصيرتهما ، وعلما انهما عاريان فحاكا من اوراق شجرة التين ازاراً لهما . ٨ - وسمعا
- صوت الله تعالى حينما كان يتبختر صباحاً في البستان ، فاختنى آدم وزوجته بعيداً
- عن حضرة الله بين الاشجار . ٩ - ونادى الله آدم وقال له ابن أنت ؟ ١٠ - فأجابه انني
- سمعت نداءك في البستان واصابني الهلع ، لانني عارٍ من اللباس ولهذا اختفيت .
- ١١ - فقال الله من قال لك انك عارٍ ؟ هل تناولت من الشجرة التي أمرتك ان لا تأكل
- منها ؟ ١٢ - وقال آدم ان المرأة التي منحتها لي لتكون معي هي التي اعطتني من تلك
- الشجرة فأكلت . ١٣ - وقال الله تعالى للمرأة ماهذا الذي فعلت ؟ قالت المرأة لقد
- اغوتني الافعى فأكلت . ١٤ - وقال الله تعالى للافعى ، لأنك فعلت ذلك فانت ملعونة
- من بين كل البهائم ، والحيوانات الصحراوية ستمشين على بطنك وستأكلين التراب
- طيلة ايام حياتك . ٢٢ - وقال الله تعالى نظراً لأن آدم اصبح واحداً منا لعلمه بالحسن
- والقبح ، فلا ينبغي ان يمد يده الى شجرة الحياة ايضاً فيأكل منها ويعيش عيشاً ابدياً .
- ٢٣ - اذاً لهذا السبب ابعده الله تعالى من بستان عدن ، ليشتغل بزراعة الارض

التي نشأ منها .

٢٤ - وأبعد آدم واسكن الكروبيين (الملائكة) في الجانب الشرقي من «بستان عدن» وكانوا يطوفون حول شجرة الحياة بالسيف البتار ليحرسونها .

وخلاصة ما جاء في التوراة بصدد تاريخ خلق آدم وخروجه من الجنة على النحو التالي :

خلق الله آدم ، وأسكنه بستاناً في الجانب الشرقي من عدن ، ليرعاه ، وختم هذا البستان بين اشجاره شجرتين .

احدهما : (شجرة العلم بالحسن والتبج) وهي شجرة يحصل من يأكل من ثمارها على العقل والذكاء ، ولأن آدم لم يكن قد تناول منها شيئاً ، فلم يدرك معنى الحسن والتبج . ولهذا السبب لم يستح من عُريه هو وزوجته قط ، والأخرى : كانت (شجرة الحياة) ومن أكل منها حَظي بالعمر الخالد .

وأمر الله تعالى آدم ان لا يتناول شيئاً من شجرة العلم المعرفة والحسن والتبج على الاطلاق والّا فسيموت ، وسرعان ما التى الشيطان وسواسه في روع زوجة آدم (حواء) وقال لها : لِمَ لا تأكلين من (شجرة العلم ، والمعرفة) لأنك لو أكلت لأثيرت بصيرتك ولأطلعت على الحسن والتبج كالملائكة ، وكان منظر تلك الشجرة جذاباً جميلاً ، ومن ثم أكلت منها حواء واعطت منها ولآدم ايضاً ففتحت عيناهما ، واطلعا على الحسن والتبج ، وادركا قبح العري فصنعا من الورق العريض لشجرة التين ستراً لهما وربطوه حولهما ، حينما كان الله تعالى يتمشى في الجنة عمد آدم الى اخفاء نفسه بين اشجارها ، فلم يشاهده الله تعالى وناداه اين انت ؟ فأجاب الله تعالى اني هنا بين الاشجار وقد اخفيت نفسي لانني عارٍ فسأله الله تعالى : من اين علمت انك عارٍ ؟ لعلك تناولت شيئاً من شجرة الحسن والتبج (شجرة العلم والمعرفة) ، فالتى التبعة على عاتق زوجته ، لما عُوتبت حواء ألفت التبعة على عاتق

الافعى (الشيطان)، هنا عاقب الله الافعى، بأن ترحف على بطنها، وتأكل من تراب الارض طيلة حياتها.

من ناحية اخرى، بعد أن تناول آدم من (شجرة العلم والمعرفة) واصبح كاحد الالهة، احترس الله تعالى من ان يتناول من (شجرة الحياة) ايضاً ويحظى بالعمر الخالد. ولذلك اصدر الله تعالى امراً بأخراجه من الجنة وأمر الملائكة، ان يحرسوا شجرة الحياة بالسيف البتار لئلا يقترب منها آدم.

ولا يخفى علينا ان هذا هو التوراة نفسه الذي يعد اليوم (الكتاب المقدس) لجميع يهود ومسيحيي العالم، ويؤمن جميعهم بمحتواه ويعتقدون أنه الكتاب عينه الذي كان في ايدي اليهود والنصارى في عصر نزول القرآن.

وبطبيعة الحال اننا لا نعتقد بوجود مثل هذا النوع من الخرافات الصبائية المبتذلة في الكتاب السماوي لموسى عليه السلام، او أن الانبياء بعده دافعوا عنه. ولكن على اي حال احتوت هذه الاسطورة الغريبة على امور جارحة في حق الله تعالى، بحيث ان كل واحدة منها اشنع من الاخرى ومن جملتها:

١ - نسبة الكذب الى الله تعالى استناداً الى ما نقلوه من قوله انكما لو تناولتما شيئاً من شجرة (العلم والمعرفة) فستموتان.

٢ - نسبة البخل اليه جل وعلا بما نقلوه من انه لم يوافق على ان يأكل آدم وحواء من شجرة العلم والمعرفة، فيحظيا على العتل والادراك وكان يريد لهما البقاء على جهلهم وعدم معرفتهم.

٣ - ان الله تعالى لم يمنحهما العتل والعلم الكافيين ليدركا قبح كونهما عاريين، بل وكان تعالى كثيراً ما يرتضي لهما هذه الحالة.

٤ - التول بأن له جسماً وانه يتمشى على قدميه في البستان، وفي الوقت نفسه يغفل ولا يعلم بما يدور حوله، بحيث يمكن لآدم وحواء ان يتواريا عن نظره وكل

واحد من تلك الأمور بعد كفراً. ولا ينسجم مع مقام الألوهية إطلاقاً.

٥ - ان الشيطان (نعوذ بالله) اشد حرصاً من الله تعالى على آدم وحواء لانه ارشدهما الى معرفة الحسن والقبح ، وهو لم يكف عن اضلاله فحسب بل دعاهما الى طريق التكامل ، بينما الحقيقة هي اننا ندين الشيطان في علومنا ومعارفنا .
٦ - إنّ الجنة منزل الجهال والأغبياء لأن الله اخرج آدم وحواء من الجنة بجريرة حصولهما على العلم .

٧ - ان الشيطان انما لعن وطرده من ساحة الرحمة الالهية ، لأنه كان يطلب الخير لآدم ، فعوقب من دون ان يرتكب ذنباً معيناً .
وكذلك فيما يخص الخرافات الاخرى ، كالعلم والمعرفة والحياة ، وثمار اشجار البستان ، او ان غذاء الافعى هو التراب دائماً ، وامثال ذلك .

والآن يمكننا اجراء مقارنة بسيطة بين ما بينه القرآن في صدد تاريخ نشوء آدم وصراعه مع الشيطان ، وبين ما قرأناه في العبارات السابقة ، لنعلم ايهما هو الكتاب السماوي وايهما نتاج عقل انسان جاهل ؟



٢ - لقاء ابراهيم عليه السلام بالملائكة

يبين القرآن الكريم قصة مجيء الملائكة الى ابراهيم في حالة مسيرتهم الى قوم (لوط) لانزال العقاب بحقهم في الآية (٦٩ الى ٧٦) من سورة هود ، على النحو التالي :

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيفٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ

وَرَأَى إِسْحَاقُ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ^(١).

في هذا المقطع التاريخي لانواجه شيئاً غريباً ومعقداً ومملاً او غير منطقي مطلقاً، فالقصة واضحة المعالم بكل تفاصيلها: أمر الملائكة بمعاينة قوم لوط، وقبل ذلك جاؤا الى ابراهيم يبشرونه بأنه سيرزق ولداً، فقرر ان يستضعفهم، وسرعان ما اطلع على حقيقة الامر وأراد ان يتشفع لهم، غير أن الأمر قد انتهى فقوم لوط لا يستحقون الشفاعة، ثم يبشرونه وزوجته بولادة ابن لهما وتنتهي فصول هذه القصة. ولكن لنرى ماذا نسج هذا الكتاب المقدس (كما يسمونه، وهو مورد قبول) اليهود والنصارى من اساطير في هذا المجال وماالذي طرحه من مسائل غير منطقية؟

نقرأ في الفصل الثامن عشر من سفر التكوين مايلي :

«وظهر الله تعالى في معبر يسمى «بلوطستان» بينما كان (ابراهيم) جالساً على باب الخيمة في يوم قائف، وما أن فتح عينيه حتى رأى ثلاثة اشخاص واقفين امامه. وحينما رآه أخذ يعدو من الخيمة لاستقباله وانحنى الى الارض وقال سيدي الآن وقد حزتُ على التفاته منك ارجوك ألا ترحل قبل ان أتيك بقليل من الماء لأغسل رجلك، وتستريح تحت هذه الشجرة وسأجلب بعض الخبز لتقوي به قلبك وبعد ذلك أرحل، لانهم سيقولون لقد عمل كما امره عندما عبر بالقرب مني.

ثم هرع ابراهيم الى (سارة) في الخيمة، وقال: عجلي في ثلاثة مكابيل من

الحنطة اعجينيها واخبزيها أقرصاً بالتنور، ثم اسرع ابراهيم الى قطع الأبقار وأخذ عجلًا ذكراً يافعاً واعطاه لشاب فأعده وحضره بسرعة ثم حمل الزبد والحليب مع العجل الذي أحضره ووضعاه امامه ووقف بالقرب منه تحت تلك الشجرة ليتناول طعامه!

ثم قال له ابن امرأتك سارة فقال: هاهي في الخيمة، وقال اخر: سأعيد لك عمرك وهذه امرأتك سارة سيكون لها ولدٌ، وكانت سارة عند باب الخيمة وراءه تسمع ذلك وهي وابراهيم كانا عجوزين طاعنين في السن، وانقطعت عن سارة عادة النساء ضحكت سارة من دون قصد، وقالت: بعد ان هرمت انا وزوجي هل يمكن ان اكون مسرورة؟!!

ثم قال الله تعالى لابراهيم لماذا ضحكت سارة؟ قالت: هل سألد حقاً بعدما اصبحت عجوزاً، وهل يصعب على الله أمر ما، والحال سأعيد لك عمرك في الوقت الموعود، وسيكون لسارة ولد، وانكرت سارة قالت: لم اضحك، لأنها ذعرت فقال: ليس كذلك بل ضحكت حقاً!

ونهض هذا الشخص من هناك واتجه الى سدوم وشايعة ابراهيم ليسلك الطريق.

وقال الله: لا اخفي على ابراهيم الامر الذي افعله، لان ابراهيم سيكون حقاً قوماً عظيمًا وكبيراً وتبرك به كافة طوائف الارض...

وقال الله تعالى حيث ان صبيحة (سدوم) و(عموراه) وعالية ذنوبهم عظيمة فسأهبط لأرى هل قاموا بهذه الصبيحة كما أخبرت، وإذا لم يكن كذلك فسأطلع على الامر، وتوجه هؤلاء الاشخاص من هناك وتحركوا باتجاه (سدوم) والحال ان ابراهيم لازال واقفاً أمام الله، ثم أخذ ابراهيم يتقرب وقال: هل ستقوم باهلاك الصالح مع الطالح حقاً؟ من الممكن ان يوجد ٥٠ فرداً

صالحاً، في اعماق المدينة، هل يمكن ان تهلك المكان ولا تنقذه بسبب ما يوجد في الاعماق من ٥٠ فرد صالح، حاشا لك ان تقوم بهذا العمل وتهلك الصالحين، مع الطالحين فيكون الصالح مساوياً للطالح حاشا لك، هل يمكن لمن يحكم الارض باجمعها ان لا يكون عادلاً؟

ثم قال الله تعالى اذا وجدت ٥٠ فرداً صالحاً في وسط مدينة سدوم فساخلص كافة اهل ذلك المكان بسببهم، وقال ابراهيم في الجواب: الآن وقد شرعت في الكلام من التراب والرماد، اطلب من سيدي، لو انقصنا خمسة افراد من مجموع ٥٠ فرد صالح.. هل يمكن ان تهلك كل اهل المدينة بسبب اولئك الخمسة افراد؟ فقال الله: لو وجدت ٤٥ فرداً لما هلكتها.

وتحدث معه مرة أخرى، قال لو وجد فيها ٤٠ شخصاً، فقال هو: لا أقوم بهذا الامر بسبب ٤٠ شخصاً، وقال ابراهيم ارجو ان لا يغضب سيدي حتى اتكلم بل وجد فيها ٣٠ شخصاً، قال لو وجدت فيها ٣٠ شخصاً لما فعلت ذلك.

وقال اخرى والان وقد منح لي ان اتكلم مع سيدي، بل وجد هناك ٢٠ شخص، قال هو لا اهلكها بسبب ٢٠ شخص، وقال تارة أخرى، ارجو ان لا يغضب سيدي حتى اتكلم مرة اخرى بل وجد هناك ١٠ اشخاص، فقال هو سوف لا اهلكهم بسبب ١٠ اشخاص وعندما قضى الله الكلام مع ابراهيم بدأ المسير وعاد ابراهيم الى مكانه^(١).

استناداً الى هذه المخطوطة في التوراة إطلع الله تعالى وثلاثة من الملائكة على ابراهيم في معبر يدعى «بلوطستان» في احد الايام الحارة، ويقوم ابراهيم باستقبال الملائكة الثلاثة استقبالاً حاراً، وهم بدورهم يتناولون من طعامه

(وفهم البعض من هذه العبارة ان الله تعالى اكل من طعامه!! وان هؤلاء النفر الثلاثة كانوا من المظاهر الثلاثية لله وفقاً لعقيدة التثليث) وعلى كل حال حمل الله البشارة الى «سارة» بأنها سترزق ولداً، إلا ان سارة ضحكت وعاتب الله سارة بالقول لماذا ضحكت فأنكرت ذلك بانها لم تضحك إلا ان الله أكد عليها بأنك ضحكت.

ثم ان هؤلاء عزموا على الرحيل واخذ ابراهيم يشايعهم ، وفي منتصف الطريق يحدث الله نفسه بأنه لماذا لا يخبر ابراهيم بالقرار الذي يريد ان يتخذه في حق قوم لوط ، لذلك قال له : سمعت ضجة كبيرة من بلاد قوم لوط وقد نقل عنهم ارتكابهم لمعاصي كثيرة ، فهبطت من السماء لاحقق النظر فيما أخبرت به هل كان صحيحاً أو لا ، واذا كان صحيحاً فسأبيدهم عن آخرهم ، ثم ان هؤلاء الثلاثة تحركوا تجاه «سدوم» غير ان ابراهيم لم يزل واقفاً امام الله تعالى ، وبدأ بالمحاورة والمجادلة أو بالاصطلاح (الرد والبدل) فقال : ليس من العدالة بمكان ان تهلك هذه البلاد لو وجد فيها ٥٠ فرداً صالحاً ، فطمأنه الله تعالى على انه لو وجد فيها ذلك لما أهلكهم ، ثم يبدأ ابراهيم بالعد التنازلي بشيء من الحيلة والحذر ، وفي كل مرة يشرع في حديثه يطلب العفو والمسامحة لئلا يغضب الله تعالى ، حتى انه قال مرتين بصراحة : (ارجو ان لايسبب ذلك في ازعاجك وغضبك) الى ان وصل العدد الى عشرة ، ويبدو ان ابراهيم لم يجرأ على التنزل اكثر من ذلك ، لذا في هذه الحالة اختار السكوت على مواصلة الحديث ، ولما وصلت المحاورة الى طريق مسدود ، انتهى كلام الله مع ابراهيم وتحرك الله تعالى باتجاه (سدوم) وعاد ابراهيم الى مقره الاصلي ، وانطلاقاً من ان المقصود من الله عز وجل في هذه الايات (أو بالأصح ، الجمل) هو نفس باري هذا الكون يمكن ان نستنتج المطالب التالية .

أ- نسبة الجسمية الى الله تعالى ونقع على هذا المطلب في موارد متعددة من هذه العبارات .

ب - نسبة الجهل الى الله تعالى ذلك انه يقول هبطت الى الارض ، لاحقق النظر في شأن قوم لوط .

ج - التعصب والتشدد الإلهي ! بحيث يلتمس منه ابراهيم ان لا يغضب ، وكان يتوسل بالحيل اللطيفة ، من اجل النزول بحالة الغلظة والحدة الالهية ازاء عباده الى ادنى مستوى ممكن!

د - الملائكة يتناولون الطعام!

هـ- (سارة) تلك المرأة المؤمنة العارفة ضحكت على أثر بشارة الله ثم بعد ذلك انكرت أيضاً.

هذه من نقاط الضعف الواضحة لهذه الاسطورة الكاذبة في التوراة المحرف التي نسبت الى الله عز وجل ولكن عندما نطالع اصل الواقعة في القرآن ، لا نشاهد أي واحدة من هذه الاشتباهات والنسب الشنيعة ، فمن خلال هذه المقارنة تبين حقائق كثيرة في هذا المضمار .



٣- منشأ اختلاف اللغات

من المسائل المثيرة التي كانت تقع دائماً في قائمة الاولويات الاساسية هي مسألة اختلاف لغات شعوب العالم بالرغم من تولدهم جميعاً من أب واحد وأم واحدة ، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ الروم - ٢٢ .
اننا اليوم نعلم ان منشأ اختلاف اللغات في الواقع يكمن في شيئين ، اولاً:

وجود قدرة (الابتكار) والخلاقية في ذهن البشر فهم يعمدون الى خلق لغات جديدة وصياغة جمل جديدة في سبيل تأمين حاجاتهم الذاتية .

وثانياً: الفواصل القائمة بين الملل والشعوب ، ففي العصور السابقة عندما كانت الاقوام والشعوب تتباعد عن احدهما الاخرى ، كانت تتحقق تغيرات وتحولات في الفاظهم وعباراتهم القائمة شيئاً فشيئاً ، وذلك لعدم وجود وسائل الاتصال الجمعي وأخذت هذه التغيرات تتضاعف عبر آلاف السنين فبدأت اللغات والالسنه تنفصل احداها عن الاخرى فكان ذلك سبباً لبداية نشوء الاختلافات في الالسنه واللغات .

وانطلاقاً من كون اختلاف اللغات هي احد دعائم التعرف على الاقوام المختلفة واعتبر ذلك من العوامل المساعدة والمؤثرة في مسألة التعرف على المجتمع البشري نفسها واذا كان القرآن الكريم يعدّ اختلاف اللغات الى جانب اختلاف الالوان من آياته وعلائمه فهي اشارة الى هذه الحكمة نفسها ، لان كلاً من اختلاف الالوان اللغات وسيلة واداة للتعرف ، غاية ما في الأمر ان الاول خارج عن اختيار البشر والثاني له ارتباط واضح بالابتكار والابداع البشري .

والان لننظر الى مايقوله (التوراة) الفعلي المحرف على صعيد اختلاف اللغات .

فقد ورد في الفصل الحادي عشر من سفر التكوين مايلي :

(وكان اللسان والكلام واحد في جميع انحاء الارض - وحدث عندما اخذوا بالرحيل من الجانب الشرقي «اشارة الى ابناء نوح وقبائلهم» أن وجدوا وادياً في ارض شنعار «الاسم القديم لبابل» وسكنوا فيه - وقال بعضهم الآخر هلموا لنصنع الاجر ونحرقه بالنار ، وكان الآجر بدلاً عن الحجر ، والطين المدهون بدلاً عن الاسمنت - وقالوا هلموا لنبنى لنا بلدة وبرجاً يناطح رأسه

السماء، ولنختار لنا أسماً لثلاث فرق على وجه الأرض كلها - ولأن الله تعالى أراد أن يرى ما يصنعه بنو البشر من بلدة وبرج نزل - وقال: إن هؤلاء القوم مجموعة واحدة وهم على حد سواء في اللسان وشرعوا بالقيام بهذا العمل، ولا شيء يمنعهم عما يريدون - بناءه - تعال لننزل إلى الأسفل وهناك نقوم بخلط السنتهم حتى لا يفهم أحدهم لسان الآخر - ومن هناك عمد الله إلى تفريقهم على وجه الأرض بأكملها، وحال دون اتمام بناء البلدة وصار سبباً لتسميتها ببابل، لأن الله خلط كل الأرض فيها، ومن هناك فرقهم على جميع وجه الأرض^(١).

ووفقاً لهذه الرواية الموجودة في التوراة، كانت اللغة مشتركة بين جميع الناس على وجه الأرض في البداية إلى أن اجتمع أبناء نوح وقبائلهم في (شغارا) بابل، وصمموا على عمل مهم، وهو بناء بلدة كبيرة وبرجاً عالياً، ولم يكن هذا العمل مرضياً عند الله تعالى، فكان قلقاً من تحركهم وما يؤول ذلك من نتائج لذا قال لبعض الملائكة هيا لننزل إلى الأرض نخلط السنتهم حتى يتفرقوا (فأوجد الاختلاف بينهم حتى افرض هيمنتي الإلهية) ووقع هذا الأمر، ونظراً لعدم فهم أحدهم للغة الآخر انتشروا في البقاع المختلفة، وحال دون اتمام بناء البرج العظيم.

أشير في كتاب (اعلام القرآن) إلى وجه تسمية «بابل» بهذا الاسم فيقول: (رواة القصة ظنوا أن لفظة «بابل» مأخوذة من بلبل وقالوا إن الناس اجتمعوا في هذه المدينة بعد طوفان نوح وشيدوا فيها برجاً لتصبح علامة على مركزيتهم وشكلوا فيها المجاميع الرسمية ولكنهم عندما ناموا في الليل واستيقظوا في الصباح اختلفت السنتهم واخذ يتكلم كل منهم بلغة ما، وعلى أثر عدم حصول

التفاهم بينهم افترقوا في انحاء العالم ونشأ من كل واحد منهم شعب من الشعوب^(١).

هذه الاسطورة تنطبق تماماً مع مانقلناه سابقاً في متن التوراة التي دلت على ان الاختلاف في اللغات تحقق من قبل الله تعالى من أجل مقارعة قدرة المجتمع البابلي.

الآن السيد «هاكس» مؤلف كتاب «القاموس المقدس» له كلام آخر وتوجيه جمل التوراة إذ يقول: «كانت الدنيا بأجمعها تمتلك لهجة ولغة واحدة الى حدود الالفين عام تقريباً... لكن بعد مائة سنة من الطوفان، أي في زمن عصيان الكوشيون^(٢) في بابل، اوجد الله تعالى بشكل خارق للعادة الخلط في لغاتهم، وبسط ولايته على وجه الارض مع هذه الاقوام المختلفة والالسنه المتنوعة»^(٣). وفي موضع آخر يقول:

«بناء على عدم كون هذه المسألة وهي (بناء البرج العالي) موافقة للارادة الإلهية اوجد الله تعالى الاختلاف في السنتهم بحيث لم يكن بمقدور احدهم ان يفهم كلام الآخر ولهذا السبب انتشروا في جميع بقاع المعمورة وتحققت على إثر ذلك أمنية الله تعالى وتعمرت الارض»^(٤).

هذه التعابير توحى الى ان الغاية الإلهية من ايجاد هذا التبعر في لغة مجتمع بابل، هي العمران والتشييد، والحال ان التوراة في العبارة التي نقلناها تقول: بصراحة ان الهدف من ذلك لم يكن سوى اضعاف مجتمع بابل وكسر قدرتهم ووحدتهم وشوكتهم، إلا اننا نعلم على كل حال بأن منشأ اختلاف

١ - اعلام القرآن: ص ٢٣٨.

٢ - كوشيان: هو اسم والد نمرود.

٣ - القاموس المقدس: مادة (اللغة).

٤ - القاموس المقدس: مادة (بابل).

اللغات لم يكن مثل هذا الأمر على الإطلاق ، وإن العامل الأساسي لهذا الأمر هو مرور الزمان وتباعد الاقوام فيما بينهم ، ولأزال الحديث في المطلوب متواصلاً أيضاً.



٤ - عبادة العجل من قبل بني إسرائيل

وردت الإشارة إلى قصة عجل السامري في سورة طه (الاية ٨٤ إلى ٩٦) من القرآن الكريم فبعدما جاء موسى إلى ملتقى الوعد الإلهي (جبل طور) ليتسلم آيات الوحي وجه الله تعالى إليه الخطاب بالقول :

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمِلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٍ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى * قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَا تَتَّبِعُنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ .



يستفاد من مجموع هذه الآيات ان بني اسرائيل في غياب موسى قد غر بهم «السامري» ذلك الرجل المنحرف والذي يقال ان له خبرة في صياغة الذهب ، فصنع من حليه وزينته عجلاً من ذهب وانبرى هارون الى منازلهم .
الى ان يقول القرآن في مقام اعتذار هارون من موسى ﴿أَنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ «الاعراف - ١٥» .

واخيراً انزعج موسى ﷺ كثيراً من هذه القضية ، والقى باللائمة على أخوانه ، وعاتب السامري ، وأحرق صنمه بالنار ، وذرّ رماده في البحر ، ووجه عقاباً صارماً الى بني اسرائيل ، والآن لننتهي نظرة على مايقوله التوراة في هذا المجال :

جاء في الفصل الثاني من سفر الخروج في التوراة مايلي :

(ولما رأى القوم ان موسى ﷺ يتريث في هبوطه من الجبل ، اجتمع اولئك القوم عند هارون) ؛ وقالوا له انهض واصنع لنا الهة تسير امامنا ، لاننا لانعلم ما حل بذلك الرجل الذي اخرجنا من ملك مصر - وقال لهم هارون اخرجوا الاقراط الذهبية من آذان نساءكم وصبيانكم وبناتكم واجلبوها عندي - فاخرج جميع القوم الاقراط الذهبية التي كانت في آذانهم وجاؤا بها الى هارون ، فاخذها من ايديهم ، فصورها بشكل بارز ، وصبت على شكل عجل وقالوا يا اسرائيل هذه هي الهتك التي اخرجتك من ارض مصر .

وعندما رأى هارون ذلك أقام مذبحه مقابل ذلك ، ونادى هارون وقال غداً سيكون عيداً نعقده لهذا الاله - وقاموا في وقت السحر وقربوا القرابين المحترقة وقذفوا الهدايا بالقرب منها للحفاظ والسلامة وجلسوا للاكل والشرب وقاموا من فورهم للعب - وقال الله تعالى لموسى ﷺ انزل الى قومك ، لان القوم الذين اخرجتهم من ارض مصر قد فسدوا - بل انهم انحرفوا بسرعة عن المسلك الذي

امرتهم به ، وصنعوا لانفسهم عجلا أعدوه من قبل وسجدوا له وقدموا له قرباناً أيضاً ، وقالوا لاسرائيل هاهي الهتك التي اخرجتك من ارض مصر ، لكن موسى طلب من ربه وقال : لماذا تصب غضبك على القوم الذين اخرجتهم من ارض مصر بحولك العظيم لكي لا يتكلم يتكلم أهل مصر بانك اخرجتهم لقصد سيء ، حتى تقضي عليهم في وسط الجبال ولتبيدهم من على وجه الارض ؛ تنازل من شدة سخطك ! وغير ارادتك بصدد انزال البلاء على قومك ، واذكر عبادك ابراهيم واسحاق واسرائيل ، لانهم اقسموا بذاتك من اجلهم ، قلت لهم : بأن سأبارك في ذريتكم وأكثرهم بعدد النجوم .

ووقع الامر بالفعل ، فعندما اقترب من المخيم شاهد العجل والمهرولين واثارت ثائرة موسى ، فلقى اللواح من يده ، وكسرها تحت الجبل ، واخذ العجل الذي صنعه وأحرقه بالنار وسحقه الى ان اصبح ترابا ثم نثره في الماء ، وسقى بني اسرائيل منه ! وقال موسى لهارون : ماذا فعل بك هؤلاء القوم حتى اقدمت على ارتكاب هذا الذنب العظيم ، فقال هارون : لاثرت ثائرة سيدي لانك تعلم انهم يميلون الى الخطايا ، وقالوا لي اصنع لنا الهة نفتدي بهم ونمضي خلفهم ، لان موسى الرجل الذي اخرجنا من ارض مصر ، لانعلم ماذا حلّ به ، وانا قلت لهم : ليخرج كل من كان لديه قطع ذهبية ، ثم اعطوني ايّاهما والقيتها في نار حامية فخرج هذا العجل ...

ورجع موسى الى ربه ، وقال وأسفني على ما ارتكب هؤلاء القوم من ذنب عظيم لانهم صنعوا لانفسهم الهة من ذهب ، والآن لو رفعت عنهم وزرهم والآلئتمس منك ان تمحوا أسمي من الكتاب الذي عهدته لي (مقام النبوة) !
وقال الله تعالى لموسى : كل من أقام على الذنب امحو اسمه من كتابه ،

فأذن تحرك الان وارشد هؤلاء القوم الى المكان الذي اوصيتك به^(١).

ويستفاد من العبارات السابقة المنقولة عينا من كتاب العهد القديم عدة

نكات :

١ - ان الامر بصنع الصنم وعبادته صدر من هارون ، كما ان الامر تحقق بمعونته أيضاً وهو فضلاً عن عدم نهيه عن هذا العمل كان مروجاً له ومرسياً لدعائمه ، ولم يأت الحديث عن السامري في هذا الفصل مطلقاً ، ترى هل يمكن تحقق هذا العمل من قبل شخص يقوم مقام موسى ، بصفته وزيراً مساعداً وملازماً ورئيساً لكهنة بني اسرائيل - بشهادة التوراة - كيف يصدق العقل والمنطق ان تسبب هذه النسبة القبيحة والمخجلة الى هارون^(٢) ؟

٢ - ان الله تعالى اشتد غضبه على اثر هذا القضية بحيث أراد ان يبيد قوم موسى لكن موسى نوه الله تعالى على نكتين (خصوصاً انه يخاطب الله تعالى بجملته واحدة ويقول لا يعزب عن بالك ليهدأ من فورة غضبه وسخطه ، الاولى : انك اذا قمت بهذا العمل فان اهل مصر سيقولوا : أل هذه الغاية اخرجت بني اسرائيل من مصر ، كي تقتلهم في وسط الجبال وتبيدهم من على وجه الارض ، والاخرى ، هي انك اعطيت موثقاً بأنني سأزيد من نسل ابناءكم بعدد نجوم السماء ، وهذا العمل لا ينسجم مع هذا القول والقسم ! وتغيرت مشيئة الله تعالى على أثر تنبيهات موسى له كما هو المصرح به في التوراة .

٣ - ان موسى بعد ان احرق العجل بالنار ، نثر رماده في الماء واعطى هذا الماء لبني اسرائيل كي يشربوا منه فهل كانت هناك خصوصية في الرماد المتبقي

١ - نقلاً عن التوراة المترجم والذي طبع في بريطانيا سنة ١٨٧٨ ص ١٠٤ و ١٠٥ ، (سفر الخروج الباب ٢٣).

٢ - مؤلف كتاب «القاموس المقدس» هاكس الاميركي يقدم توجيهاً مضحكاً لهذه القصة اذ يقول : «لقد قام هارون بهذا العمل لاسكات القوم» ، فمع ان هذا الكلام يصدق عليه القول المعروف «العذر اقبح من السبب» ، فهو لا يتلائم ابداً مع اقامة المذبحة والامر بالقربان وتعيين العيد .

من العجل حتى يشربوا من مائه؟!

٤ - حينما اعترض موسى على هارون ، قال هارون بهدوء تام له : انت تعلم مدى ميل هؤلاء القوم نحو الخطايا وهم طلبوا مني وأنا لبيت طلبهم (ياله من عذر؟!...) وموسى لم يعترض عليه في المرة الثانية (فياله من مصلح متقاعس) .
٥ - وفي نهاية المطاف ذهب موسى الى محضر القدس الالهي ، وهدد الله بالاستقالة من مقام النبوة قائلاً: اذا غفرت لهؤلاء العاصين فهو الاحسن والا فامحو اسمي من الكتاب الذي دونته! (واعهد بهذه المهمة الشاقة الى شخص آخر...) .

لاحظوا جيداً الى مارسمته التوراة عن الله ، والنبى ، والقائم مقامه ، ثم قارنوا بعد ذلك بين هذا الفصل التاريخي وبين ماورد في القرآن!



٥ - قصة النبي داود عليه السلام وزوجة اوريا

من المقاطع التاريخية الاخرى للقران الكريم ، هي مسألة «قضاء داود» النبي ﷺ التي دارت بين اخوين متخاصمين .

وبفصل القرآن القول في هذه القصة في سورة (ص) ضمن الآيات ٢١ الى ٢٦ بالنحو التالي:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمَحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَكُمُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ اكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ۝

في هذا المقطع التاريخي من حياة داود عليه السلام ، لانفع على أي مفهوم سلبي سوى انه تسرع شيئاً ما في اصدار الحكم فحينما طرح أحد هذين الاخوين ادعاءه ، اعرب عن قوله ومن دون ان يستمع الى ادعاءات الاخ الثاني : ان اخاك قد ظلمك وانه لا ينبغي ان ينازعك في صدد نعمة واحدة مع ماكل ما يمتلكه من المال والثروة ، وان كان هذا لا يمثل الحكم النهائي لداود عليه السلام ، إلا ان نفس هذا المقدار من التسرع في اصدار الحكم لا يصلح لمقام القضاء العادل بصورة عامة ، وقضاء النبي داود بصورة خاصة ، ولعل هذا هو السبب في توبته واستغفاره وسجود .

ولاجل هذه الدقة في مسألة القضاء والتماس المغفرة والمسامحة من هذه الزلة اعطاه الله المقام المحمود .

والشاهد على هذا التوجيه للآيات السابقة هي الآية التي وردت مباشرة بعد هذه الآيات وذلك عندما يقول : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

هذه الآية تدل بوضوح ان المخالفة ، او بعبارة اصح ترك الاولى الذي صدر من النبي داود عليه السلام لم يكن يتضمن في حقيقته بعض الامور التي هي من قبيل الغرام والتعلق بزوجة احد قواد جيشه الذي يدعى بأسم (اوريا) وامثال ذلك من المفاهيم التي نسجتها ذهنية اهل الاساطير استناداً الى ما جاء في التوراة . والان نعود الى التوراة النعلني المحرف لننظر الى ما يقوله في هذا المجال :

نطالع في الكتاب الثاني لاشموئيل هذه الحادثة :

ووقع عند الغروب عندما نهض من فراشه وطاف حول سطح بيت الملك ، ورأى من السطح امرأة تغسل نفسها وكانت هذه المرأة غاية في حسن الوجه والرشاقة ، وأخذ داود يستفسر عن هذه المرأة ، وقال شخص اليست «بث شبع»^(١) (وهذا اسمها) هي بنت «اليعام»^(٢) زوجة «اورياه حثي»^(٣) ؟

وارسل داود اليجيان فأمسكها وجيء بها اليه ، فاضطجع معها وبعد التطهير من النجاسة ذهبت الي بيتها وحملت المرأة ، وارسلت الي داود من يخبره انها حامله وارسل داود الي «يؤآب» (قائد جيش داود) ان ابعث الي «اورياه حثي» وبعث يؤآب اورياه اليه وقدم عليه ، فسأله داود عن سلامة يؤآب وسلامة القوم وعن استقرار اوضاع الحرب .

وقال داود لاورياه انزل الي بيتك واغسل رجلك ، وخرج اورياه من قصر الملك وخرجت من ورائه مقدار من الطعام من الملك ، إلا ان اورياه نام مع سائر عبيد سيده في رحبة القصر ولم ينزل في بيته فحينما خبروا داود ان اورياه لم ينزل في بيته ، فقال داود لاورياه ألم تأتي من السفر فلمَ لم تنزل في بيتك ؟ واعرب اورياه لداود بالقول ان الصندوق واسرائيل ويهوداه يسكنون تحت المظلات ويجلس سيدي يؤآب وعبيده في خيمة وسط الصحراء ، فهل يجوز لي ان اذهب الي البيت لاقضي وطري من الطعام والشراب والنوم مع زوجتي ، اقسم بحياتك ان لا أقوم بهذا العمل قط ...

وتحقق الأمر بالفعل بأن كتب في الصباح رسالة الي «يؤآب» وبعثها بيد

١ - بث شبع : اسم تلك المرأة التي رآها داود - طبقاً لما تقوله التوراة - عارية من سطح البيت وعشقتها ، وهي ابنة اليعام أحد اصحاب المناصب العبرية .

٢ - نفس المصدر .

٣ - اوريا : بتشديد الياء اسم أحد القادة البارزين في جيش داود ، و«حَثي» بتشديد التاء وكسر الحاء نسبة الي «حت بن كنعان» الذي يعرف قومه ب«بن حث» .

اورياه ، وكتب الرسالة بهذا المضمون . القوا باورياه في اتون حرب ضارية ثم انسجوا من ورائه ، حتى يصاب ويموت «أي يقتل» وتحقق الامر بالفعل بعدما التقى يوأب نظرتة على المدينة ، ووضع اورياه في الموضع الذي علم بوجود الرجال الشجعان فيه وخرج رجال المدينة ، وقاتلوا ضد يوأب ، وسقط البعض من القوم عبيد داود ومات «اورياه حتّي» أيضاً... وعلمت زوجة اورياه ان زوجها قد مات واقامت العزاء في حق زوجها وبعد انتهاء العزاء ارسل على اثرها داود ﷺ وأتى بها الى بيته واصبحت زوجته!... غير ان العمل الذي اقدم عليه داود لم يكن مرضيا عند الله تعالى^(١)!

خلاصة القصة ان داود عندما كان في «اورشليم» فصعد في يوم من الأيام الى سطح القصر ، فوقعت عينيه على البيت المجاور له ، فشاهد امرأة عارية في فوقع حبها في قلبه وجلبت بعنف الى قصره واضطجع معها فحملت منه! وكان زوج هذه المرأة من الضباط المرموقين لجيش داود وكان رجلا مجبولا على الصفاء ونقاء الطبع بحيث انه عندما عاد من ميدان القتال لم تطاوعه نفسه ان يذهب الى بيته ويضطجع مع زوجته ويستمتع بالاطعمة الممتازة مواساة منه لاترا به المقاتلين الذين لزالوا في ميدان القتال يعيشون في الخيمة ، بالرغم من ذلك اصدر داود قراراً مجحفاً جداً ، فكتب رسالة الى قائد عسكره (يوأب) واعطاها بيد (اورياه) نفسه ليوصلها بدوره الى قائد العسكر ، وقد كتب في هذه الرسالة انه لابد من تحديد مسؤوليته في احدى المواضع الخطرة لساحة القتال ، ثم تخلية اطرافه كي يقضى عليه بسيف الاعداء ، ونفذ هذا القرار الاجرامي المشؤوم ، وقتل على اثره اورياه الطاهر القلب والنقي والشجاع واستأثر بزوجه!!.... ونقرأ في الجملة الأخيرة من هذا الفصل «ان هذا

العمل لم يقع مورداً لرضا وقبول الحق تعالى!»!

والان نعود الى تنمة الحكاية ، فقد ورد في الفصل الآتي من التوراة مايلي :
(وبعث الله تعالى «نathan»^(١) الى داود فجاء اليه ، وقال له : كان في احدى المدن شخصان احدهما غني والاخر فقير ، كان الغني يمتلك غنماً وبقراً كثيراً جداً ، ولم يكن الفقير يمتلك سوى اثني واحدة من الغنم ، اشتراها ورباها وتعاهدا مع اولاده بالرعاية تأكل من طعامه وتشرب من اناؤه وتنام في احضانه وكانت كأحد بناته .

وقدم مسافر الى هذا الغني وآل على نفسه ان يأخذ من اغنامه وابقاره حتى يعده للمسافر الذي قدم عليه وأخذ نعمة ذلك الرجل الفقير وذبحها على شرف الرجل المسافر الذي قدم عليه .

وثارت ثائرة داود وقال لـ(نathan) أقسم بالله الحي القيوم ، ان الرجل الذي فعل ذلك يستحق القتل! وبسبب فعله هذا وعدم اعتناؤه يجب ان يؤخذ منه!
حينئذ قال Nathan لداود : ان ذلك الرجل هو انت ، يقول الله تعالى رب اسرائيل : أنا الذي جعلتك سلطاناً على اسرائيل وانقذتك من ربة «شاوول»^(٢)... لماذا استهنت بأمر الله تعالى ، وارتكبت عملاً قبيحاً لديه فضربت ، (اورياه حَتّي) بالسيف ، وفعلت مع زوجته فعلاً قبيحاً ، انك قتلتها بسيف «بني عمون»^(٣) ، والآن لن يفارق بيتك السيف أبداً ، والسبب في ذلك هو تحقيرك لي ، أخذت امرأة (اورياه حَتّي) لتكون زوجتك ، والله تعالى يقول سأشعل فتيل البلاء عليك من قصرِكَ وسأخذ زوجاتك من امام عينيك واعطيها

١ - Nathan أو Nathan أحد انبياء بني اسرائيل وكان مستشاراً لداود .

٢ - شاوول : أحد سلاطين بني اسرائيل .

٣ - بني عمون : كانت من الشعوب المحاربة التي تعيش في الطرف الشرقي من «البحر الميت» وقد حاربهم داود .

لصاحبك! وسينام مع نساءك في عين هذه الشمس! لانك قمت بهذا العمل سراً
اما أنا فسأنفذ العقاب في وضع النهار بمرأى ومسمع بني اسرائيل .

وقال داود ل«ناتان»: اني خالفت امر الله تعالى بارتكابي الذنب، وقال
«ناتان» لداود أيضاً: ان الله قد عفى عن ذنبك ولن تموت...

وقدم داود التعازي الى زوجته «بث شبع» وقاربها ، نام معها فأنجبت ولداً
سماه (سليمان) وقد أحبه الله تعالى^(١).

تظهر في هذا المقطع من القصة بعض الملاحظات التي ينبغي التدقيق
فيها:

أ - لم يأت الى داود من يطالب باجراء العدالة وانما جاء اليه أحد انبياء بني
اسرائيل في ذلك العصر وقد كان مستشاراً لداود وذكر له على سبيل المثال احد
القصص للموعظة والنصيحة ، ولم يتطرق الحديث في هذه القصة الى
الاخوين ، وانما اتجه البحث الى الرجل الغني والفقير والذي كان احدهما
يملك قطعاً كبيراً من الابقار والاغنام والآخر لا يملك سوى نعجة واحدة ، كما
انه لم يتطرق الحديث في هذا الموضع أيضاً الى مسألة استدعاء الشخص الاول
من الثاني ، بل غاية ما في الامر انه حينما قدم ضيف الى الرجل الغني ذبح
النعجة التي ترعرعت على يد الرجل الثاني واعدها طعاماً للضيف .

ب - ذهب داود الى الاعتقاد بأن مثل هذا الظالم يستحق القتل (ولماذا
يتوجه القتل من اجل اغتصاب نعجة واحدة؟!)

ج - حكم داود باعطاء اربع نعجات عوضاً عن نعجة واحدة (فلماذا اربع
مقابل واحدة!)

د - اعترف داود بذنبه وعمله القبيح في صدد خيانه بزوجة «اورياه»

هو وعفى الله تعالى عن داود (بهذه البساطة؟!)

و - وقدر الله تعالى لداود جزاء دنيوياً واحداً وهو ان تقع نساءه في ايدي اصحابه فيمارسون بهن هذا العمل في وضح النهار وبمراى من بني اسرائيل!
ز - وبالنتيجة اصبحت احد هذه النساء أمال(سليمان) وولد منها سليمان
وكان الله تعالى يحبه أيضاً؟!

اذا اعتقدنا بنبوة داود من قبل الله تعالى ، كما يقر بذلك جميع المسلمين ويؤيدها مقاطع من عبارات التوراة ، فليست هناك ادنى حاجة للبحث والمناقشة في منافاة هذه الاعمال لمقام النبوة ولا يقتصر هذا الامر على عدم انسجامه مع مقام النبوة بل يعتبر من احد الاعمال الاجرامية الكبرى .
والذي يعد حدوثه من قبل شخص عادي امراً شاذاً وغريباً من نوعه ويستحق العقاب ، فكيف يمكن التصديق بان الله تعالى يعفو ويتسامح بهذه البساطة عن انسان قاتل عرض احد ضباطه للقتل عمداً ، واقتترف الزنا بالمحصنة ، ثم استولى على زوجته بعد ذلك؟!

واذا اعتبرناه ملكاً من ملوك بني اسرائيل فقط - كما وردت احواله في كتاب الملوك والسلاطين من التوراة - لايقبل منه ذلك أيضاً على الاطلاق لانه -اولاً- لم يكن ملكاً عادياً فالتوراة افصح عن عظمة داود ومقامه الشامخ في فصوله المختلفة ، وانه هو الذي وضع الحجر الاساس للمعبد الكبير لبني اسرائيل والذي لم يكتمل بناؤه في زمانه بسبب الحروب الكثيرة والقيت مسؤولية اكماله على ابنه سليمان ، ترى هل يمكن صدور هذا العمل من قائد يمتلك مقاما معنوياً محمودا ويكون مسددا ومؤيداً من قبل الله تعالى؟!

ثانياً- من الكتب المعروفة للتوراة كتاب «مزامير داود» واناشيده الاعتقادية ومناجاته فهل يمكن ان تقع مناجاة ودعوات «قاتل أرتكب الزنا بالمحصنة» في

ضمن الكتب السماوية .

الآننا عندما نعود الى القرآن ، نجد انه لا أثر عن أي حديث عن عشق داود واجرامه واقترافه للذنب ولا على سائر فقرات هذه القصة الكاذبة ، وانما ورد الحديث عن حكاية لأحد المحاكم العادلة - وذلك بشكل جدي لا على شكل مثال - والذي سبق شرحه من قبل ، ومما تجدر الإشارة اليه هو خلو القرآن من هذه التهم ، والنكته التي ينبغي ذكرها في هذا الموضع أيضاً هي ان من المؤسف وقوع بعض المؤرخين أوالمفسرين الاسلاميين تحت تأثير الاساطير الكاذبة للتوراة ونقلهم اياها في كتبهم ، ومن البديهي ان احاديث هذا النمط من الافراد لا تمتلك أي قيمة علمية وتاريخية وتفسيرية ، وذلك لعدم وجود ادنى دليل على مقالاتهم في المنابع الاسلامية المعتبرة .

والجدير بالذكر هو ما نقل عن الامام علي عليه السلام قوله : « لا أوتي برجل يزعم أن داود تزوج امرأة اوريا إلا جلده حداً للنبوة وحداً للسلام»^(١) .



٦ - هل ان سليمان بنى معبداً للاصنام؟!

ورد التعريف بشخصية سليمان في القرآن الكريم على كونه نبياً كبيراً وقائداً مقتدراً امتلك سلطة عريضة وفريدة من نوعها ، وأشيد بعظمته وصلاحه في سور مختلفة من جملتها سورة البقرة ، النساء ، الانبياء ، النمل ، سبأ وص ، فعلى سبيل المثال نقرأ قوله تعالى في سورة (ص الآية ٣٠) : ﴿وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ .

القرآن في حكايته المفصلة نوعاً ما التي اوردها في السور المتقدمة الذكر

عن هذا النبي الكبير ليس فقط لا ينسب له نسبة عبادة الصنم وصناعته مطلقاً وإنما يعدّ كافة جوانب حياته نزيهة من أي لون من ألوان التلوّث بالشرك والمعصية .

يكفي في هذا المجال مراجعة سورة الانبياء (الآيات ٢٨ الى ٨٢) وسورة النمل (الآية ١٥ الى ٤٤) وسورة ص (الآية ٣٠ الى ٤٠) وعلى الخصوص قصة هداية (ملكة سبأ) وانقاذها من براثن الشرك ودعوتها الى التوحيد الخالص ، وخاصة عندما يقول : ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وأساساً يستفاد من الآيات الموجودة في نفس السورة ان الهدف الرئيسي لسليمان في واقعة الملكة سبأ يكمن في محاربة الشرك والوثنية وانقاذها وقومها من وطأة هذا الانحراف ، والآن نعود الى التوراة الفعلية المحرف لننظر الى مايقوله في شأن سليمان ومايخلقه من صورة بشعة عن هذا النبي ، صورة لرجل مفتون بالاهواء بحيث ساقه هوسه وهواه الى حد الشرك والوثنية وحتى بناء معبد الصنم .

جاء في الكتاب الاول للملوك والاسلاطين مايلي : «واحب الملك سليمان نساء اجنبيات كثيرة من الامم التي قال الرب لبني اسرائيل في شأنها : لاتذهبوا اليهن ولايذهبن اليكم فانهن يستميلون قلوبكم الى اتباع الهتهن ، فتعلق بهن سليمان حباً لهن ، وكان له سبع مائة زوجة وثلاث مائة جارية فازاغت نساؤه قلبه ، وفي زمن شيخوخة سليمان تمكن ازواجه من امالة قلبه الى اتباع الهة أخرى ، فلم يكن قلبه مخلصاً للرب الهه ، كما كان قبل داود أبيه فتبع سليمان عشتروت الهة الصيدونيين ، وملكوم بني عمون ووضع الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب اتباعاً تاماً مثل أبيه داود .

حينئذ بنى سليمان مشرفاً لكاموش صنم قبيلة موآب في الجبل المقابل

لاورشليم ولمولك صنم بني عمون ، وكذلك صنع لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يحرقن البخور ويذبحن لالهتهن ، فغضب الرب على سليمان ، لان قلبه مال عن الرب اله اسرائيل الذي تراءى له مرتين وأمره في ذلك ان لا يتبع الهة اخرى ، فلم يحفظ ماأمره الرب به ، فقال الرب لسليمان : بما ان أمرك هذا ، وانت لم تحفظ عهدي وفرائضي التي امرتك بها ، فسأنتزع الملك عنك واسلمه الى عبدك ، الا اني لا أفعل ذلك في أيامك نظرا لداود أبيك ، بل انتزعه من يد ابنك»^(١) .

يستخلص من مجموع القصة الكاذبة للتوراة مايلي :

أ - كان لسليمان علاقات كثيرة بنساء الطوائف المشركة ، وقد استولى على قسم كبير منهن خلافا لامر الله ثم اخذ يميل الى معتقداهن شيئا فشيئا ، وبالرغم من كونه شخصا ميالا للنساء فقد حاز على ٧٠٠ امرأة بالعقد الدائم و ٣٠٠ امرأة بالعقد المنقطع ! الا ان تعلقه الشديد بالنساء ادى به الى ابتعاده عن طريق الله تعالى !

ب - أصدر سليمان قرارا معلنا ببناء معبد للاصنام ، وبني على الجبل المطل على «اورشليم» تلك البقعة المقدسة لاسرائيل ، معبدا لصنم كموش - الصنم المعروف لطائفة الموابيان - وصنم مولك - الصنم المختص بطائفة بني عمون - وبرزت في نفسه علاقة خاصة بصنم «عشروت» الصنم المنسوب الى الصيدونيان ، وقد تحقق ذلك كله في عهد شيخوخته !

ج - ووجه الله تعالى له عقابا على هذا الانحراف والذنب العظيم ، وتبلور هذا العقاب في ان يسلب منه مملكته وسلطانه ولكن لا يسلبه من يده شخصا وانما يسلبه من يد ابنه «رحبعام» ! وسيمنحه فرصة البقاء في الحكم متى شاء ، وهذا الاجل كونه من عباد الله المقربين ؛ لقد كان والد سليمان هو داود ، ذلك

العبد المقرب عند الله والذي أقدم على قتل النفس والزنا بالمحصنة ، واستولى على زوجة الضابط الرشيد والخادم في جيشه!!

هل يمكن لاحد الاشخاص ان ينسب هذه التهم الفظيعة الى ساحة انسان مقدس كالنبي سليمان؟!!

اذا اعتقدنا بنبوة سليمان عليه السلام - كما صرح به القرآن - فالامر واضح واذا عددناه في قائمة ملوك بني اسرائيل ، فذلك لايمكن ان تصدق في حقه مثل هذه النسب أيضاً .

ولو اننا انكرنا نبوته فمن المسلم انه كان تاليا للنبي من بعده ، لان من الكتب التي أشتملت على اقوال هذا الرجل الالهي الكبير هو كتابين من كتب العهد القديم احدهما يقع تحت عنوان «مواظ سليمان» أو «حكم سليمان» والآخر تحت عنوان «نشيد سليمان» بالاضافة الى ان التوراة في الفصل الثالث من الكتاب الاول لتاريخ الملوك «الجمل من ٥ الى الاخير» يقول بصراحة : «لقد تجلى الله تعالى لسليمان في المنام ليلاً ، وخاطبه بالقول ، أطلب مني ماتشاء ونظرا لصغر سنه وقلة تجربته طلب سليمان من الله الحكمة ، واستجاب الله دعاءه واعطاه الفهم والحكمة وقال : ان هذا الفهم والحكمة التي اعطيتك اليك لم اعطه لاحد من قبلك ولا من بعدك» .

هل يعقل أن يتلقى احد الاشخاص هذه النوع الفريد من العلم والحكمة من الله تعالى في أيام شبابه ثم يقدم على بناء معبد للاصنام ارضاء لرغبات زوجاته في عهد كبره ونضج عقله واكتمال مداركه؟!!

مما لايقبل الشك ان هذه الاساطير الكاذبة كانت من صنع الادمغة العاجزة في السابق ، ومن المؤسف حقاً ان عدة من الافراد الجهلاء وضعوها في سلسلة الكتب السماوية بعد ذلك ، وعد هذا الكلام «اللا مقدس» بعنوان «الكتاب

المقدس، ألا انه هل تشاهد أي واحدة من هذه النسب السبئية في الوقائع والحوادث التي ينقلها القرآن؟ الدقة والبحث ينفيان هذا الامر.



٧- المباراة العجيبة بين يعقوب واخيه عيسو

القرآن الكريم يسدي احتراماً بالغاً الى «ابراهيم» عليه السلام وابنه «اسحاق» وحفيده «يعقوب» ويشيد بعظمتهم واخلاصهم، فنقرأ في سورة (ص الآيات ٤٥ الى ٤٧) قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا اِبْرَاهِيمَ وَاسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ اُولٰٓئِىَ الْاَيْدِي وَالْاَبْصَارِ اِنَّا اخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ، وَانَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفٰٓيْنَ الْاَخْيَارِ﴾.

وفي موضع آخر من سورة الانبياء (الآيات ٧٢ و٧٣) يقول في شأن هذه العائلة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ اسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ اٰثِمَةً يَهْدُونَ بِاَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾.

هذه التعبيرات ان دلت على شيء فانما تدل على ان هؤلاء رجال موحدون، على جانب كبير من الايمان وصفاء السريرة وعلى اطلاع ولباقة عالية في قيادة البشرية، ولذا فهم مطهرون ومنزهون عن كل رجس ودنس، لكن عندما يقع تاريخ حياة هؤلاء في أيدي اصحاب الخرافات يرسمون عنهم صورة قبيحة جداً تنزل بهم الى مستوى الاشخاص الانتهازيين والجشعين والمتحللين الذين لا يدخرون وسعاً في سبيل التوصل الى منافعهم اللامشروعة، ولا ثبات حثيفة هذا الكلام نلتجىء الى التوراة المحرف لنرى الى ما اختلقه من ملامح ومعالـم رهيبة عن «اسحاق» و«يعقوب» والاخ الاكبر

ليعقوب «عيسو» :

«وحدث لما شاخ اسحاق وكلت عيناه عن النظر فدعا عيسو ابنه الاكبر وقال له : يا بني ، فقال هاانذا ، فقال : انني قد شخت ولا اعرف يوم وفاتي فالان خذ عدتك ، واسلحتك وقوسك واخرج الى البرية وتصيد لي صيداً واصنع لي أطعمة كما احب ، واثني بها لاكل حتى تباركك نفسي قبل ان أموت .

وكانت ريقاه سامعة لكلام اسحق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو الى البرية كي يصطاد صيداً ليأتي به ، وأما ريقاه فكلمت يعقوب ابنها قائلة : اني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً : اثني بصيد وأصنع لي أطعمة لآكل واباركك أمام الرب قبل وفاتي ، فالان يا بني اسمع لقولي في ما امرك به ، اذهب الى الغنم وخذ لي من هناك نعجتين جيدتين ، فاصنعهما أطعمة لابيكم كما يحب وحضرها اليه ليأكل حتى يباركك قبل وفاته فقال يعقوب لريقاه امه : هو ذا عيسو أخي رجل أشعر ، وأنا رجل أملس ربما يجسني أبي فاكون في عينيه كمتهاون واجلب على نفسي لعنة لابركة ، فقالت له امه : لعنتك علي يا بني ، اسمع لقولي فقط واذهب فذهب وأحضر لامه فصنعت منها اطعمة كما كان ابوه يحب واخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الاكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت والبست يعقوب ابنها الاصغر ، وألبست يديه وملابسه عنقه جلود جديي المعزى واعطت الاطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها فدخل الى ابيه وقال : ياأبي ، ها انذا من انت ياابني؟ فقال يعقوب لابيه انا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلمتني ، قم واجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك .

فقال اسحق لابنه : ما اسرع ما اصطدت يا بني؟ فقال : ان الرب الهك قد يسر لي فقال اسحق ليعقوب : تقدم لاحسك يا بني ، أنت هو ابني عيسو ام لا؟ فتقدم يعقوب الى اسحق أبيه؟ ، فجلسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو ، ولم يعرفه لان يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه فباركه ، وقال : هل انت ابني

عيسو، فقال: أنا هو، فقال قدم لي لاكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي، فقدم له فاكل واحضر له خمرافشرب، فقال له اسحق أبوه: تقدم وقبلني يا بني، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه وقال: انظر، رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب.

فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الارض وكثرة الحنطة والخمر، ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيداً لاختوك وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين، وحدث عندما فرغ اسحق من بركة يعقوب وفي حين خروج يعقوب من عند أبيه فاذا بعيسو اخاه قد اتى بصيده، فصنع هو اطعمة ودخل بها الى أبيه، وقال لابي: ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك فقال له اسحق أبوه: من أنت؟ فقال؟: انا ابنك، بكرك عيسو فارتعد اسحق ارتعاداً عظيماً، وقال: فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به اليّ فأكلت منه قبل ان تجيء وباركته؟ فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة وقال لابي: باركني أنا ايضاً يا أبي، فقال: قد جاء اخوك بمكر وأخذ بركتك»^(١).

ونطالع في الفصل الآتي هذا المعنى:

«ثم إن اسحاق استدعى يعقوب ودعى له بالخير والبركة، واوصاه ايضاً بوصية وقال لا تتزوج بامرأة من بنات كنعان... وان الله القادر المطلق سيبارك لك وسيحيطك برعايته وعنايته لكي تصبح قيماً على جماعة الامم، وليمدك الله ولك ولنسلك ببركة ابراهيم حتى ترث الارض التي اعطاها الله لابراهيم ليسافر فيها»^(٢).

خلاصة الحكاية تقع في إن اسحاق كان له ولدان الاكبر يسمّى «عيسو» والأصغر يسمّى «يعقوب»، في اواخر ايام حياته حينما فقد بصره قرّر على ان

١ - سفر التكوين ٢٧: ١ - ٤٠.

٢ - سفر التكوين: فصل ٢٨ الجمل من ١ الى ٤.

يجعل ولده الاكبر وصياً ونائباً عنه من بعده وبارك له (تستفاد من القرائن ان المقصود من هذه البركة هو نفس مقام النبوة والروح الرسالية وقيادة الامة) إلا ان يعقوب توّسل بالحيلة وادّثر بثوب اخيه الاكبر بأمر من أمّه التي كانت متعلّقة به وتفضّل له ان يقوم مقام اسحاق ، ثمّ ربط على يده وعنقه قطعة من جلد الغنم لأن بدن اخيه كان مكتسباً بالشعر، مما قد يفضي به ذلك الى أفشاء سره لدى ابيه - الانسان الذي يكسوه الشعر الى هذا الحد بحيث يكون بدنه كالغنم غريب في بابه واقعاً - وبالتالي شغل مكان اخيه الاكبر بالحيلة والكذب والشعوذة والخداع ، واقتنع والده العجوز بلمس يده المكسوة بالصوف فقط مع إنه قد عرف صوته في الوهلة الاولى ثمّ إنّّه دَعا في حقه وبارك له في عمله وأعدّه وصياً ونائباً عنه وقيماً على أهله واسرته ، وحينما اطلع اخوه الاكبر على القضية بكى بكاءً مرّاً ، إلا ان الأمر قد انتضى ، فحينما طلب من ابيه ان ينزل البركة عليه أيضاً ، سمع جواباً يقضي بانتهاء البركة وان ما كان منها استأثره اخوه يعقوب به ولم يعد هناك فرصة لاعادة النظر!!

والغريب في الامر هو ماذهب اليه اله اسحاق من تأييده هذا العمل أيضاً ، وتسليم مقام النبوة لرجل محتال وكذاب ومزيف ، وعلى حد قول التوراة انه انشأ وتعهده وطاف به كثيراً وجعله مالكا للجماعة والامم ووارثا لملك ومآثر نبيه (ابراهيم) العظيم ، وليس فقط اسرة اسحاق مأمورة باتباعه فحسب ، بل ان سائر الناس مأمورون باتباعه والخضوع له تعظيماً واجلالاً له .

كيف يمكن اعتبار هذه الاسطورة الكاذبة والمضحكة على انها وحي سماوي؟!

لو ان شخصاً استولى على مقام بسيط بالحيلة والكذب - كأن يرتدي على سبيل المثال زيا عسكريا متواضعا - فإنه بعد الكشف عن حقيقته ليس فقط

يسلبون منه ذلك ، ويخلعون عنه هذا اللباس بل يعاقبونه على هذا العمل أيضاً، لكن كيف يمكن الاستيلاء على مقام النبوة والحصول على البركة الالهية وقيادة المجتمع بالخداع والمكر، ثم الابقاء عليه واستدامته بعد الكشف عن حقيقته المخزية؟!



٨- نسبة صنع الخمر الى النبي المسيح ﷺ

أولى القرآن الكريم احتراماً بالغاً للسيد المسيح ﷺ وتحدث عنه في سور متعددة (من قبيل سورة البقرة وآل عمران والمائدة وبعض السور الأخرى)، وأشار به بعنوان كونه احد انبياء أولو العزم (صاحب شريعة وكتاب سماوي) الذي له معجزات كثيرة، نقرأ في الآية (٤٨ و ٤٩ من سورة آل عمران) قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْانْجِيلَ - وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْكَلِمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

وبناء على ذلك تشكل المعاجز الأربع من (خلق الطير) و(شفاء المرضى المأیوس من معالجتهم) و(احياء الاموات) و(الاخبار عن الغيب) (التي كانت تتحقق بأذن الله) معاجز السيد المسيح ﷺ (وفقاً لبيان القرآن).

وفي موضع اخر يعد نزول المائدة السماوية (طعام الجنة) احدى معاجز المسيح ﷺ وذلك في (سورة المائدة آية ١١٥) نظراً الى اعتبار المسائل المعقولة والمقبولة من المعاجز بصورة عامة، والان لنقلي نظرة على ماتقوله

(الانجيل) في هذا المجال في الباب الثاني من «انجيل يوحنا» الانجيل الرابع من الانجيل الاربعة هذا المعنى :

(وفي اليوم الثالث كان في قانا الجليل (أحد مدن بيت المقدس) عرس، وكانت أم يسوع هناك فدعي يسوع وتلاميذه إلى العرس ونفذت الخمر، فقالت له أمه: «مابقي عندهم خمر» فأجابها: «ومالي ولك يا امرأة ما جاءت ساعتني بعد»، فقالت أمه للخدم: «اعملوا ما يأمركم به».

وكان هناك ستة جرات من حجر يتطهر اليهود بمائها على عادتهم، يسع كل واحد منها مقدار مكيالين أو ثلاثة، فقال يسوع للخدم: «املأوا الجرات بالماء» فملأوها حتى فاضت فقال لهم: «استقوا الآن وناولوا رئيس الوليمة» فناولوه فلما ذاق الماء الذي صار خمرًا، وكان لا يعرف من أين جاءت الخمر، لكن الخدم الذين استقوا منه كانوا يعرفون، دعا العريس وقال له: «جميع الناس يقدمون الخمر الجيد أولاً، حتى إذا سَكَّر الضيوف، قدموا إليهم الخمر الرديء، أما انت فأخرت الخمر الجيد إلى الآن»^(١)

يستشف من هذ القصة النكات التالية :

١ - لما دخل السيد المسيح مع أمه مريم إلى محفل العرس ونفذت المشروبات الخمرية أقدم وبايعاز من امه على خلق المعجزة، وأبدل ست جرات ممتلئة بالماء إلى خمور صافية، بحيث ان الطعم اللذيذ لها استهوى على افئدة الحاضرين.

٢ - هذه هي المعجزة الاولى من نوعها للمسيح ﷺ والتي تحققت بايعاز من أمه.

٣ - عظم شأن السيد المسيح وجلّ قدره من خلال هذه المعجزة (تبديل

الماء الى خمر) مما أدى ذلك الى ايمان تلامذته به .

والطريف هنا ان اهالي مدينة قانا الجليل ، لم يبرحوا يصنعون جرات المياه ويبيعوها للزوار والسياح احتفاء بذكر جرات الخمر التي حدثت بأعجاز السيد المسيح ﷺ .

مما لاشك فيه ان هذه هي من احد الاساطير المفتعلة والكاذبة المنسوبة الى هذا النبي العظيم ، ولا يخفى على أحد ماللخمر من قبح واضرار غير قابلة للحصر ، وقد منعت وحرمت في كافة الاديان السماوية ، حتى انه سبق التصريح بها في نفس الكتب المقدسة لليهود والنصارى ، كما ورد ذم الخمر بلهجة شديدة في كتاب «امثال سليمان» اذ يقول هناك :

«لن الويل لمن الشقاوة لمن المخاصمات لمن الكرب لمن الجروح بلا سبب لمن ازمه رار العينين ، للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون في طلب الشراب الممزوج ، لانتظر الى الخمر اذا احمرات حين تظهر حبابها في الكأس وساعت مرقوقة وفي الاخر تلسع كالحية وتلدغ كالا قحوان»^(١).

يفهم من هذه العبارة جيدا ان مفسد الخمرة كثيرة جدا فهي السبب الاساسي لكل الالام الجسدية والهموم النفسية والفكرية والمنازعات والمصادمات والاختلافات الاجتماعية ، وهي من عوامل شقاء الانسان وبؤسه ، وتفعل فعلها في وجود البشر كسم الحية وهي مبرر كاف على انعدام العفة والسقوط في وحل الانحرافات الجنسية السيئة والوقوع في شرك انواع التخييلات والابتلاءات التي طرح في هذه العبارات شكل واضح جدا .

ونقرأ في موضع آخر من كتاب «امثال سليمان» هذه العبارة : الخمرة المستهزئة (وهي التي تدعو الانسان الى ان يقوم بحركات ويتحدث بكلمات

تفضي إلى الاستهزاء والسخرية) والمسكرات الصاخبة (وهي التي تسبب المنازعات والمخاصمات) وكل من يقع في أسرهِ لا يصبح حكيماً^(١).

كما ونقرأ في الفصل ٢٨ من كتاب اشعيا هذه العبارة أيضاً: «أما هؤلاء (إشارة إلى مجموعة من المنحرفين) فقد ضلوا طريقهم وفقدوا صوابهم بفعل الخمر والمسكرات أيضاً».

وجاء في موضع آخر من نفس الكتاب هذا المعنى: «الويل لأولئك الذين استعانوا بشرب الخمرة على الغلبة ويمزج المسكرات على القوة»^(٢) أي إن قواهم تتحرك من خلال شرب الخمرة وتستعد للمقاتلة.

وجاء في كتاب هوشيع (من التوراة): (إن الزنا والخمر وعصير العنب «بصورته المسكرة» كل منهم يؤدي إلى ضعف القلب)^(٣).

يتضح من هذه العبارات جيداً أن المعول في حرمة الخمر ليس كونها من المشروبات العادية إنما لكونها من المائعات المسكرة التي تلحق الضرر بالجسم والروح الانسانية وتؤدي إلى الضياع والشتاء.

بناء على هذا أليس من المخجل أن يقال أن المعجزة الأولى للسيد المسيح ﷺ التي ظهرت في مدينة قانا الجليل تبلورت في التحول الذي طرأ ببركته على عدة ظروف كبيرة ممتلئة بالماء إلى خمور صافية، وعندما نقارن ذلك مع المعاجز القرآنية للسيد المسيح يتضح لنا مدى الفاصلة بين التواريخ المختلفة في ذهن البشر وبين التاريخ الواقعي الناشيء من طريق الوحي.



١ - المهد القديم، كتاب امثال سليمان، فصل ٢٠، جملة ١.

٢ - كتاب اشعيا: فصل ٥، جملة ٢٢.

٣ - كتاب هوشيع فصل ٤، جملة ١١.

٩- المسيح ﷺ ودعوى الألوهية

القرآن يبريء ساحة السيد المسيح ﷺ من أي لون من ألوان الادعاء المزيف على صعيد الألوهية ، ويقول بصراحة : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ «المائدة ١١٦-١١٧» .

والان لننظر الى ما نقوله الاناجيل في صدد المسيح ﷺ .

نقرأ في انجيل يوحنا هذا المعنى :

(وجاء عيد التجديد في اورشليم ، وذلك في الشتاء وكان يسوع يتمشى في الهيكل في رواق سليمان فتجمع اليهود حوله وقالوا له : «الى متى تبقينا حائرين؟ قل لنا بصراحة : هل أنت مسيح؟

فأجابهم يسوع : «قلت لكم ، ولكنكم لاتصدقون ، الاعمال التي أعملها باسم أبي تشهد لي ، وكيف تصدقون وماأنتم من خرافي ، خرافي تسمع صوتي وانا أعرفها وهي تتبعني اعطيها الحياة الابدية فلا تهلك أبدا ولا يخطفها أحد مني الاب الذي وهبها لي هو أعظم من كل موجود ، وما من أحد يقدر ان يخطف من يد الاب شيئا ، أنا والاب واحد» .

وجاء اليهود بحجارة ليرجموه فقال لهم يسوع : «اريتكم كثيرا من الاعمال الصالحة من عند الاب ، فلاي عمل منها ترجموني .

أجابه اليهود : لانرجمك لاي عمل صالح عملت بل لتجديفك فما أنت الا

انسان، لكنك جعلت نفسك إلهًا.

فقال لهم يسوع: «أما جاء في شريعتكم ان الله قال: أنتم الهة؟ ماذا كان الذين تكلموا بوحى من الله يدعوهم الله الهة، على حد قول الشريعة التي لا ينقضها أحد، فكيف تقولون لي، انا الذي قدسه الاب وأرسله الى العالم: أنت تجدف لابي قلت: انا ابن الله؟ اذا كنت لا أعمل اعمال ابي فلا تصدقوني واذا كنت اعملها فصدقوا هذه الاعمال ان كنتم لاتصدقوني حتى تعرفوا وتؤمنوا ان الاب فيّ وأنا في الاب»^(١)

يتضح من خلال هذه العبارات عدة نكات :

١ - اتهم اليهود عيسى من ذي قبل على انه ادعى الالهية واصدروا حكما بتكفيره ورميه بالحصى .

٢ - يقول المسيح تارة في صدد الدفاع عن نفسه : انا الذي قلت اني ابن الله ، وان ابي الله ، وتارة اخرى يقول : انا اقوم باعمال الهية ، ولو لم انجز ذلك فلا تصدقوا كلامي ، ولو انجزت ذلك فصدقوا اني حال في الله والله حال في نفسي .

ان التعبير بالاب والابن والقيام باعمال الهية ، والقول بحلول الانسان في الله والله في الانسان ، كلها تعبيرات الحادية ، لاتلتئم مع كافة الموازين المنطقية ، ولا دليل على ان يدلي احد الانبياء بمثل هذه العبارات في حق نفسه وحق الله تعالى ، ولو بصورة مجازية ، لان ذلك يؤدي الى وقوع البسطاء في دوامة الاشتباه والالتباس ، ويساهم في ان يجد الاعداء الذريعة المناسبة لان يرموه بالحصى متى ماشاؤا .

هذا في الوقت الذي يقول القرآن في الايات التي تلونها سابقا بصراحة

تامة ان المسيح ﷺ لم يصدر من قبله أي ادعاء سوى العبودية لله ودعوى النبوة والرسالة وكان في غاية الخضوع والتذلل في مجال العبودية والتسليم لامر الله تعالى.

وفي آيات اخرى يقول أيضاً: ان كل ما أنجزه من معاجز كان جميعه بأذن الله ، فقرأ في (سورة المائدة الآية ١١٠) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَظْفَارِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِأَظْفَارِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِأَظْفَارِي﴾.

ان المقارنة بين هذا النوع من المسائل التاريخية في القرآن وبين ماورد منها في الانجيل ليضع الحدود الفاصلة بينهما ويبين ايهما هو الصادر من قبل الله حقاً، وايهما هو المحرف والمختلق من الذهن البشري.



١٠- حضور المرأة العاصية في مجلس السيد المسيح ﷺ

لم تظهر في الآيات المختلفة للقرآن التي وردت في حق السيد المسيح حتى الحد الأدنى من ترك الأولى ، وقد وصفت الآيات التي وردت في شأن أمه مريم قداستها في اجلى صورها ، بحيث انها ذعرت بشدة والتجأت الى الله حينما شاهدت ملك الوحي الذي جاءها من قبل الله ليهبها ولداً ، (لانه ظهر امامها على هيئة شاب جميل مجهول) حتى انها لما قاست من آلام وضع الحمل ، وجسدت في مخيلتها مستقبل حياتها ، بأن من الممكن ان ينسب لها الاعداء والبسطاء النسب القبيحة؛ قالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْهَا﴾ «مريم - ٢٣».

غير ان نبياً بهذه القداسة بحيث ينطلق لسانه بأمر من الله في المهد ،

ويبرهن عملياً على طهارة أمه ، ويتحدث عن الصلاة والزكاة ، وكل مظهر من مظاهر التقوى من تلك اللحظة ، مثل هذا النبي يرد وصفه في بعض الاناجيل باوصاف تبعث كل قارئ على الدهشة والاستغراب .

والآن لنستمع وننظر الى ما بينه «انجيل لوقا» عن حكاية المرأة السيئة الصيت التي جاءت الى المسيح ﷺ وتابت : (ودعا أحد الفريسيين (إحدى فرق اليهود ، والفريس بمعنى العزلة) الى الطعام عنده فدخل بيت الفريسي وجلس الى المائدة وكان في المدينة امرأة خاطئة فعلمت ان يسوع يأكل في بيت الفريسي وجاءت ومعها قارورة طيب ، ووقفت من خلف عند قدميه وهي تبكي واخذت تبل قدميه بدموعها وتمسحهما بشعرها ، وتقبلهما وتدهنهما بالطيب فلما رأى الفريسي صاحب الدعوة ماجرى ، قال في نفسه : « لو كان هذا الرجل نبيا لعرف من هي هذه المرأة التي تلمسه وما حالها فهي خاطئة! » فقال له يسوع : «يا شمعون ، عندي ما اقول لك» ، فقال شمعون : «قل يا معلم» ، فقال يسوع : «كان لمدين دين على رجلين : خمسمئة دينار على أحدهما وخمسون على الآخر وعجز الرجلان عن ايفائه دينه ، فاعفاهما منه فأيهما يكون اكثر حباً له؟» .

فأجابه شمعون : «اظن الذي اعفاه من الاكثر» فقال له يسوع : «أصبت» والتفت الى المرأة وقال لشمعون^(١) : «أترى هذه المرأة؟ أنا دخلت بيتك فما سكبت على قدمي ماء واما هي فغسلتهما بدموعها ومسحتهما بشعرها انت ما قبلتني قبله وأما هي فما توقفت منذ دخولي عن تقبيل قدمي ، أنت مدهنت رأسي بزيت ، واما هي فبالطيب دهنت قدمي ، لذلك اقول : غفرت لها خطاياها الكثيرة لانها أحببني كثيراً وأما الذي يغفر له القليل فهو يحب قليلاً» ثم قال للمرأة : «مغفورة لك خطاياك!»

١ - شمعون في الاصل بمعنى السامع ، وقد أشير الى اسماء ١٠ أشخاص في الكتاب المقدس للمسيح طبقاً لما قاله مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) ، وكان أحدهم شمعون الفريسي .

فأخذ الذين معه على المائدة يتساءلون «من هذه حتى يغفر خطاياها»^(١).

ملخص هذه الحكاية تقع في ان السيد المسيح ينزل في بيت لاجل الفريسيين وهم كانوا طائفة من اليهود، ولا يبدي له صاحب البيت احتراماً بالغاً، وما ان اطلعت المرأة العاهرة والمنحرفة^(٢) التي تسكن ذلك البلد على حضوره حتى توجهت الى بيت اليهودي وكانت العادة الجارية في ذلك العصر على غسل رجل الضيف اكراماً له، وطلبي شعره بالدهن احياناً لان الناس كانوا يمشون حفاة غالباً، ونظراً لعدم امتلاكهم وسيلة للتنظية والحفظ في الاسفار كانت شعور وقشور ابدانهم تصاب بالجفاف على اثر هبوب الرياح.

ووفقاً لهذه الحكاية المثتلة قامت المرأة العاهرة بغسل رجلا المسيح ﷺ عوضاً عن الماء، وجففته بشعرها الطويل عوضاً عن المنشفة، وقبلته بشفتيها بحرارة، بحيث ادى هذا المشهد المثير الى استياء الرجل اليهودي صاحب البيت وقلقه، وقال في نفسه ان كان هذا نبياً وواقفاً على سيرة هذه المرأة لردع عن هذا العمل على الاقل، المسيح بفراسته علم بذلك، واقنعه بذلك من خلال المثال الذي ضربه في صدد الشخصين المديونين واعرب له: انني كنت ضيفك الا انك لم تقم بما قامت به المرأة المنحرفة من حسن الضيافة، فأنت لم تغسل رجلي بالماء وهي غسلته بدموع عينيها وانت لم تقبلني وهي قبلت رجلي بلا انقطاع، ولم تدلك رأسي بالدهن وهي دلكت رجلي بالعطر.

والآن لنبدأ قليلاً بتحليل هذه القصة، لنرى هل من المناسب لهذا النبي العظيم وحتى لمؤمن عادي ان يضع نفسه تحت تصرف امرأة عاهرة كي تعامله

١ - انجيل لوقا باب يسوع يغفر لامرأة خاطئة ص ١٨٣.

٢ - هذه المرأة هي مريم مجد ليه كانت عاهرة ومتمولة، فأعلنت عن توبتها على يد السيد المسيح ﷺ طبقاً لما جاء في انجيل لوقا في الباب الثامن.

بمثل هذه المعاملة .

اولاً: ان السيد المسيح ﷺ كان شاباً يناهز عمره الثلاثين عاماً في ذلك العصر، ولا بد ان تكون تلك المرأة العاهرة شابة وجميلة أيضاً، ولا يعقل ان تكون قبيحة المنظر منهوكة القوى في الاعم الاغلب فكيف يتأتى لنبي عظيم بعث لتهديب الاخلاق ونشر مظاهر التقوى ان يسمح لامرأة فاجرة بأن تمسح برجليه مرات متعددة ثم تغسله بدموع عينيها وتجففه بشعرها الناعم وتدهنه بيديها الظريفتين وتطبع عليه قبلات حارة فهل يُعقل هذا؟

وعلى فرض انها ارادت التوبة من وراء ذلك فان للتوبة حدوداً وقيوداً أيضاً، وهل سبق لاحد الى يومنا هذا ان يتعامل مع أحد الروحانيين أو الرهبان العادين بمثل هذه المعاملة، حتى تصل الى نبي من انبياء الله؟

وعلى كل حال فالآثار الخرافية لهذه الرواية ظاهرة من بين ثناياها بصورة كاملة، فضلاً عن ان مذكره السيد المسيح ﷺ من المثل لا يعتبر جواباً على استفسار اليهودي على الاطلاق.

فاشكال اليهودي لم يقع على عظم محبة هذه المرأة حتى يأتي الجواب على ان عظم محبتها وشدة تعلقها ناتج عن كثرة ذنوبها، وانما وقع للاستفسار عن السبب في سماح نبي من أنبياء الله بأن تمسح امرأة عاهرة وسيئة السمعة برجليه الى هذه الدرجة ثم تغسلهما بدموع عينيها، وتجففهما بشعرها، وتدلكه بالعطر والدهن، فمما لا شك فيه ان كثرة الذنوب وقلتها لا صلة له بهذا العمل من قريب أو بعيد.

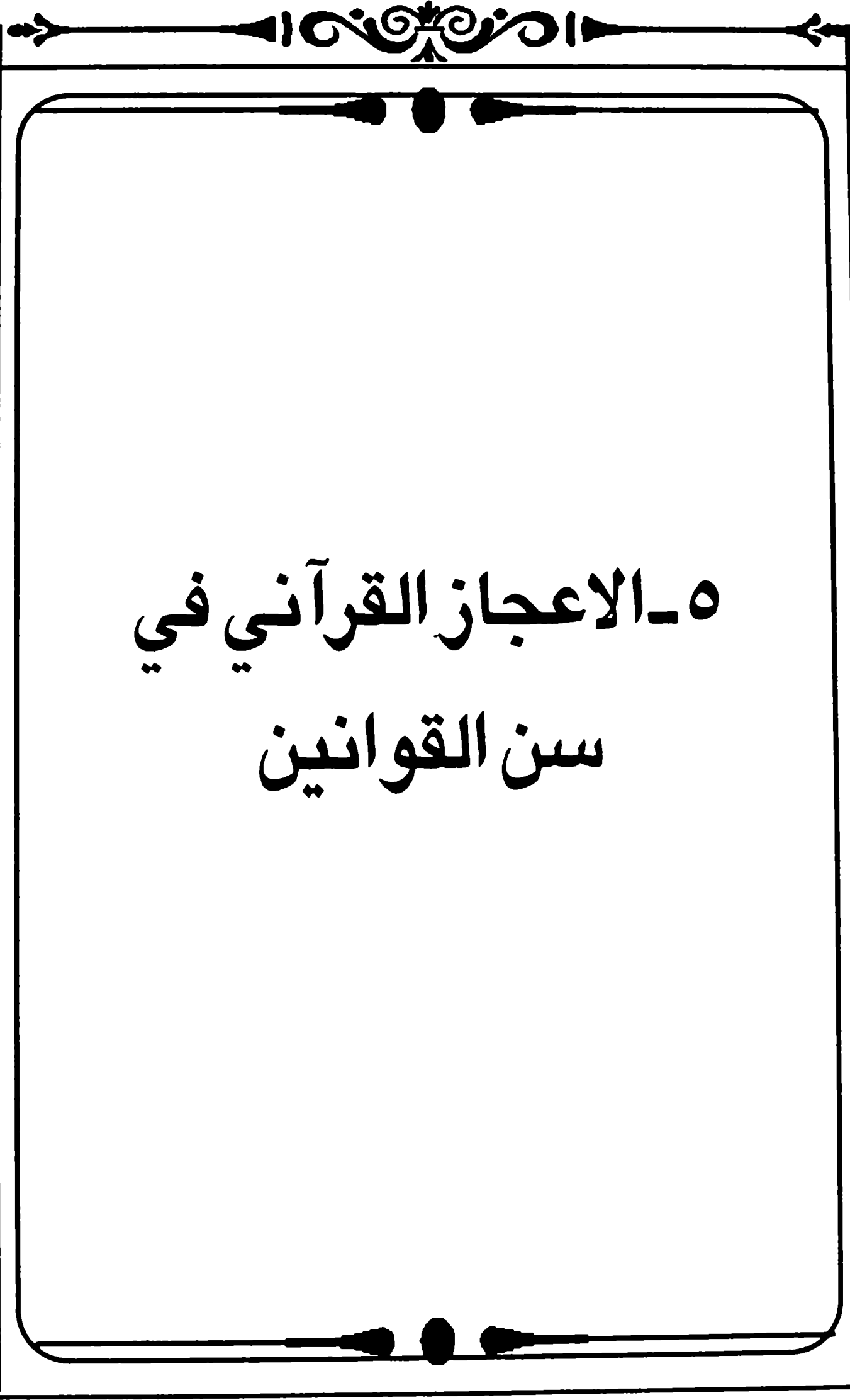
وعليه فما جاء في تواريخ القرآن من وقائع وحوادث عن السيد المسيح ﷺ تنزهه وتبرء ساحته من مثل هذه النسب



نتيجة البحث

يستنتج مما ذكر سابقاً ضمن هذه النقاط العشر ومن خلال ما أجريناه من مقارنة واضحة بين تواريخ العهدين (الكتب المقدسة لليهود والنصارى) هي نفس الكتب التي عُدت من أهم المصادر التاريخية للاديان في عصر نزول القرآن - على ان القرآن لا يمكن ان يكون وليد الفكر الانساني اطلاقاً، لان ذلك يستلزم ان يتأثر بها وقابلية التأثر هذه تترك اثرها في نقل وقائع هذه القصص، فدلّت نزاهة التواريخ التي ينقلها القرآن من هذه الخرافات والنسب القبيحة خصوصاً فيما يتعلق بشرح وقائع الانبياء على انه صادر من منبع العلم الرباني وانه معجزة خالدة على مر الدهور.





٥- الإعجاز القرآني في سن القوانين

٥- الاعجاز القرآني في سن القوانين

من المعلوم انه قد ورد في القرآن الكريم بالاضافة الى المعارف والتعاليم المرتبطة بالمبدأ والمعاد والمسائل الاخلاقية والتاريخية والتشريعات المتعلقة بالعبادات ، مجموعة من القوانين الاجتماعية أيضاً ، والتي ترسم معالم القانون الاساسي للاسلام وبعض القوانين المدنية الحقوقية والجزائية المتعلقة به .

أي اعمال الدقة والتأمل في هذا المقطع القرآني يكفي لوحده في اظهار معجزة القرآن استناداً الى ان ظهور وبروز هذه القوانين الحكيمة جداً والتي ستاتي أمثلتها فيما بعد في محيط تحكمه شريعة الغاب أو بعبارة اخرى في جو يضجُّ بالفوضى والتسيب بإمكانها ان تحمل كل فرد منصف على التسليم والاذعان ، لذا نحن لسنا ملزمين بأن نفتش عن عظمة هذا الكتاب السماوي واعجازه في المسائل المرتبطة بالفصاحة والبلاغة ، أو المعارف والعلوم والجوانب التاريخية فقط ، بل ان الاختصار على البحث في مجموعة المقررات القرآنية يفتح نافذة بوجه هذا العالم الكبير .

وهنا ينبغي وقبل كل شيء ان نقدم مقدمة قصيرة حول بيان معنى القانون الصالح وحقيقته ، وذلك من أجل تدعيم أساس هذا البحث .

ماهي افضل القوانين ؟

من الصعوبة الجواب على هذا السؤال ولكن اذا وقفنا على الحكمة الواقعية من وراء وضع القوانين في المجتمعات الانسانية فان معالم الطريق ستصبح واضحة .

المسألة تكمن في ان الانسان يتمتع بروح ويعود الفضل في كافة مكتسباته وانجازاته الى هذا العيش المشترك ، ان هذا التعايش الاجتماعي المتبادل هو الذي يؤدي الى تآزر وتعاضد أفكار المفكرين وعلوم العلماء والابتكارات والابداعات في سائر انحاء المجتمع البشري وانتقاله من جيل الى آخر، ومن ثمّ نشاهد التطورات والانجازات المهمة على صعيد العلوم والمعارف الانسانية المتمدنة يوماً بعد آخر .

وأياً كان الدافع من وراء الاهتمام بهذا التعايش المشترك فان له موضوعاً مستقلاً للبحث ، ولكن مما لا شك فيه اذا كانت حياة الناس متبعثرة ومتشتة كسائر الحيوانات الاخرى لم يكن هناك أي فرق بين انسان اليوم وانسان العصر الحجري ، ولم يكن يوجد معنى للعلم والتحدث والاختراع والاكتشاف ولا الصناعات والفنون ولا اللغة والاداب ولا لاي شيء اخر، الا ان لهذه الحياة الاجتماعية طواريء ومشاكل اذا لم يتم الوقاية منها بشكل صحيح فانها تؤدي الى حدوث النكبات والويلات التي تردي بحياة النسل الانساني فضلاً عما يترتب على ذلك من توقف لعجلة التكامل والرقى .

إنّ هذه الافرازات عبارة عن : الصراعات التي تنشأ من تصادم المنافع وتزاحم الحقوق وطلب الاستعلاء ، وحب الاستئثار، والانانيات والمنافع الشخصية والتي تؤدي بدورها الى حدوث الاصطدامات والنزاعات

والمناوشات الفردية أو الجماعية ونشوب الحروب الاقليمية ، أو الدولية ، ولهذا ادركت المجاميع الانسانية منذ تلك اللحظة هذه الحقيقة وهي انه لو لم توضع المقررات اللازمة لتعيين حدود اختيارات الافراد وحقوقهم واسلوب حل المنازعات والمصادمات والمشاجرات ، لانقلبت الموازين الاجتماعية رأساً على عقب وادت الى حدوث كارثة كبرى .

وأساساً انما يأخذ المجتمع الواقعي طريقه الى الوجود والظهور بعد ان تسودها حالة التعاون والتعاقد والتعاطف بين أفرادها ، ومثل هذا الامر لا يتحقق الا في ظل وضع القوانين والمقررات ، وفي الواقع ليس هناك مفهوم للتعاون من دون تعهد اخلاقي ، وهذا التعهد بحد ذاته منشأ حدوث القانون .

علاوة على ان من الخطأ ان نعتبر وظيفة القانون منحصرة في نطاق الحد من حدوث الاعتداءات وانهاء الاصطدامات - وان كان هذا هو الهدف من وضع الكثير من القوانين - بل يقع على عاتق القانون قبل هذا مسؤولية تحكيم العلاقات الاجتماعية وايجاد الضمانات والتعامل معها بصدق وأمانة وتأمين الحرية اللازمة لتنوع الاستعدادات ونموها ، وتمركز القوى وتعبئة الامكانيات باتجاه معين من اجل توسيع رقعة التكامل .

والواقع ان القانون هو بمثابة الدم الجاري في عروق المجتمع البشري ، لهذا لا بد من القول بصراحة : انه اذا انعدم القانون لم يكن لوجود المجتمع معنى ، ولم يتحقق التقدم والازدهار .

اذاً لم يعد الجواب على هذا السؤال السابق متعسراً ، فالقانون الأفضل هو الذي يمتلك صلاحية اكثر في تأمين الامور التالية :

١ - أن يجمع بين كافة القوى المتبعثرة للمجتمع الانساني تحت راية واحدة قوية، ويحل الاختلافات الموجودة فيه كاختلاف الالوان والقوميات واللغات .

٢ - أن يهيء الأرضية المناسبة لنمو الاستعدادات الدفينة وتطوير القدرات الخلاقة .

٣ - أن يؤمن الحرية الواقعية حتى يتمكن جميع الافراد من العمل على تنمية استعداداتهم في ظلها .

٤ - يحدد الحق المشروع لكل شخص من الاشخاص وكل فئة من الفئات كي يقف حاجزاً دون حصول الاصطدامات والاعتداءات .

٥ - أن يعمق في النفوس روح الاعتماد والاطمئنان من خلال تعيين نظام اجرائي صحيح مضمون .

٦ - القانون الصالح ليس كما يتصوره البعض بأنه القانون الذي يحمل معه مجموعة من القوانين العريضة والموسعة والتي تشتمل على الاجهزة القضائية الواسعة وشرطة وسجون كثيرة ، بل ان هذا يدل على ضعف ذلك القانون وذلك المجتمع وعجزهما ، فالقانون الصحيح هو الذي يتخذ اجراءات وقائية مناسبة من خلال وضع التعليمات الثقافية والمقررات الصحيحة حتى لاتدعو الحاجة الى التوسل بمثل هذه الامور .

إن الاجهزة القضائية والعقوبات والسجون بمثابة الطب العلاجي او بعبارة اصح بمثابة اجراء عملية جراحية للمريض ؛ بينما القوانين السليمة والمقررات الدقيقة بمثابة الطب الوقائي الذي يعتبر اقل مؤنة واسلم طريقة لخلوه من الطوارئ والاحطار .

بعد هذه المقدمة نعود الى القرآن مرة أخرى لندقق في قوانينه ونبحثها .

مزايا القوانين القرآنية

قبل كل شيء نرى من اللازم ان نذكر هذه النكته وهي ان جميع هذه

القوانين انما خرجت في محيط الحجاز ذلك المحيط الذي لا يعرف للقانون معنى تقريباً، والأمر الوحيد الذي حكم بشكل قانوني في اوساط قبائله هي الآداب والرسوم المحدودة والممتزجة بالخرافات، لذا فان ظهور القوانين الاسلامية في مثل هذا المحيط بعد بحق ظاهرة عجيبة لا يتصور في حقه أي توجبه طبيعي سوى القبول والتسليم بأن ذلك كله صادر من الله تعالى.

اولاً: الشمولية والسعة

بالرغم من ان القرآن نزل في محيط مغلق من جهات مختلفة، ومحدود في ارتباطه مع عالم ماوراء شبه الجزيرة والطابع الذي يسود ارجاءه هو طابع القومية والعنصرية والحياة القبلية فكان من الطبيعي حتماً ان يصطبغ مثل هذا المحيط بصبغة القومية العربية، بل بصبغة التعصب القبلي مما يلفت النظر ان القوانين لم تصطبغ بهذه الصبغة بأي شكل من الاشكال حتى انه لم يرد الخطاب بيا أيها العرب ولا مرة واحدة في القرآن فالحديث يرد عامة الناس في كل المواضع والخطابات وردت بصبغة - يا بني آدم^(١) ويا أيها الناس^(٢) ويا أيها الذين آمنوا^(٣) ويا عبادي^(٤) ويا أيها الانسان^(٥) - فاذا المخاطبين في القرآن هم جميع اهل العالم وقوانينه ناظرة الى البشرية جمعاء.

ومما يدل على هذا المدعى أيضاً آية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وآية ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ «الفرقان - ١» وآية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ «يوسف - ١٠٤» ونظائرها.

لقد نبذ القرآن الامتيازات العنصرية - في ذلك المحيط العنصري - بحيث

١ - وردت خمس مرات.

٢ - وردت ٢٠ مرة.

٣ - وردت ٨٠ مرة.

٤ - وردت خمس مرات.

٥ - وردت مرتين.

اولى اهتماماً كبيراً وعناية فائقة بالاواصر الاخوية لجميع ابناء البشرية من خلال اطروحته الرائعة المتضمنة هذا المعنى «أنتم جميعاً أبناء آدم وخلقتم من أب وأم واحدة» فأنتم جميعاً أخوة أسرة واحدة، يقول عز من قائل في هذا المضمار: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (الحجرات - ١٣).

وفي موضع آخر ينفي كافة الارتباطات المحدودة ويبلور العلاقة القائمة بين المؤمنين في اطار الاخوة والصداقة التي هي من اقرب العلائق التي تقوم على اساس المساواة والمواثاة اذ يقول عز من قائل: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أُخُوَّةٌ» (الحجرات - ١٠) ومما يدعو الى الانتباه والالتفات في هذه الآية هو مجيء كلمة «إنما» التي تستعمل للحصر.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أحاطت هذه القوانين بشموليتها سائر أنحاء الحياة البشرية بدءاً من أهم المسائل الاعتقادية (كالتوحيد) وإنهاءً بأبسط المسائل الأخلاقية والاجتماعية، (كالرد على السلام وعلى أي لون من ألوان التحية والاستقبال، فعلى سبيل المثال يقول تعالى في أحد المواضع: «وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا» (النساء - ٨٦).

وقد ضمَّ القرآن الكريم بين دفتيه آية تُعدُّ من أطول الآيات القرآنية التي دار الحديث فيها حول كتابة الديون والحقوق، فقد ذكر فيما يتعلق بهذه المسألة عشرين حكماً الهياً، وهي (الآية ٢٨٢ من سورة البقرة) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن تطرق القرآن للمسائل المرتبطة بالعقائد والمعارف الإسلامية لا يتنافى بتاتاً مع بيانه للاحكام الضرورية العملية أيضاً، ولا نقصد من ذلك أنه قد تم بيان جميع جزئيات الأحكام والقوانين على صعيد الظواهر القرآنية، لأن

مما لا يقبل الشك أن حجمها يعادل أضعاف حجم القرآن ، وإنما المقصود أنه تعالى قد بيّن الأصول والقواعد الضرورية في كل مورد من الموارد القرآنية .
ولا يضير في هذا المجال أن نشير إشارات مختصرة إلى مقتطفات من هذه
الأصول :



١ - التوحيد الحجر الأساس في كل شيء

استند القرآن في المسائل الاعتقادية قبل كل شيء إلى أصل التوحيد ، وقد أشير إلى هذه المسألة مئات المرات في الآيات القرآنية ، بحيث رسم الخطوط العريضة لأدق المفاهيم التوحيدية التي أن يقول في صدد الحديث عن ماهية الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ «الشورى - ١١» ، وكما أنه بين صفاته الجلالية والجمالية في مئات الآيات ويمكنك في هذا المجال مراجعة المجلد الثالث لهذا الكتاب (رسالة القرآن) ، ولا يفت الأمر عند تعريفه بوحداية الله من كل جهة ، بل يعتبر نبوة الأنبياء دعوة واحدة أيضاً ، بحيث لا يرى وجود الاختلاف والتفرقة بينهم ، لذا يقول : ﴿لَا تَفَرَّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ «البقرة - ٢٨٥» ، بالرغم من حمل كل واحد منهم مسؤولية خاصة به وفقاً للمتطلبات الزمنية التي يعيش فيها كل نبي ، أن حقيقة دعوتهم وجوهرها واحدة في كل المواقع .

بالإضافة إلى أن مسألة التوحيد تفرض سيطرتها على مرافق المجتمع الانساني أيضاً ، وكما قلنا سابقاً : يعتبر أفراد البشر أعضاء لأسرة واحدة ، ويعبر عنهم بالأخوة المولودين من أب واحد وأم واحدة .

٢ - «العدالة الاجتماعية» اذ يعتبرها من أهم تعاليم الأنبياء ويقول : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

بالْقِسْطِ ﴿العديد - ٢٥﴾.

وتعقياً لهذه الغاية فقد حرص كافة المؤمنون على هذا الأمر أعم من كونهم كباراً أو صغاراً، شيباً أو شباباً، وبغض النظر عن إنتمائهم العنصري أو اللغوي، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ «النساء - ١٣٥».

٣ - وأما على صعيد «الروابط الاجتماعية» والاتفاقيات وكل عهد وميثاق فيدعو الجميع إلى الالتزام بهذا الأصل، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتُوا بِالْعُقُودِ﴾ «المائدة - ١»، ويقول أيضاً: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ «الاسراء - ٣٤».

إن امتداد وسعة هذه الآيات شملت حتى المعاهدة والمفاوضة مع غير المسلمين، وفرضت سيطرتها على العلاقات الاجتماعية والفردية والاتفاقيات الدولية أيضاً.

٤ - وعلى صعيد «الوقوف بوجه الاعتداءات»، وتفادي الاحباطات، يقول في عبارة مختصرة ودقيقة جداً: ﴿فَمَنْ إِغْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا إِغْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ «البقرة - ١٩٤».

٥ - وعلى صعيد «الدفاع» يقدم اطروحة أصيلة ومتينة عامة متجسدة بقوله تعالى: ﴿وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ «الانفال - ٦٠».

وفي هذا الصدد يوصي «بإعداد القوة وتعبئة القوى بصورة عامة»، وتجهيز القدرة الحربية لذلك العصر بصورة خاصة «بعنوان احد المصاديق» وذلك من أجل الحد من وقوع الحرب، والارهاب، والقاء الرعب في قلوب الاعداء، وهذا من الأهداف المنطقية الكبرى لتقوية البنية العسكرية.

٦ - وأما من ناحية المناوشات الكلامية والنزاعات التي تقع بين أصحاب الذهاب والرقباء الاجتماعيين فله وصية أخرى يقول فيها: بدلاً من المقابلة بالمثل وإعداد القوى استخدموا أسلوب مقابلة الضد بالضد، وردّوا القبيح بالحسن كي تُقتلع بذرة النفاق والعداوة من جذورها، يقول عزّ من قائل: ﴿أَذْفَعُ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ «فصلت: ٣٤ - ٣٥».

٧ - وفي ضد «المصير الإنساني» يقول بصراحة: إن مصير كل شخص بيده، وموقوف على جهده وسعيه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ «المدثر - ٣٨».

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَن سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى﴾ «النجم - ٣٩ - ٤٠».

٨ - وحول «حرية العقيدة» وإنه لا يمكن النفوذ في الحيز الفكري لشخص معين إلا عن طريق الاستدلال وتوضيح معالم الدين يقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ «البقرة - ٢٥٦»، وفي مجال «حرية الانسان» يقول: إن أحد الأهداف المهمة لبعثة نبي الاسلام ﷺ هو اطلاق سراح الناس من قيود وسلاسل الأسر والعبودية: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ «الاعراف - ١٥٧»، ولهذه الاغلال مفهوم واسع بحيث تشمل أي نوع من أنواع سلب الحرية الانسانية.

٩ - وفي ضد «عدم التدخل في الأمور الشخصية للآخرين»، والمحافظة على كرامة الافراد، وعدم هتك حرمتهم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ «العجرات: - ١٢».

١٠ - ومن المبادئ التي أكد عليها القرآن الكريم هو مبدأ «التعايش السلمي» مع كافة الأفراد المسالمين الذين يعدونهم من أهل التفاهم والحوار في

الاهداف المشتركة ، أو على الأقل من الذين اتخذوا طريق الحياء والاعتدال ،
لذا يقول : ﴿لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ
دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ، ثم يعقب على
ذلك بقوله : ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ
دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ﴾ «المتحنة ٨ - ٩» .



ثانياً: تقوية الروابط الاجتماعية

إن المجتمع البشري هو المنبع الاساسي لكافة التطورات والانجازات
العلمية والاجتماعية ، وإنما يستطيع أن يصل الى هدفه المطلوب عندما
تحكمه روابط وثيقة ولأئنة جداً ، فسوف يتحول الى جحيم لا يطاق يحمل
في طياته مآسي وويلات المجتمع ، هذا فضلاً عن عدم استثماره لمعطياته
ومكتسباته الذاتية .

فمن جانب يؤكد على الوحدة الشمولية للعالم البشري بصفتهم أعضاء
لاسرة واحدة ، وأخوة من أب وأم واحدة ، كما جاء ذلك في سورة الحجرات
الآية ١٣ وأشارنا اليه سابقاً .

من جانب آخر يعتبر المؤمنون أعضاء لكيان واحد بغض النظر عن التفاوت
الحاصل بينهم من الناحية اللغوية والعنصرية ، لذا يقول : ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ
بَعْضٍ﴾ «آل عمران - ١٩٥» ، ويقول في موضع آخر : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ «التوبة - ٧١» .

ولم يكتف بهذا الأمر أيضاً فبالإضافة الى الرابط الانساني والايماي اوصى

وأكد على الروابط الشخصية أيضاً والتي تتحقق في نطاق أضيق وأقرب .
ولذا يعتبر نقض هذا العهد والحلف جريمة كبرى ، يقول في هذا الصدد :
﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ «سورة البقرة- ٢٧» .
ونقرأ في سورة محمد ﷺ الآية ٢٢ و ٢٣ قوله تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ أَنْ
تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ .

وبناءً على ذلك يرى أن قطع هذه الروابط مساوق للفساد في الأرض ، ومن
دواعي فقدان البصيرة والجمود الباطني .

وتنبثق أهمية هذه الروابط في الاسلام من أن كل مايساهم في تحكيم
الارتباطات الاجتماعية يعتبر أمراً ضرورياً ، حتى ان الكذب الذي هو من أبشع
الذنوب يعدّ جائزاً لأجل إصلاح ذات البين ، وعلى العكس من ذلك فإن كل
مايساهم في تضعيف هذه الارتباطات وتشككها يعتبر أمراً منبوذاً ومرفوضاً
تحت أي عنوان واسم كان .



ثالثاً: احترام حقوق الانسان

إن القانون الجيد والممتاز هو القانون الذي يبدي - بالاضافة الى امتيازاته
الاخرى - أطروحة جامعة ودقيقة في مسألة حقوق الانسان ، تعريلاً على هذه
الحقيقة كلما القينا نظرة حول الآيات القرآنية في هذا المجال تجلت عظمة هذه
القوانين أكثر فأكثر .

القرآن حرص كثيراً على مسألة حفظ النفس والمال والنواميس البشرية ،

بحيث وصل به الأمر الى أن يقيم النفس الانسانية ويعتبرها كسائر النفوس البشرية ، لذلك يقول : ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ «المائدة- ٣٢» .

ولانجد لهذا التعبير مثيلاً في أي قانون آخر .

ويذهب القرآن في صدد مسألة حقوق الانسان الى أن أصل العدالة يحتل مركز الصدارة على جميع الأمور في إجراء الحقوق ، ويحذر من أن تقضي النزاعات الشخصية أو العلاقات الحميمة الى عدم إجراء العدالة والعمل بها . يقول في أحد المواضع : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَائُنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ «المائدة- ٨» .

وفي مقابل ذلك بالنسبة الى تأثير الصداقة على إجراء العدالة يوجه هذا الانذار : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ «النساء- ١٣٥» .

وتتضح هذه المسألة أكثر من خلال التأكيدات الكثيرة للقرآن على مسألة رعاية اليتام والمراقبة الدقيقة لاوزاعهم ، والتعهد بكفالتهم الى أن يكبروا ويبلغوا سن الرشد ، لذا يقول في هذا الصدد : ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ «النساء- ١٢٧» .

والجدير بالذكر إنه جعل مسألة الحماية والرعاية لليتام مرادفة للتوحيد وللمسائل الانسانية الاخرى ، فيقول عز من قائل : ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ «البقرة- ٨٣» .

ومن طريف القول : إنه قرر خمسة قوانين إنسانية مرتبطة بحقوق الانسان

في ضمن شعيرتين من أهم الشعائر الإسلامية على صعيد الاعتقاد والعمل ،
وهما - التوحيد والصلاة .



رابعاً: الحرص على تأمين الحرية والامن

من أهم الأمور المستنبطة في قوانين القرآن هي : حرية العقيدة ، وحرية
الانسان ، واستقرار الامن على كافة الاصعدة والمجالات ، والآية الكريمة : ﴿لَا
إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ تشير الى هذا المعنى «البقرة - ٢٥» .
وفي أحد المواضع يعتبر تحطيم قيود الأسر من الاهداف المهمة لبعثة
الرسول الأكرم ﷺ اذ يقول : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ﴾ «الاعراف - ١٥٧» ، وفي موضع آخر يخاطب المؤمنين بقوله : ﴿يَا عِبَادِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ «العنكبوت - ٥٦» .

وينقل القرآن قصة عجيبة عن «أصحاب الاخدود» ، اولئك الذين كانوا
يعذبون المؤمنين ويلتقونهم في حفر النيران لا شيء إلا لانهم حملوا اعتقادات
راسخة ، لذا يصفهم بالقول : إن هذه الزمرة المتسلطة ما اقدمت على عملها هذا
إلا لأجل سلب حرية العقيدة والايمان ، ثم يبين لهم أشد العقوبات الالهية
النازلة بحفهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا لَهُمْ عَذَابٌ
جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ «البروج - ١٠» .

وكثيراً ما يُشيد القرآن الكريم بنعمة «الامن» بحيث يعتبره مقدماً على أي
شيء آخر ، ولهذا السبب حينما قدم ابراهيم الخليل ﷺ على الارض الفاحلة ،
والمستعرة ، والخواوية لمكة ، وبنى بيت الكعبة ، فإن أول حاجة طلبها من الله
تعالى لساكني هذه الارض مستتبلاً هي نعمة الامن على حد قول القرآن : ﴿رَبِّ

إَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴿البقرة-١٢٦﴾ .

وفي موضوع آخر بنقل هذا الموضوع نفسه بعبارة أخرى ، فيقول : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ .

ففي الآية الاولى تقدم ذكر الامن على الأمور الاقتصادية ، وفي الآية الثانية تقدم ذكرها على مسألة التوحيد ، ولعله إشارة الى عدم تحقق الضمان الديني والديني للمجتمع بدون انتشار الواقع الامني في المحيط القائم ، بالاضافة الى أن القرآن يصف حالة انعدام الامن بأنها أسوأ حالاً من القتل وسفك الدماء ، فيقول : ﴿الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ «البقرة-١٩١» وبالرغم من أن للفتنة معاني كثيرة ، (كالشرك ، والتعذيب والتنكيل والفساد) ، ولكن لا يستبعد أن يكون مفهوم الآية شاملاً بحيث يستوعب كل هذه المعاني .

وعليه فإن إيجاد حالة من انعدام الامن والفساد تفوق بمراتب مسألة سفك الدماء لأنها بالاضافة الى كونها مصدراً لسفك الدماء ، هي مصدر للمفاسد الأخرى أيضاً .

وتجدد الإشارة الى هذه النكته أيضاً وهي : إنه قد تقرر في الاسلام نوع خاص من «الامن» لم يسبق له وجود في أي قانون من القوانين الدولية الا وهو الحفاظ على حيثية الافراد وكرامتهم ، حتى في دائرة أفكار الآخرين .

وبتعبير أدق : إن الاسلام لا يسمح لأي مسلم أن يحمل في نفسه الظن السيء والتفكير الخاطيء تجاه الآخرين فيعمد الى خدش كرامة الآخرين وحرمتهم في دائره التفكير الشخصي ، وقد تجسد هذا المعنى في سورة الحجرات الآية (١٢) : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ .

إنَّ الاسلام يريد أن تسود حالة الامن والاطمئنان التام في المجتمع

الاسلامي ، ليس على صعيد النزاعات الشخصية بين الآخرين فحسب ، وإنما على صعيد المناوشات الكلامية ، وأكثر من ذلك على صعيد الاتجاهات الفكرية بين الأفراد مع بعضهم البعض ، بحيث يشعر كل واحد منهم أن الآخر لا يسدد باتجاهه سهام التهمة والافتراء ، وهذه الحالة الامنية في أعلى مستوياتها ألا لا تتحقق في ظل وجود المجتمع الايماني وسيادة القوانين الاسلامية .

والجدير بالذكر إنه قد ورد النهي عن الكثير من الظنون ، ولكن في اثناء بيان العلة يقول : ان بعض الظنون إثم ، ولعل منشأ التفاوت في التعبير عائد الى أن الظنون السيئة تجاه الآخرين تطابق الواقع أحياناً ، ولاتطابقه أحياناً اخرى ، وبناءً على أن النوع الثاني يعد ذنباً من الذنوب ، فلا بد من الابتعاد عن كل الظنون السيئة الواقعة تحت عنوان «كثيرا من الظن» .

النكته الاخيرة في هذا البحث : هي إن الاسلام انطلاقاً من اهتمامه الكبير بتحقيق الامن الداخلي في المجتمعات الاسلامية أجاز التوسل بالقوة والقدرة العسكرية لحل الاختلافات والمجابهات الداخلية في حالة فشل الاساليب والطرق السلمية ، ونطالع هذا المعنى في سورة الحجرات الآية «٩» التي تقول : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأْضَلُّهُمَا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأْضَلُّهُمَا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

إن من نعم النظر جيداً في تعبير هذه الآية : يجد أن كل مقطع من المقاطع فيها يحكي عن تحديد صورة لمنهج دقيق يقضي بإنهاء أي شكل من أشكال الاضطراب والفتن الاجتماعية وذلك من خلال استخدام أفضل السبل السلمية ، أو اللجوء الى القوة في نهاية المطاف اذا لم تثمر الاساليب الاخرى . ومن البديهي إن المقصودين بالخطاب في هذه الآية هم أفراد المجتمع

الاسلامي ، أو بعبارة أخرى الحكومة الاسلامية .



خامساً: الضمانات الاجرائية القوية

إن وجود القوانين الدولية لا يمثل سوى خطوط سوداء على صفحات بيضاء ، وغاية ماتحملة من تأثير ذاتي أنها تنقل النصيحة والموعظة لكن بدون الاستناد الى ذكر الدليل ، وبعبارة اخرى القوانين هي بحد ذاتها لاتنطوي على بعد ذهني وفكري ، وحتى تكتسب لنفسها قيمة اجتماعية تحتاج الى أن تستند الى قاعدة معينة تلزم أفراد المجتمع باتباعها والانصياع لها وهذه القاعدة هي التي يطلقون عليها عنوان «الضامن الاجرائي» أو «الضمانة الاجرائية» .

يتضح جيداً من هذه المقدمة أن قيمة القانون وصلاحيته متوقفة على مدى قوة ضمانته الاجرائية وقدرتها ، فمتى ما كانت الضمانة الاجرائية لأحد القوانين أقوى وأدق كانت قيمته الاجتماعية أعلى وأكثر .

إن الكثير من الضمانات الاجرائية للقوانين تنطوي على آثار سيئة للغاية ، وتخلق مشاكل ومساويء على صعيد المجتمع ؛ وتؤدي احياناً الى الاصطدام وانعدام الثقة ، وسوء الظن بين الافراد ، أو إنها تعكس القانون بشكل صارم ورهيب وهذه بحد ذاتها تعتبر خسارة كبرى .

ولو كانت الضمانة الاجرائية تستند الى مجموعة من المباني الثقافية والاخلاقية والعاطفية ، لما اشتملت على أي من هذه المساويء .

إن العالم المعاصر في طريقه لإجراء القوانين واقع في دوامة قاتلة . وهذه الدوامة ناشئة من عدم الحصول على ما يؤيد الضمانة الاجرائية سوى العقوبات المادية التي هي أعم من كونها عقوبة جسدية أو غرامة مالية من

جهة ، ومن عدم تقريره للعقوبات الحدية كعقوبة الاعدام مثلاً حتى في مقابل أبشع الجرائم والجنايات من جهة أخرى .

لقد أدى الابتعاد عن الضمانة الاجرائية النفسية والعاطفية وضعف وعجز الضمانات الاجرائية الخارجية الى إتساع هذه المخالفة القانونية ، والانحراف عن المقررات وعدم الاعتناء بها على المستوى العالمي يوماً بعد آخر ، والدليل على ذلك هو الإتساع المطرد للاروقة القضائية ، وكذلك السجون في دول مختلفة من العالم ، وهذا الوضع هو الذي يمكن أن يطلق عليه عنوان «أزمة الضمانة الاجرائية» ، وله نتائج وعواقب غير محمودة مما جعلت المجتمعات الانسانية بأسرها تدفع ضرائب ثقيلة ، ويمكن الوقوف على شواهد من هذا القبيل في أرقى الدول الصناعية في العالم .

ومن المساويء الاخرى للضمانات الاجرائية في القوانين الدولية المعاصرة ، هو الاقتصار على الاحكام الجزائية وفقدان الجانب الايجابي من الضمانة الاجرائية الأ وهي المراهنة على عامل التشجيع والمكافأة .

إن الانسان خليط متقابل من «القوة الجاذبة والدافعة» أو بعبارة اخرى : جلب المنافع ودفع المضار ، ولا بد من الاستعانة بكلا الجانبين في إجراء القوانين ، في حين إن عالم اليوم يحصر جل اهتمامه على دفع المضار وفي دائرة محدودة أيضاً ، والدليل على ذلك واضح ، لان العالم المادي ليس في جعبته شيء ليجعله بعنوان مكافأة تقديرية أزاء كل من يعمل ببنود القانون .



وعلى ضوء هذه المقدمات نعود الى مسألة «الضمانة الاجرائية في قوانين القرآن» لنرى اشتماله على أقوى الضمانات الاجرائية وأجمعها ، وهذا الامتياز

ينفرد به دون غيره .

وقد أخذت بعين الاعتبار ثلاثة أنواع من الضمانات الاجرائية في القرآن :

- ١ - الضمانة الاجرائية المستمدة من الدولة الاسلامية .
 - ٢ - الضمانة الاجرائية المستندة الى الرقابة العامة .
 - ٣ - الضمانة الذاتية الداخلية أو بتعبير آخر ، الضمانة الناشئة من الايمان والاعتقاد بمبادئ الاسلام والقيم الاخلاقية والعاطفية .
- ففي المورد الاول يقع على عاتق الدولة الاسلامية مسؤولية الوقوف بصورة حدية بوجه أي شكل من أشكال المخالفة القانونية ، فالخطوة الاولى التي أقدم عليها نبي الاسلام ﷺ بعد هجرته الى المدينة ، وبعد إزاحة المشاكل العالقة ، هي إرساء دعائم الدولة الاسلامية ، وبيان معالم القوانين الاسلامية ، وملاحقة أي نوع من أنواع الانحراف والشذوذ باعتباره من الذنوب التي يعاقب عليها .

لقد أعتبر القوانين القرآنية حدوداً الهية ، ووجه العقوبة الى كل من يتجاوز هذه الحدود .

فمن جهة يعرف المتخلفين بأنهم ظالمون ويقول : «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» «البقرة-٢٢٩» ومن جهة اخرى يؤكد على محاربة الظالمين .

فحينما يذهب القرآن الى القول : «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» «الحديد - ٢٥» ، فإن معناه : إن شَخْصَ نبي الاسلام ﷺ الذي هو خاتم الانبياء وسيدهم هو الذي تقع على كاهله هذه المسؤولية قبل أي شخص آخر .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر يدعو كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية الى المراقبة في اجراء القوانين الالهية ، ووفقاً لمبدأ «الامر بالمعروف والنهي المنكر» ، يلزم الجميع بان لا يتهاونوا ويتخاذلوا في الوقوف بوجه الانحراف عن القوانين الربانية .

لذا يقول في أحد المواضع : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ «التوبة - ٧١» .

وتتجلى الأهمية القصوى لهاتين الوظيفتين في الاية الكريمة من خلال تقديم ذكرها على الصلاة والزكاة وإطاعة الله والرسول ، والسرف في ذلك يقع في أن أركان الصلاة والزكاة والطاعة لاتستقيم أعمدها من دون هذه الرقابة العامة على اجراء القوانين .

وفي موضع آخر حينما يعمد الى طرح الصفات المختصة بالمجاهدين في سبيل الله اولئك الذين اشتروا الجنة من الله بأموالهم وأنفسهم ، يقول بعد بيان ست صفات من الصفات المتعلقة بهم : ﴿وَالْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ «التوبة - ١١٢» .

ومما يلفت النظر : إنه نظراً الى أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر له مراحل مختلفة تبدأ من النصيحة والارشاد والمواظب الاخوية ، وتشق طريقها حتى تصل الى مرحلة التشدد والحزم العملي ، بناءً على ذلك فقد قسمها القرآن الى قسمين ، جعل القسم الاول في متناول الجميع ، أما القسم الثاني فقد جعله في متناول جماعة خاصة تمارس أعمالها تحت نظارة الحكومة الإلهية ، ولذا يشير الى هذا التقسيم بقوله : ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

من البديهي إن الامة التي تأخذ على عاتقها مسؤولية الرقابة ، على إجراء القوانين وبشروطها في هذا الشعور بالمسؤولية كافة أفراد المجتمع ، سيكون القانون في أوساطها معززاً مكرماً وصالحاً للتطبيق في الوقت المناسب .

حينما نخرج من دائرة الرقابة العامة يأتي الكلام عن الرقابة الذاتية ، والروحية والاعتقادية والوجدانية للأفراد على حسن إجراء القوانين وهكذا رقابة تعتبر بحق أفضل أنواع الرقابات وذلك لوجود الرادع الذاتي للفرد .

«الايمان بالمبدأ» أي بالله عز وجل الذي هو حاضر في كل حين وهو أقرب إلى العباد من انفسهم : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ «ق - ١٦» ، الله الذي ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ «غافر - ١٩» .

والله الذي جعل الارض والزمان وحتى أعضاء بدن الانسان رقيباً عليه وشاهداً وشهيداً على أفعاله^(١) .

و«الايمان بمحكمة القيامة الكبرى» بحيث لو كان في صحيفة أعمال الانسان مقدار ذرة من عمل الخير أو الشر لاحضروها أمامه ، ويلاقى حسابه وجزاءه : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ «الزلزلة ٧-٨» .

وليست الامثلة السابقة هي التي تعكس أثار الايمان بالمبدأ والمعاد فحسب ، بل لدينا مئات الامثلة من هذه الآيات في القرآن الكريم بعد الاعتقاد بها من افضل الضمانات الاجرائية للقوانين الالهية .

وما أبعد الفاصلة بين من يرى نفسه مراقباً من قبل القوى الامنية والعسكرية التي لا تتجاوز أعدادها الواحد بالالف مع ماتشتمل عليه من إمكانات محدودة ونواقص كثيرة عندما تكون رقيباً على أعمال الآخرين ، ومع ماتراه لازماً من

إتخاذ الاستعدادات الكافية من أجل الدخول في الاماكن الهامة والمنازل العامة ، ما أبعد الهوة بين هذا الشخص وبين من يرى نفسه في كل الاحوال والامكنة وبدون إستثناء خاضعاً لرقابة الله المستمرة والملائكة ، ويعتقد انّ الموجودات من حوله وحتى أعضاء بدنه ستحتفظ بأعماله وتعلن عنها في حينه .

هذه الضمانة الاجرائية لا معنى لوجودها في العالم المادي إطلاقاً ، ولهذا السبب لم تتمكن الضمانات الاجرائية الاخرى بأي شكل من الاشكال أن تقف حاجزاً أمام المخالفات الأخرى ، في حين تنحسر هذه المخالفات القانونية في ظل الاجواء الدينية الواقعية التي يكون هذا الضامن الاجرائي فيها فعالاً ، كما تحقق ذلك في زمن حياة النبي الاكرم ﷺ ففي ذلك الزمان لم يكن لوجود السجون معنى على الاطلاق ، ولما كانت تعقد المحاكم القضائية فقد كانت شكاوى الناس تتلخص بمجيء بعض الاشخاص أحياناً الى محضر النبي ﷺ في المسجد وي طرحون دعاواهم ، فيستمعون الى الأجوبة في المكان نفسه ويخرجون مقتنعين بالحلول العادلة .

وفي الوقت الحاضر أيضاً تصل الجنايات والانحرافات الى الحد الادنى في المجتمعات الدينية خاصة في المناسبات الدينية (من جملتها مناسبة شهر رمضان المبارك) .



سادساً: احياء القيم المعنوية

بالرغم من ان الوجود الانساني مركب من مادة ومعنى أي من جسم وروح ، وحياة الانسان متكونة من جانبين ، جانب مادي وجانب معنوي ، الا أن جميع

القوانين في العالم المادي ناظرة الى القيم المادية ، فأى عمل لا يصطدم مع المسائل المادية للمجتمع يعتبر جائزاً ومشروعاً في نظرهم ، ويدخل في هذا المضمار تصويب الكثير من القوانين المخزية والتي يبعث ذكرها على الاشمئزاز والتقرز ، والحال إن هذا الفصل لا يوجه ضربة الى الشخصية الانسانية المرموقة وينزلها الى مستوى الحيوان فحسب ، بل يُعرض نفس القيم المادية للخطر أيضاً ، وذلك لعدم إمكانية الفصل عملياً بين هذين الأمرين .

وانطلاقاً من كون القرآن منسجماً مع الخلقة والنفرة الانسانية فهو يأخذ بالاعتبار كلاً من القيم المادية والمعنوية معاً ، فحينما يتطرق في حديثه الى اختيار الزوجة يقول : ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مُشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مُشركٍ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ «النور- ٣» .

ويقول أيضاً : ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ «المائدة- ١٠٠» .

من الواضح إن ذكر الخبيث والطيب في هذه الآية إما ناظر الى الطهارة المعنوية وعدمها ، وأما ناظر على الأقل الى العموم فيشمل المعنى المادي والمعنوي معاً ، لذا فإن تكاثر الاويئة وانتشار الموبقات لا يمكن أن يكون دليلاً على مشروعيتهم وحقانيتهم .

وتتبلور هذه المسألة أكثر في القوانين والدساتير المرتبطة بالزواج خاصة لانه يحدث كثيراً أن يقع كل من الجمال الظاهري والمعنوي على طرفي نقيض ، فيقترن جمال الظاهر مع تلوث الباطن ، وحسن الباطن مع عدم جمال الظاهر . ففي هذه الحالة يرحج القرآن الكثرة الثقيلة لجمال الباطن وجاذبية الروح والاخلاق والايمان فيقول : ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ وَلَا مَآةً خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ

الاعجاز القرآني في سن القوانين.....٢٤٥

مُشْرِكٌ وَلَوْ أَحَبَّبَكُمْ أَوْلَتْكُمْ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ
بِإِذْنِهِ» البقرة- ٢٢١.

من المؤسف حقا أن تجاهل القيم المعنوية في وضع القوانين والمقررات الاجتماعية في عالم اليوم أصبح من العوامل المهمة للكثير من المآسي والويلات ، علاوة على أن هؤلاء لا يجدون الطريق الى هذه القيم في الواقع ، لأن الاعتراف بهذه القيم لا يتم بدون الاستناد الى رؤية معنوية للكون تقيم وزناً لها وتحفظ بقيمتها ، لذا أصبح العالم المادي عاجزاً عن الوصول اليها ، وما يشاهد حالياً في المتون القانونية لعالم اليوم من قبيل حقوق الانسان مثلاً فهو الآخر عرضة للتفسيرات المختلفة دائماً ، أو مبرر لتوجيه الابتزازات المادية ، وغطاء للتستر على الاهداف اللامشروعة المنافية للأصول المنسجمة مع الانسانية في كل الحالات .



سابعاً: الاصول الثابتة والمتغيرة

من المعلوم لدينا إن مسلمي العالم يعتقدون من خلال ما استلهموه من القرآن والاحاديث الاسلامية المعتبرة أن نبي الاسلام هو خاتم الانبياء ، وان الدين الاسلامي هو الدين الخالد ، ومع التسليم بهذا الاعتقاد يبرز هذا السؤال وهو: كيف يمكن الحفاظ على بقاء الاحكام والمقررات الثابتة والخالدة مع حدوث التغيرات المستمرة للحياة الاجتماعية للجنس البشري ، وكيف يتم حصول المتطلبات المتغيرة مع وجود قوانين ثابتة .

إن القوانين القرآنية عالجت هذه المشكلة وذلك من خلال تصنيف القرآن لهذه القوانين الى صنفين : الصنف الاول منها هي القوانين الكلية التي أصلها

ثابت ومصادقها وموضوعها الخارجي في تغير وتبدل مع مرور الزمان ، والصنف الثاني منها هي القوانين الخاصة والجزئية بالاصطلاح وهي غير قابلة للتغيير .

وتوضيح ذلك : يُؤخذ من خلال ما خاطب به القرآن المؤمنين بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(١) .

هذه هي إحدى الأصول الكلية السائدة في على مرّ القرون الأزمنة ، وإن كان موضوعها ومصادقها في حالة تغير وتبدل ، فمثلاً ظهرت مع مرور الزمن سلسلة من الارتباطات الحقوقية الجديدة والاتفاقيات المستحدثة بين أوساط الناس لم يسبق لها وجود في عصر نزول القرآن ، فعلى سبيل المثال لم يكن يبدو للعبان شيء اسمه «التأمين» ، أو أنواع الشركات المختلفة في ذلك الزمن ، والتي تحققت في عصرنا هذا حسب حصول المتطلبات اليومية ، بيد إن القانون الكلي الآنف الذكر قد شمل كل هذه الأمور ، فأى شكل من أشكال الاتفاقية والمعاملة الجديدة والعقود والمواثيق الدولية ، التي تظهر على مسرح الوجود حسب المتطلبات إلى نهاية العالم وتكون منسجمة مع الاتفاقيات الإسلامية يقع ضمن هذا الشمول ، ونجد قسطاً وافراً من هذه القوانين في الإسلام بصورة عامة والقرآن بصورة خاصة .

نطالع في سورة الحج آية ٧٨ قوله عزّ من قائل : ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ .

بناءً على ذلك إذا تعذّر أداء إحدى التكاليف الإسلامية في ظروف خاصة فأنها تخرج من دائرة الوجوب والالزام تلقائياً ، فيتبدل الوضع في ظروف قاسية إلى التيمم ، والصلاة من وقوف إلى الصلاة من جلوس ، والصلاة من جلوس إلى

الصلاة من الاضطجاع ، ويتبدل صوم الاداء الى صوم القضاء ، ويرتفع الحج في مثل هذه الظروف .

وردت اشارات الى «قاعدة لاضرر» في موارد خاصة من آيات قرآنية متعددة تدل على محظوريه الأمور التي تلحق الضرر والاذى بشكل أو بآخر، ولذلك تحدد وتضيق دائرة الاحكام والمقررات التي بينت على شكل حكم عام حينما تصل الى موارد الضرر والخرج .

يقول القرآن في مورد النساء المطلقات : ﴿وَلَا تَضَارَّوهُنَّ﴾ «الطلاق-٦» ويقول في موضع آخر: ﴿وَلَا تُمَسِّكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ «البقرة-٢٣١» ويقول في مورد الوصية : ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍ﴾ «النساء-١٢» . ويقول في مورد الشهود وكتاب السندات : ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ «البقرة-٢٨٢» .

إنَّ هذه القاعدة المطروحة بشكل أكثر تفصيلا في الروايات الاسلامية تعتبر من القواعد المهمة التي تقوم بتطبيق الاحكام الاسلامية (من خلال التغيرات الطارئة على الموضوعات) ، على الاحتياجات والضروريات الواقعية لكل زمان ، وقد تم شرح ذلك في كتب «القواعد الفقهية» ، وعلى أي حال فان من الشواهد الاخرى لهذا المدعى هي : «قاعدة العدل والانصاف» ، وقاعدة : «عدم تكليف مالا يطاق» ، وقاعدة : «المقابلة بالمثل» ، في المسائل المتعلقة بالجنايات والقصاص والاضرار المالية ، وكلها لها جذور قرآنية ، خلاصة الكلام : إنطلاقا من «خاتمية نبوة نبي الاسلام ﷺ وفقاً للآية ٤٠ من سورة الاحزاب» واستمرارية القرآن الكريم ، فإن القوانين القرآنية طرحت من الدقة بمكان بحيث لم تسنح لظروف الزمان وتحولات الظروف والمتطلبات البشرية أن يعف عليها التراب ويغطيها غبار الزمن الغابر .

وفي الوقت التي كانت تسد الاحتياجات القانونية لعصر النبي ﷺ الذي هو عصر نزول القرآن كانت ناظرة أيضاً إلى الأزمنة والقرون الآتية، ومن الأمثلة الرائعة والجلية هو ما نلاحظه في الآية المتضمنة لمفهوم (إعداد القوى) وتعبثها حفاظاً على بيضة الاسلام والمسلمين: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ «الانفال - ٦٠».

فمن جهة يضع بصماته على المستلزمات الضرورية لذلك العصر ويتحدث عن الخيول المجربة، ولكن من جهة أخرى ينوه على أصل عام يتوافق مع ذلك العصر، ومع كل عصر حتى قيام الساعة، وهذا الاصل هو تهيئة شتى أنواع القوى والقدرات التي تشمل كافة الوسائل القديمة والحالية والمستقبلية. وأروع ما قاله في هذه الآية هو هذا المعنى: ان الغاية من كل هذه الأمور هو لقاء الرعب في قلوب الاعداء ليقف ذلك حاجزاً دون وقوع الاعتداء والحرب، لا أن يؤدي ذلك إلى مزيد من اراقة الدماء.



٦- الاعجاز القرآني من
جهة الاخبار الغيبية

٦- الاعجاز القرآني من جهة الاخبار الغيبية

اشارة وتنبية :

بالرغم من وجود أصول وجذور للحوادث المستقبلية في الماضي والحاضر الا أنه لن يستطيع أحد أن يرفع الستار بدقة عن الحوادث المستقبلية ، وبالرغم من إرادة الانسان وعزمه المستمر في التعرف والاطلاع على الحوادث المستقبلية ، والمساعي الكثيرة التي بذلها في هذا الطريق ، إلا أنه لم يصل الى وسيلة ناجحة ترفع الحجب الكثيفة بينه وبين المستقبل .

إن هذا التعلق الانساني الشديد بالنسبة الى الاطلاع على الحوادث المستقبلية هو الذي بعث الحماس والحمية في سوق الكهان والمنجمين الخرافيين ، بل حتى الذين يقرأون الطالع والفأل ، وهؤلاء بدورهم كانوا يستثمرون حالة النهم والولع لدى الناس بالاستفادة من الاعيبيهم وخدعهم الماكرة ، ويسلونهم بسلسلة من العبارات المبهمة أو الاقاويل المملة التي كانت يتمكن كل شخص أن يطبقها على مراده ومتصوده بسهولة ، وكانوا يكسبون المنافع والارباح من هذا الطريق .

وفي يومنا هذا أيضاً تحصل نبؤات كثيرة في عالم السياسة وغيره ترمي

الوصول الى اهداف خاصة غالباً، وهي جزء لا يتجزأ من المخطط السياسي للدول، لكن الكثير منها لا يتحقق في الخارج. وبخالف ما هو عليه واقعاً.

والجدير بالذكر إن هذه الاقاويل الخاطئة لاتقف مانعاً امام التنبؤات المستقبلية في مثل هذا النوع من المسائل أيضاً، بيد أن الحقيقة التي لا يمكن التعميم عليها هي لو أن شخصاً عمد الى بيان الأمور المستقبلية بدقة وبكل تفاصيلها (لا بصورة طرح المعاني الكلية والبيانات المبهمة والعبارات المتضاربة) فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه مطلع على أسرار الغيب بصورة اجمالية، واذا تكرر وقوع هذا التنبؤ وكان متقارناً مع دعوى النبوة أو الامامة فحينئذ يمكن التعويل عليه بصفته احد البراهين والادلة.

من خلال هذه الاشارة نعود مرة أخرى لنبحث امثلة كثيرة من هذا القبيل في القرآن الكريم:

١ - ﴿آلَمْ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِيرَن بَعْدِ غَلِيْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سَنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «سورة الروم ١-٦».

٢ - ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ «سورة الفتح - ٢٧».

٣ - ﴿وَعَدُكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأَخْرَجْنَاهُ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ «سورة الفتح - ٢٨».

نَسِيءٌ قَدِيرًا ﴿سورة الفتح ٢٠-٢١﴾ .

٤ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ
الدُّبُرَ﴾ «القدر ٤٤-٤٥» .

٥ - ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ
الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ
الْكَافِرِينَ * لِيَحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ﴾ «الأنفال ٧-٨» .

٦ - ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ «سورة القصص ٨٥» .

٧ - ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ *
سَيُضِلُّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ «سورة تبت ١-٣» .

٨ - ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَر * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ
الْأَبْتَرُ﴾ «سورة الكوثر ١-٣» .

٩ - ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوْكُمْ الْإِدْبَارَ ثُمَّ لَا
يُنْصَرُونَ﴾ «آل عمران ١١١» .

١٠ - ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ
وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ «سورة آل عمران ١١٢» .



١ - الاخبار عن هزيمة الاعداء في اقل من عشر سنين

في الآية الاولى اخبار عن هزيمة الروميين (غلبت الروم) ، ثم يتحدث بعد ذلك عن محل وقوع هذه الحادثة فيقول : (في ادنى الارض) ، والمقصود منها اراضي الشام بحد ذاتها أي (المنطقة الواقعة بين بصرى وأذرع) ، وهي داخلة

ضمن دائرة الروم الشرقية ، وكانت تعتبر من المناطق القريبة بالنسبة الى سكان الجزيرة العربية .

وقعت هذه الحرب على حد قول أحد المؤرخين المعاصرين في عهد «خسرو برويز» ، وكانت حرب طويلة الأمد بين الايرانيين والروميين ، وحدثت في حدود سنة ٦١٧ م حينما هجم على حوزة الروم الشرقية اثنان من القواد الايرانيين المعروفين يدعى أحدهما «شهر بُراز»^(١) والآخر «شاهين» وهزمهم هزيمة نكراء ، بحيث أضحت منطقة الشامات ومصر الصغرى مسرحاً لجولاتهم وصولاتهم ، وأوصلوا امبراطورية الروم الشرقية التي وقعت ضحية لهزيمة ساحقة على اعتاب الانقراض والزوال ، ولذا تمكن الايرانيون من السيطرة على كافة مقدرات الروم في آسيا اضافة الى مصر حدثت هذه الواقعة في حدود السنة السابعة لبعثة النبي الاكرم ﷺ في مكة .

وفرح اعداء الاسلام والمشركون في مكة بهذه الواقعة وتفاءلوا بها خيراً واستدلوا على حقانية دين الشرك فقالوا: إن الايرانيين «مجوس» ومشركون «وثنيون» أما الروميون فهم مسيحيون أهل كتاب ، فكما تغلب الايرانيون على الروميين ، سيكون النصر حليفنا أيضاً نحن المشركين ، وستطوى صحيفة حياة محمد ﷺ وتكون الغلبة لنا ولمعتقداتنا .

إن هذا النوع من الاستنتاج والتفاؤل وإن لم يستند الى أي قاعدة منطقية ، إلا أنه لم يخل من تأثير اعلامي في جو ذلك المحيط ، ولهذا السبب كان تأثيره شديد الوطأة على المسلمين .

ويضيف القرآن تعقيباً على الآية السابقة : اعلّموا أن هذه الغلبة للفرس

١ - اسمه فرّخان ، قائد ايراني حارب الروم في زمان خسرو برويز واستولى على مصر سنة ٦١٦ ميلادي (معجم دهخدا - مادة براز) .

لاتدوم زمناً طويلاً ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ أي الروم ، ثم يشير الى الجزئيات بعد ذلك بقوله : ﴿فِي بضع سنين لله الأمر من قبلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

الآن هذا الفرح والسرور ليس قائماً على أساس التفاؤل بالخير بالنسبة لغلبة الاسلام على الشرك فحسب ، بل السبب الاساسي لغبطتهم هذه هو حصولهم على المدد الالهي (بالنصرة على مجموعة من الاعداء في محيطهم الداخلي) ﴿بَنصِرَ اللَّهُ يَنصِرْ مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

ومن أجل ترسيخ هذا المعنى أكثر ، وازالة أي لون من الوان الشك والتردد ، يقول : ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

ان هذا التنبؤ العجيب المشتمل على ذكر الجزئيات ، والذي يخبر عن أحد المسائل العسكرية والسياسية المهمة ، كيف يمكن له أن يتحقق بدون الاحاطة بأسرار الغيب ؟

فمن جهة يخبر عن أصل وقوع الانتصار للروميين المندحرين الذين وصل بهم الاحباط والهزيمة الى حد الانقراض وفقدوا مساحة شاسعة من أرض بلادهم ، ولم يعد هناك أمل بأن يستعيدوا قواهم ويثبتوا كيانهم بهذه السهولة ، ومن جهة أخرى يصرح بان هذا الامر سيتحقق في بضعة اعوام .

ويضيف على ذلك بقوله : إن هذا سيقترن بنصر آخر للمسلمين على الكفار ، وفضلاً عن ذلك كله يؤكد تأكيداً قاطعاً على أن هذا الوعد الالهي حتمي الوقوع وإن الله لن يخلف وعده .

ونرى : انّ هذا الوعد تحقق فعلاً بكل جزئياته ، فقام ملك الروم «هرقل» بالحقاق الهزيمة تلو الهزيمة بمعسكر «خسرو برويز» في سنة ٦٢٦ م أي بعد ٩ سنوات تقريباً حيث كانت نتائج هذه الحروب لصالح الروميين الى سنة ٦١٧ م

وحققوا النصر الكامل والشامل ، وأصيب خسرو برويز بالفشل الذريع فازاحه الايرانيون من على دست الحكم وأجلسوا مكانه ابنه «شرويه» .

خلاصة الكلام : إن هزيمة الروميين وقعت في سنة ٦١٧ م الموافق للسنة السابعة للبعثة النبوية الشريفة ، واستعاد الروميون نصرهم من جديد في سنة ٦٢٦ حينما حققوا الهزيمة «بالجيش الساساني» ، ووصلت هذه الهزيمة الى أوجها في السنة القادمة أي (سنة ٦٢٧) ذلك أن هرقل زحف الى «دستجرد» الواقعة على بعد عشرين فرسخا من «تيسفون» عاصمة ايران وموطن «خسرو برويز» ، واندحر «خسرو برويز» ولاذ بالفرار ، وعُزل على أثرها من مقام السلطة مما أدى ذلك الى قتله ، ونجد أن الفاصلة بين هذين لم تتجاوز التسع سنوات ، وهو مطابق تماماً لمعنى «بضع سنين» ، لان «البضع» في قاموس اللغة وعلى حد قول الراغب : في المفردات هو بمعنى حصة من العدد عشرة ، فكل ما يقع بين الثلاثة والعشرة يقال له بضع ، وقال البعض : إن البضع يطلق على العدد الذي يكون أكثر من خمسة وأقل من عشرة .

وجاء في معجم مقاييس اللغة أيضاً أن «البضع» هو العدد الذي يقع بين الثلاثة والعشرة .

ومما تجدر الإشارة اليه أن هذه النبوءة أصبحت من الأمور المتعارفة والمسلمة لدى المسلمين حتى كان البعض منهم على استعداد لأن يراهن على هذه المسألة مع المشركين في مكة ، وتحقق هذا الرهان بالفعل ، وفي بداية الأمر وقع الرهان على خمس سنوات ، ولما لم يتغير من الأمر شيء جاؤا الى النبي وأخبروه بحقيقة الأمر ، وما جرى عليهم مع المشركين ، فقال لهم : كان ينبغي عليكم أن تحاوروهم على أقل من عشر سنوات ، وهكذا حصل وتحقق النصر بعد الهزيمة في أقل من عشر سنوات .

ومن النكات المهمة الاخرى هي اقتران هذا النصر بانتصار المسلمين في «معركة بدر» لأن معركة بدر وقعت في السنة الثانية للهجرة، والمقطع الزمني الفاصل بين السنة السابعة للبعثة والسنة الثانية للهجرة هو تسع سنوات - هذا اذا ما اخذنا في الاعتبار نفس السنة السابعة أيضاً - وبدونها تكون الفاصلة بينهما ثمان سنوات.

من هنا كان انتصار الروميين وانتصار المسلمين متقاربين، وفي الواقع إنما فرح المسلمون لامرين، الاول: هو الذي حققه أهل الكتاب أي الروميون على المجوسيين الذي كان أحد مشاهد انتصار العبودية لله تعالى على الشرك، في الوقت الذي كانت هزيمة الروم مدعاة لارتياح مشركي مكة وغبطتهم، والآخر: هو ما حققوه من إنتصار كبير على المشركين في معركة بدر.



٢ - التنبؤ عن نصرين هامين آخرين

تكشف الآية الثانية - في هذا البحث - الستار عن اثنين من الحوادث المهمة الأخرى المرتبطة بمستقبل المسلمين . الحادثة الاولى تكشف عن هذه الحقيقة للمسلمين وهي : انكم ستدخلون المسجد الحرام وتقيمون هذه الشعائر الكبرى في منتهى الامن والامان في المستقبل القريب بالرغم مما يحمله المشركون من فض واعتراض على دخول المسلمين الى المسجد الحرام وإدائهم لمناسك الحج والعمرة ، والأخرى تبين هذه الحقيقة لهم وهي : ان النصر الحقيقي سيكون حليفكم قبل ذلك .

يقول عز من قائل : ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ

تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» .

تخبر هذه الآية عن أن النبي رأى في منامه رؤيا تعبر عن أن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام لأداء مناسك الزيارة لبيت الله .

كان البعض يتصور أن هذه الرؤيا ستتحقق مباشرة في السنة نفسها ، فعندما توجه المسلمون إلى مكة للزيارة وأعرض طريقتهم مشركوا مكة في الحديبية (وهي القرية التي تقع مسافة ٢٠ كيلومتر عن مكة وأشتق إسمها من البئر أو الشجرة الموجودة فيها) مما أدى ذلك إلى التوقيع على اتفاق الصلح المعروف بصلح الحديبية ، عندئذ أخذ البعض يراوده الشك والتردد في أن لا تكون لهذه الرؤيا مصداقية ، على مستوى الواقع ، حتى أنهم بدؤوا يسألون النبي ﷺ في هذا المجال عن السبب وراء عدم تحقق هذه الرؤية الرحمانية ؟ فأكد لهم النبي ﷺ على أنه لم يقل : ان ذلك يتحقق في هذه السنة وإنما قصد وقوعه في المستقبل القريب في هذه الاثناء نزلت الآية المذكورة وأول ما أكدت عليه هو صدق هذه الرؤيا ، ثم أشارت بعد ذلك إلى الجزئيات وقالت : إنكم ستدخلون المسجد الحرام قريباً وتؤدون مناسك الحج بكل حرية واطمئنان ، كما أن النصر سيكون حليفكم قبل أداء هذه المناسك ، وتحققت هذه النبوءة وفقاً لما ذكرها جميع المؤرخين ، واستطاع جمع غفير من المسلمين أن يؤدوا مناسك العمرة في السنة التالية لواقعة «الحديبية» وهي (السنة السابعة للهجرة) ، وسميت هذه المناسك (عمرة القضاء) لأنها في الواقع قضاء للعمرة التي أراد الجميع أن يؤديها في السنة الماضية .

نخرج من كل ما قبل سابقاً لهذه النتيجة : أنه قد تم الاعلان بقوة وحزم في هذا المقطع من الآيات عن مسألة غير متوقعة الحدوث ، والتي كانت مورداً من موارد مثار الاختلاف ونزاع شديد بين المسلمين والمشركين ، كما اشير فيها إلى

التفاصيل أيضاً بالاضافة الى ما حصل فيه من تنبؤ عن اقتران ذلك بنصر آخر للمسلمين ، وهذا في حد ذاته بيان مضاعف فيما يرتبط بهذا التنبؤ الهام .

هناك بحث ونقاش بين المفسرين حول المقصود «بالفتح القريب» فقد تحقق للمسلمين على مقربة من هذه الواقعة ، أحدهما هو صلح الحديبية الذي كان من دواعي الانفتاح ، والآخر هو «فتح خيبر» الذي تحقق في أوائل السنة السابعة للهجرة ، أي بعد واقعة الحديبية بعدة اشهر ، والظاهر أن «الفتح القريب» هو اشارة الى الواقعة الثانية كما ذهب اليه الكثير من المحققين ، ذلك انه يقول في الآية ١٩ من سورة الفتح : «مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» . صحيح ان للغنيمة مفهوماً واسعاً وشاملاً لكل انواع الغنيمة المادية والمعنوية ، ولكن المتبادر في مثل هذه الموارد هو معنى الغنائم الظاهرية في الاعم الاغلب ، ومما نعلمه ان الغنائم الظاهرية كانت موجودة في «فتح خيبر» لا في صلح الحديبية .

إذاً يمكن الخروج بهذه النتيجة بوضوح وهي : ان مثل هذه التنبؤات الدقيقة ، والصادرة بكل قاطعية وجدية ، وبدون أن يشوبها الاحتمال والتردد ، لايمكن ان تتأتى الا من خلال الارتباط بعالم الغيب .



٣- الغنائم الكثيرة في المستقبل

يخبر القرآن في الآية الثالثة - تعقيباً على قضية «صلح الحديبية» وما تنبأ به من «عمرة القضاء» و «فتح خيبر» - عن فتوحات اخرى متتالية وحائزة على غنائم وافرة فيقول : «وَعَدَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْذِيَكُمْ صَرَاطًا مُسْتَقِيمًا» .

ثم بضيف الى ذلك قائلاً: «وَأَخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا» .

في هذه الآيات ورد الإخبار عن انتصارين على الاعداء مع الحصول على غنائم كثيرة ، احدهما قصير المدى والآخر بعيد المدى .

تلك الغنائم والفتوحات التي عجز عنها المسلمون بحسب الظاهر قد جعلها الله في اختيارهم وطوع ارادتهم بحوله وقوته الكاملين .

وثمة نقاش واختلاف بالرأي بين المفسرين في تحديد نوعية الغنائم والفتوحات ، فقد ذهب الكثير منهم الى ان المقصود من الغنائم التي يحظى بها المسلمون في فترة قصيرة هي «غنائم خيبر» ، وان احتمال البعض انها اشارة الى «الغنائم المعنوية لصلح الحديبية» ، إلا ان هذا الاحتمال ضعيف كما قلناه سابقاً .

واما في صدد الغنائم طويلة الامد فقد ذهب الكثير من المفسرين الى انها اشارة الى انها «غنائم حرب حنين» وقبيلة «هوازن»^{(١)(٢)} .

واحتمل البعض أيضاً انها اشارة الى الفتوحات الكبيرة القادمة نظير فتح بلاد ايران والروم واليمن ، وبالرغم من ان فتح حنين والحصول على غنائم قبيلة هوازن لم يكن مستبعدا من قبل المسلمين ، إلا ان التوصل الى فتح «ايران والروم» وماشابهها كان بالنسبة اليهم امرا شاقا وبعيد المنال ، ولهذا حينما اعطى النبي ﷺ البشارة وفقاً لرواية معروفة بفتح ايران والروم واليمن في حرب الخندق بدأ المنافقون يسخرون من ذلك ، والسبب في ذلك يعود الى عدم امكان تحقيقه من ناحية الاسباب الظاهرية ، لكن الله تعالى القادر على كل شيء

١ - اشير اليه في تفسير مجمع البيان: التفسير الكبير للفخر الرازي ، وروح المعاني والميزان .

٢ - ان غنائم حنين كانت عظيمة حتى ان البعض قدرها بـ ٢٤ الف ناقة و ٤٠ الف شاة ومقادير كثيرة كثيرة من الفضة (تفسير روح البيان المجلد ٩ ، ص ٤٢ ، منتهى الآمال المجلد ١ ، ص ٦٥) .

هو الذي جعل الوصول الى هذه الفتوحات ، والحصول على الغنائم الثمينة قيد الامكان والتحقق ، فكشف الستار عنها قبل التوصل اليها بسنين طويلة ، وبيّنها بشكل تنبؤ صادق في الآيات المتقدمة ، فيا ترى هل يمكن حصول هذه التنبؤات بدون الارتباط بعالم الغيب ؟



٤- التنبؤ بالهزيمة الساحقة للاعداء

في المقطع الرابع نقف على صورة أخرى للتنبؤ .

نزلت هذه الآيات في مكة عندما كان اعداء الاسلام يسرحون في اوج قدرتهم، في حين يشكل المسلمون من الضعف وقلة العدد .

كان الاعداء يفتخرون بقدرتهم وشوكتهم ويقولون: نحن جماعة قوية ومتحدة وسننتقم من مناوئتنا وننتصر عليهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ﴾ ، إلا ان القرآن يعقب على ذلك مباشرة بقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ .

إنّ من المسلم له هو عدم امكان حصول التوقع والحدس بالانتصار السريع للمسلمين وكسر شوكة اعداء الاسلام في ذلك الزمان ، إلا انه لم تمرّ فترة قصيرة من الزمن حتى هاجر المسلمون وعظمت قدرتهم وشوكتهم بحيث انهم وجهوا ضربة قوية ومباغته الى نحور الاعداء في اول اصطدام من نوعه مع الاعداء في ساحة معركة بدر .

الجدير بالذكر ان النبي الاكرم ﷺ في يوم بدر كما جاء عن ابن عباس بدأ بالدعاء في خيمته ومن ضمن ما يدعوه به أنه ﷺ كان يقول : (اللهم أقسم عليك بالعهد الذي عاهدته معنا) ، ثم لما خرج بلامه الحرب من الخيمة ودخل ساحة القتال تلا هذه الآية : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي ان الوعد الالهي

سيتحقق هذا اليوم^(١).

وبطبيعة الحال فقد استمرت هزائم الاعداء ونكوصهم على اعقابهم مراراً وتكراراً، وما مرت بضعة اعوام اخرى حتى اذعنت كافة اقطار «شبه الجزيرة العربية» - فضلاً عن كفار مكة - بالتسليم والانقياد للمسلمين .

ونقل في تفسير القرطبي عن بعض المفسرين : ان هذه الآية نزلت في ميدان معركة بدر، في حين ان المعروف والمشهور هو نزول سورة القمر باجمعها في مكة ، والظاهر أنَّ منشأ الاشتباه راجع الى نفس ماتقدمت الاشارة اليه بان النبي الاكرم ﷺ كرر هذه الآية في ساحة بدر، فكانت اشارة واضحة الى تحقق الوعد الالهي في ذلك اليوم، لهذا ظن البعض ان الآية نزلت في ذلك المكان، على كل حال فهذه هي احدى التنبؤات القاطعة للقرآن التي تحققت على حين غرة في فترة قصيرة.



٥ - نبوءة اخرى عن الانتصار في معركة بدر

يدور الكلام في الآية الخامسة عن احد الوعود الصريحة بالنصر الذي منه الله على المؤمنين من قبل، يقول عز من قائل: ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ .

ثم يضيف على ذلك بقوله : ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

وتوضيح ذلك ان «ابو سفيان» سيد مكة وزعيم المشركين كان في حال

١ - نقل هذا الحديث عن صحيح البخاري عن ابن عباس في تفسير «في ظلال» ج ٧ ص ٦٥٧ «مع التلخيص»

عودته من الشام على رأس قافلة كبيرة تحمل معها اموالاً تجارية تربو على الخمسين الف دينار كانت تتعلق به وبجماعة من اساطين مكة واكابرها .
واصدر رسول الاسلام ﷺ أمرا الى اصحابه بأن يعدوا انفسهم للهجوم على القافلة ، وذلك لتحطيم جزء من القدرة الاقتصادية للاعداء عن طريق مصادرة اموالهم لانهم لم ينفكوا لحظة واحدة في اظهر العداء للمسلمين وايجاد العراقيل .

اطلع اصحاب «ابو سفيان» في المدينة على هذه القضية مما حدا بهم الى ايصال الخبر الى مسامع ابي سفيان .

فلما علم بذلك اسرع في ارسال احد الاشخاص الى مكة ليطلعهم على الخطر الكبير الذي يهدد اموالهم وممتلكاتهم ، ولم تمض الا فترة قصيرة حتى تحركت رجالات قريش وقواتها مع سبعمائة بعير ومائة رأس من الخيل ، وكان يقود عسكرهم ابو جهل ، وقد حملت هذه المسألة على محمل كبير من الجد والخطورة بحيث اخذ زعماء مكة يهددون بهدم بيت كل من يستطيع الالتحاق بجبهة الحرب ثم يمتنع عن ذلك .

من جانب اخر سلك ابو سفيان طريقا آخر لينجو من قبضة المسلمين وأخذ يسير في طريق مجهول لكي يبعد نفسه عن مواطن الخطر .

ووصل «نبي الاسلام» مع اصحابه البالغ عددهم ٣١٣ - مع عدة وعتاد حربي بسيط ولكن بقلوب مملوءة بالايمان والعزم والارادة - على مقربة من منطقة بدر احد المنازل القريبة الواقعة بين مكة والمدينة ، وجاءه الخبر هناك بتحرك جيش قريش المسلح من مكة الى المدينة ، فبدأ يشاور اصحابه في ذلك المكان وما يرتأونه من ملاحقة القافلة التجارية أو الوقوف بوجه معسكر الاعداء ، فوافق البعض على مواجهة الاعداء الا ان البعض الآخر كان يميل

باطنياً الى ملاحقة القافلة والسبب في ذلك يعود الى انهم لا يجدون في انفسهم الاستعداد الكافي لمواجهة القدرة العسكرية الهائلة للاعداء .

لكن النبي الاكرم ﷺ اختار المسلك الصحيح واصدر امراً بالتحرك باتجاه العدو، ووصل الجيش الاسلامي الى ناحية بدر (وبدر هم اسم لبئر في تلك المنطقة من الارض نسبة الى صاحبها الاصلي المسمى بهذا الاسم . اطلق على جميع هذه الارض بعد ذلك) .

إن الآية السابقة ناظرة الى هذه الواقعة حيث تقول : ان الله وعدكم ان تكون احدى الطائفتين (جيش قريش او قافلتهن التجارية) من نصيبكم ، الا انكم احببتم الحصول على الطائفة الغير مسلحة أي القافلة التجارية ، لكن الله يريد اظهار الحق والقضاء على الكافرين .

لذا خاطب النبي المسلمين في ذلك الموضع ان الله تعالى قد وعدنا ان تكون احدى الطائفتين لنا وسنتحرك باتجاه جيش الاعداء ، وسنتصر عليهم واننا سنشاهد باعيننا مصرع «ابي جهل» ومحل قتله

وتحقق هذا الوعد كما اراده الله ورسوله حيث اصطدم الجيشان مع بعضهما البعض ، فبعد حرب طاحنة وتضحيات جسيمة وردت تفاصيلها في مجمل التواريخ الاسلامية ، انتصر المسلمون وهزم مشركو مكة هزيمة مرة بحيث خلفوا وراءهم سبعين قتيلاً ، وسبعين اسيراً ، ولاذ الباقون بالفرار .

وقعت هذه الحرب في اليوم السابع عشر لشهر رمضان المبارك في السنة الثانية للهجرة ، وتركت تأثيراً بالغاً جداً في مسيرة التاريخ الاسلامي ، بحيث ان مجاهدي بدر كانوا يعدونها دائماً من امجادهم ومآثرهم العظيمة .

هنا يطرح هذا التساؤل وهو : هل كان من المتوقع وفقاً للمقاييس الاعتيادية ان يتحقق مثل هذا النصر للمسلمين بشكل أو بآخر؟ والجواب على

ذلك ، كلا لانه :

اولاً: لم يتحرك المسلمون بنية القتال ومن الطبيعي لم تكن في حوزتهم العدة والعتاد الكافي ، لانهم كانوا بهدف الاستيلاء على القافلة فاذا بهم يباغتون بجيش جرار ومسلح من قريش (طبعاً في مقياس ذلك الزمان) .

ثانياً: من جهة الموازنة بين القوى فقط كان المسلمون يعيشون في وضع سيء في الظاهر فقد كان عدد أفراد جيش العدو يفوق عدد أفراد المسلمين بثلاثة اضعاف ، وكانت في حوزتهم الخيول والجمال الكثيرة والمستلزمات الحربية الكافية ، في حين كان المسلمون يمتلكون فارسين اثنين فقط ، وكانت عدتهم الاساسية تتكون من ٧٠ ناقة يركبها كل واحد منهم بالتناوب .

ثالثاً: كان يوجد هناك أفراد اقوياء وشجعان بين صفوف جيش قريش ، وكان الوازع والدافع النفسي للحرب ناشئاً من احساسهم بانهم لا يرون ان اموالهم وثروتهم هي المعرضة للخطر فحسب ، بل كل شيء يمتلكونه هو معرض للخطر أيضاً .

لكن بالرغم من ذلك كله فان الله وعد المسلمين بالنصر وفقاً للآية الصريحة التي تقدم ذكرها، واكد النبي على ذلك تأكيداً بالغاً أيضاً .

والجدير بالذكر انه قد ظهر على مدار هذه الحادثة قضايا مختلفة عبرت عن وجود «امدادات غيبية» من جملتها ان المسلمين غطوا في نوم هاديء في ليلة وقعة بدر بحيث اعدتهم وعبأت قواهم ليوم المنازلة، كما هطل المطر من السماء ليغتسلوا ويتطهروا مما هم عليه، ثم لتصبح الارض الرخوة التي يصعب التحرك عليها صلبة ومتماسكة وصالحة للنزال، وهذا هو ما اشارت اليه الآيات اللاحقة بالقول: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ

الاقدام^(١).

ملخص الكلام انه يتضح جيداً من مجموع الايات المتعلقة بملحمة بدر في القرآن الكريم مدى الاضطراب والتزلزل الروحي لدى بعض المسلمين من تزايد أفراد العدو وقدراته العسكرية وتفوقهم على المسلمين ، لذلك كان من الطبيعي جدا التنبؤ بهزيمة المسلمين ، لكن على الرغم من كل هذه القرائن يقول القرآن: لقد وعد الله المسلمين بالنصر من قبل وانتصروا في نهاية المطاف .

قد يقال: ان هذه الايات نزلت بعد الانتصار في بدر كما يعبر عنه لحنها وسياقها، وعليه لا يمكن اعتبارها جزءاً من التنبؤات القرآنية، إلا ان الاجابة على هذا الاشكال تتضح من خلال الدقة والتأمل في نفس هذه الآيات، لان القرآن يقول بصراحة: ان الوعد بالنصر قد جاءكم من قبل ثم تحقق هذا الوعد بعد ذلك .



٦- الوعد بالعودة

الوعد بالنصر قد جاءكم من قبل ثم تحقق هذا الوعد بعد ذلك في الآية السادسة وهي - الآية ٨٥ من سورة القصص - وعد الله تعالى نبيه بالعودة الى الحرم الالهي الآمن ، وقد جاء هذا الوعد في احلك ايام حياة النبي الأكرم ، اي في الوقت الذي اراد ان يكسر طوق حصار الاعداء الحاقدين ويخرج من ضيق خناقهم ويهاجر من مكة الى المدينة .

وقد قام بهذا العمل واتجه صوب المدينة ولما وصل الى منطقة الجحفة التي لاتبعد عن مكة الا قليلاً تذكر موطنه الحرم الالهي الآمن ، وبدأت على ملامح وجهه آثار هذا الشوق الممتزج بالحزن والاسى ، وفي هذا الاثناء نزلت الآية الانفة الذكر،

وابلغ على هذا النحو: «إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْهِ مَعَادٍ» .

ان التنبؤ بعودة النبي الى مكة بصورة صريحة وقاطعة غير وارد في تلك الظروف الحرجة والعصيبة عادة خصوصاً مع اقرانها بنزول القرآن وبأن الله المنزل للقرآن سيقوم بهذا العمل قطعاً ، لكننا نعلم ان هذا الوعد الالهي تحقق في النهاية ، وعاد النبي مع جيشه القوي المقتدر الى مكة منتصراً بعد عدة سنين ، واخضع الحرم الالهي الآمن تحت راية الاسلام بدون اي قتل وقتال ، وهذه هي احدى النبوءات الاعجازية للقرآن التي اخبر فيها عن المستقبل بصورة صريحة وقاطعة ، وبدون اي قيد أو شرط ، هذا في الوقت الذي لم تظهر فيها القرائن والعلامات على تحقق النصر اطلاقاً .

يقول المرحوم الطبرسي في مجمع البيان : في الآية دلالة على صحة النبوة لانه اخبر به من غير شرط ولا استثناء وجاء المخبر مطابقاً للخبر^(١) .

ويقول الفخر الرازي في تفسيره أيضاً: قال اهل التحقيق : وهذا أحد ما يدل على نبوته ﷺ لانه اخبر عن الغيب ووقع كما اخبر^(٢) .

واحتمل البعض في هذا المقام ان المراد من «المعاد» هو معاد يوم القيامة ، وهذا الاحتمال ضعيف كما نقل المحققون القول عن المفسرين ، لان المعاد لا يختص بنبي الاسلام حتى يوجه الخطاب اليه فقط ، بالاضافة الى ان كلمة «لرادك» لا تتناسب نوعاً ما مع معاد يوم القيامة ، لان العودة الى مكان ما هي فرع الخروج منه . كما ان الاستناد الى نزول القرآن في جملة : «ان الذي فرض عليك القرآن» التي وردت قبله ، وكذلك جملة : «قل ربي اعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين» التي وردت بعده ، كلاهما قرينة على ان الحديث يدور حول حقانية نبي الاسلام

١ - مجمع البيان : ج ٧ و ٨ ، ص ٢٦٩ في ذيل الآية .

٢ - تفسير الفخر الرازي : ج ٢٥ ، ص ٢١ في ذيل الآية .

والقرآن ، لا حول مسألة المعاد في يوم القيامة ، فضلاً عن ان هذا التفسير لا يلتئم مع شأن نزول الآية أيضاً .

بالإضافة الى لفظة «المعاد» على ما نقله المرحوم الطبرسي عن القتيبي هو بلد الانسان ووطنه (معاد الرجل بلده) ، لانه اينما يذهب يعد من حيث ذهب .
وتجدر الإشارة الى ان كلمة «المعاد» وردت مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في هذا الموضع الذي هو بمعنى مسقط الرأس والموطن .



٧- لم يؤت الايمان قط

يدور الحديث في الآية السابعة حول احد المشركين المعروفين وهو «ابو لهب» عم النبي ، وابن عبد المطلب ، وهو الشخص الوحيد الذي ورد ذكره في القرآن من بين مشركي مكة ، وأكد على انه من أهل النار وفيه إشارة واضحة الى انه لن يؤت الايمان ابداً ، يقول عز من قائل : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ .

وبالرغم من ان ابا سفيان كان عدواً خطيراً لكنه آمن ايماناً ظاهرياً في نهاية الامر ، وآمن الكثير من الافراد الخطيرين والمجرمين ايماناً ظاهرياً امثال «وحشي» قاتل حمزة إنَّ هذا التنبؤ القاطع عن مصير شخص ك(ابو لهب) لم يكن يتأتى من الطرق العادية ، فهذه النبوءة القرآنية لاتتأتى الا من طريق الاعجاز .

إن الكثير من مشركي مكة آمنوا ايماناً واقعياً ، والبعض آمن ايماناً ظاهرياً لكن من الذين لم يؤمنوا لا في الواقع ولا في الظاهر هو : ابو لهب وزوجته «ام جميل» شقيقة ابي سفيان ، وقد صرح القرآن بوضوح انهما لن يؤمنا ابداً ، وهذه من الاخبار الغيبية للقرآن الكريم .

كيف يتأتى للقرآن ان يتحدث عن جهنمية شخص ما يمكن له ان يقف الى جانب المسلمين في نهاية الامر، أو يتظاهر بالاسلام على الاقل اذا لم يكن صادراً من عند الله تعالى .

يدعى ابو لهب «عبد العزى» (وعزى هو اسم لأحد الاصنام الكبيرة للعرب)، وكنيته: ابو لهب ولعل اختياره لهذه الكنية عائد الى كونه ذا وجه يطفح بالحمرة والشرر، ولا ريب في ان هذه الآيات نزلت في زمن حياة ابي لهب، ولذا يقول: «تبت يدا ابي لهب»، وما نقله أغلب المفسرين عن شأن النزول يدل كذلك على ان هذه المسألة حدثت في حياته، وذلك حينما أمر النبي بان يدعو عشيرته الاقربين الى الاسلام ويحذرهم من الكفر والشرك، في تلك الاثناء صعد النبي الى قمة جبل من جبال مكة يدعى به (جبل صفا) ونادى: يا صياحا (هذه الجملة لاتستخدم الا حين الهجوم المباغت للعدو) فظن اهل مكة ان هناك هجوما عدوانيا على مكة من الخارج، فلما اجتمعوا عند النبي قال لهم: «إِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، احذركم من عبادة الاصنام وادعوكم الى التوحيد.

فاستشاط ابو لهب غضباً وقال: «تبا لك اما جمعتنا الا لهذا» فعندئذ نزلت الآيات الآتية الذكر، وقالت: الموت له لانه سيكون طعمه نار جهنم في النهاية^(١).



٨- انا اعطيناك الخير الكثير

نطلع في المقطع الثامن من الآيات وهي «سورة الكوثر» على ثلاث نبؤات هامة، لانه يقول: «إِنَّا إِعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» .

١ - نقل الكثير من المفسرين والمؤرخين شأن النزول هذا مع اختلاف طفيف (تفسير مجمع البيان، القرطبي، المراغي، الفخر الرازي، الدر المنثور، في ظلال نهج البلاغة، كذلك الكامل لابن الاثير المجلد ٢، ص ٦٠).

ذكر معظم المفسرين شأن نزول لهذه الآية ، وهي متقاربة مع بعضها البعض ومن جملتها ما قاله «البرسوي» في روح البيان : «وذلك انهم (اي المشركون) زعموا حين مات ولداه القاسم وعبد الله ﷺ بمكة ، وابراهيم بالمدينة ، ان محمداً ﷺ ينقطع ذكره اذا انقطع عمره لفقدان نسله ، فنبه الله : ان الذي ينقطع ذكره هو الذي يشناه ، فاما هو فكما وصفه الله تعالى : «ورفعنا لك ذكرك» ، وذلك انه أعطاه نسلأً باقياً على مر الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت والعالم ممثليء منهم»^(١).

وقال «الطبرسي» في «مجمع البيان» : قيل نزلت السورة في العاص بن وائل السهمي وذلك انه رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا واناس من صناديد قريش جلوس في المسجد ، فلما دخل العاص قالوا : من الذي كنت تتحدث معه ؟ قال : ذلك الابتر ، وكان قد توفى قبل ذلك عبد الله بن رسول الله ﷺ وهو من خديجة ، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتراً فسمته قريش عند موت ابنه أبتراً^(٢).

ونقل الفخر الرازي ستة اقوال في شأن نزول هذه الآية بان عدة افراد قالوا للنبي الاكرم ﷺ : انك «ابتر» ، وهذه السورة ناظرة الى هؤلاء الاشخاص^(٣).

وعلى الرغم من انه قد ذكر افراداً متعددين ، إلا ان المحتوى والمضمون واحد في جميعها ، وان جميعهم كانوا يسمون النبي ﷺ «بالابتر» حقداً وعداوة ، وقد رد عليهم القرآن باجمعهم ، لان هذه الاقوال الستة لا تتنافى مع بعضها البعض ، فمن المحتمل ان هذا التعبير صدر من جميعهم ، والرد القرآني ناظر اليهم جميعاً.

وعلى اي حال فان لفظة «الابتر» في الاصل ، تعني قطع عضو من اعضاء جسم الحيوان ، ومن المتعارف انها تطلق على قطع الذنب ، ثم اطلقت بعد ذلك على

١- روح البيان : ج ١٠ ، ص ٥٢٥.

٢- مجمع البيان : ج ٣٠ ، ص ٥٤٩.

٣- تفسير الفخر الرازي : ج ٣٢ ، ص ١٣٢.

الاشخاص المقطوعي النسل ، وكذلك على الذين ينقطع ذكركم الحسن ، أو يمحي من الخواطر ، والخطبة «البتر» أيضاً تقال للخطبة التي لا تبدأ بأسم الله (أو انها لا تشتمل على ذكر الله).

وورد في المقاييس أيضاً ان «البتر» هو القطع ، و«السيف الباتر» هو السيف القاطع ، ويقال لمن لا عقب له : «ابتر» اما الكوثر فهي مأخوذة من مادة الكثرة^(١) ، وهي نفس هذا المعنى ، ولها هنا في هذا المقام معنى واسع وشامل ، وهو عبارة عن الخير الكثير والبركة الكثيرة ، واحد مصاديقها البارزة هم الابناء الصالحون والسلالة الطيبة ، واجلى مصداق له هي بنت الاسلام و«سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين» فاطمة الزهراء عليها السلام.

وذكر المفسرون احتمالات كثيرة لمعنى «الكوثر» بحيث نقل الفخر الرازي خمسة عشر قولاً ، ونقل صاحب تفسير روح المعاني عن بعض المفسرين ستة وعشرين قولاً ، وأشار اليه المرحوم العلامة الطباطبائي في «الميزان» أيضاً ، ومن جملة التفاسير المشهورة له هو نفس «حوض الكوثر» المتعلق بالنبي الاكرم صلى الله عليه وآله والذي يرتوي منه المؤمنون عند دخولهم الى الجنة^(٢).

وفسره البعض أيضاً بانه مقام النبوة ، أو القرآن ، أو نهر في الجنة ، أو الشفاعة . وكما قلنا : ان لهذه الكلمة معنى واسعاً وشاملاً لكل هذه المعاني وغيرها ، ولا يمنع من جامعية المفهوم تعدد مصاديق هذا المفهوم ، فليس ثمة تضاد وتنافر بين هذه التفاسير المتعددة .

وعلى اي حال يستكشف من هذه السورة ثلاث نبؤات هامة :

اولاً : انه يقول : (إِنَّا اعطيناك الخير الكثير).

١ - يقول الألوسي في روح المعاني : الكوثر صيغة مبالغة ، بمعنى الكثرة التي تجاوزت حداً معيناً (المجلد ٣٠ ، ص ٢٤٥) ، وفي لسان العرب ، الكوثر هو الكثير من كل شيء .

٢ - مجمع البيان : المجلد ٣٠ ، ص ٥٤٩ .

ان كلمة «اعطيناك» وان خرجت بهيئة الفعل الماضي الا انه من الممكن ان يكون من قبيل المضارع القطعي المبين بصيغة الفعل الماضي .

وهذا الخير الكثير في الحقيقة يستوعب كل الانتصارات التي حظي بها النبي ﷺ ، والتي لم تكن متوقعة حين نزول هذه السورة .

هذا مع الاخذ بنظر الاعتبار شأن النزول وكلمة «الابتر» التي اطلقها الاعداء على النبي ﷺ ، فيكون احد المصاديق الجلية لهذا الخير الكثير هم «الابناء» ، والسلالة الخيرة التي تفرعت من ابنته الوحيدة «فاطمة الزهراء» ، وانتشرت في سائر انحاء الكرة الارضية ، وعلى حد قول البعض : انهم ملأوا العالم في يومنا هذا ، وهذا هو الذي لم يكن متوقفا في ذلك العصر .

واشار الى هذا الموضوع - بصراحة - جماعة من مفسري ابناء العامة أيضاً ، من ضمنهم الفخر الرازي ، فالقول الثالث الذي ينقله في تفسير «الكوثر» هم نفس اولاده وابناءه ، لان هذه السورة انما نزلت رداً على من عابه ﷺ بعدم الاولاد ، فالمعنى انه يعطيه نسلأ يبقون على مر الزمان ، فانظركم قتل من أهل البيت ، والعالم ممتليء منهم ، ولم يبق من بني امية في الدنيا أحد يعبأ به ، ثم انظركم من الاكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليه السلام والنفس الزكية وامثالهم^(١) .

وجاء هذا المعنى في تفسير روح المعاني أيضاً : وقيل : هو اولاده ﷺ لان السورة نزلت رداً على من عابه ﷺ وهم والحمد لله كثيرون قد ملأوا البسيطة^(٢) . من جهة ثانية يخبر ان اعداءه سيكونون «مبتورين» ، وبلا عقب ، وتحققت هذه النبوة أيضاً ، ووصلت حالة التشرذم والتشتت باعداء الرسول بحيث لم يبق لهم أثر في هذا اليوم .

١ - تفسير الفخر الرازي ، ج ٣٢ ، ص ١٢٤ .

٢ - روح المعاني ، ج ٣٠ ، ص ٢٤٥ (طبع دار احياء التراث العربي لبنان) .

ان «ابو سفيان» وابناؤه وعشيرة بني أمية الذين كانوا من الاعداء الشرسين للاسلام اذ وقف بعضهم بوجه النبي والبعض الآخر بوجه ابنائه كانوا في يوم من الايام جمعاً غفيراً، بحيث تجاوز عدد ذويهم وابنائهم وارحامهم عن حد الاحصاء، لكن اذا بقي لهم شيء يذكر في يومنا هذا فهو مطوي في صحيفة النسيان. يقول الالوسي في روح المعاني: «الابتر» هو الذي لا عقب له، حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر، وأما انت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك الى يوم القيامة»^(١).

ان هذه السورة وان دل شأن نزولها وفقاً للرواية المشهورة على ان القائل لهذا الكلام هو «العاص بن وائل» الذي كان من الاعداء اللدء للنبي ﷺ إلا انه من البديهي ان هذه السورة ليست ناظرة الى الشخص فقط، بل ان كلمة «شاني» المأخوذة من مادة «شأن» التي هي بمعنى البغض والعداوة، لها مفهوم واسع وشامل لكل الاعداء، وهذا التنبؤ صادق في حتمهم جميعاً، لانه لم يبق لهم ذكر يؤثر، ولا ابناء معروفون ولم يكن التكهن بهذا المعنى ممكناً في ذلك اليوم الذي كان النبي يعيش فيه في مكة، والمسلمون في منتهى القلة.



٩ و ١٠ - أولئك لن يضرؤكم بشيء

تستكشف عدة تنبؤات مهمة في الآية التاسعة والعاشرة من مدار البحث:

١. ان اهل الكتاب لن يتمكنوا ان يلحقوا بكم ضرراً ذا بال ويهددوا وجود الاسلام والمسلمين بالخطر لان اضرارهم طئيفة وغير مؤثرة ﴿لَنْ يَضُرُّوْكُمْ اِلَّا اَذًى﴾.

ان كلمة «اذى» وان شملت على حد قول «الراغب» في «المنردات» كل ما يلحق الضرر بروح الانسان وجسمه ومتعلقاته لكنه نظرا الى انها وردت بصيغة الاستثناء من جملة «لن يضروكم»، ومجيئها بصيغة النكرة أيضاً، دل ذلك على ان المقصود منها هي الاضرار الجزئية سواء كانت مبادرة بشكل كلام جارح، أو بشكل حركات استفزازية سطحية.

ولا تنأتى هذه النبوءة المستقبلية الصريحة الا من طريق الروحي نظراً الى الثقة العسكرية الهائلة التي كان يتمتع بها اهل الكتاب وبالاخص اليهود، والى حالة الضعف التي يعانى منها المسلمون من الناحية الظاهرية.

٢ - ثم يقول تعالى: ان هؤلاء سيكون نصيبهم الفشل والاندحار والفرار متى ماقاتلوكم واثبتوا وجودهم في ميدان النزال: «وَأَنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ».

ان هذا التنبؤ عن ان مصير اليهود وسائر اهل الكتاب هو الفشل والتراجع في كل حرب تقع بينهم وبين اصحاب النبي ﷺ لم يكن الشيء اليسير ويتأتى من الطرق العادية أيضاً.

٣ - ان هؤلاء اليهود لن يصمدوا بحال من الاحوال، واينما وجدوا كُتِبَ عليهم الذل والهوان الا بالارتباط بالله (واعادة النظر في سلوكهم الخاطيء)، أو الارتباط بالناس والتبعية لهذا وذاك: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُخَفُّوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ».

وتحققت هذه الوعود والبشائر السماوية الثلاثة في عصر النبي كما ذكره التاريخ الاسلامي، وبالاخص ان اليهود في الحجاز اعم من «بني قريظة»، و«بني النضير»، و«بني قينقاع»، و«يهود خيبر»، و«بني المصطلق»، وقد خسروا الجولة في نهاية الامر، وتواروا عن مسرح الحياة بعدما قاموا به من انتهاكات كثيرة، وتحركات مثيرة

ضد الاسلام، هذا وان لم يرد التصريح بذكر اليهود في الآيات السابقة لكن يستفاد من القرائن الموجودة في هذه الآية والآيات المشابهة لها (كآية ٦١ من سورة البقرة التي ذكر فيها اسم اليهود صريحاً).

ان هذين الآيتين ناظرتان الى اليهود، وبالاخص ما جاء في الآية الأخيرة من ان هؤلاء انما يستطيعون ان يمسخوا عن جبينهم وصحة الذل في صورتين، الاولى: في صورة «الرجوع الى الله، وترك العصيان، والذنوب، والفساد في الارض»، (الآ بحبل من الله)، والثانية: في صورة «إتباع الناس والاتكال على الآخرين»، (وحبل من الناس).

وهذه الآية تشير الى نفس الظاهرة المشهورة في حياة اليهود الى يومنا هذا، لان تاريخهم يفصح اما عن حالة الضياع والتشرد والذل، واما عن حالة التبعية والانقياد للقوى الاخرى، وتسخير الذات في خدمة متاصدهم السيئة، (وتشاهد الحالة الاولى في العصر الاخير في عهد النازيين والحالة الاخرى في يومنا هذا).

وبالرغم مما ذكره المفسرون من احتمالات متعددة لتفسير «حبل من الله وحبل من الناس» الا ان ماتقدم ذكره آنفاً هو الانسب ظاهراً، ويمكن الأخذ ببعض تفاسير هؤلاء بعنوان مصداق لهذا المفهوم الكلي الذي ذكرناه.



٧- الإعجاز القرآني من ناحية
عدم التضاد والاختلاف

٧- الاعجاز القرآني من ناحية عدم التضاد والاختلاف

من الدلائل الاخرى على اعجازية القرآن الكريم ، وكونه نازلاً من قبل الله تعالى ، هو عدم وجود التضاد والاختلاف في سائر انحاء ، في حين ان الصفة الغالبة على الظروف التي نزل فيها القرآن والمبعوث به تدل على انه لو لم يكن صادراً من قبل الله لوقع فيه الاختلاف والتضاد ، بل الاختلافات والتناقضات الكثيرة ، وقد اشار القرآن الى هذه الحقيقة في الآية ٨٢ من سورة النساء بقوله : ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ .

ويمكن الوقوف على النكته الاساسية لهذه المسألة من خلال تحليل بسيط ، فنقول : ان الحالات الروحية لأي انسان في تغير مطرد - وقانون التكامل يحيط بالانسان فكراً وروحاً في حالة وجود ظروف طبيعية ، وعدم حصول وضع استثنائي فهو يحدث على مر الأيام والشهور والسنين تحولاً مستمراً في السنة البشر وافكارهم واحاديثهم ، واذا القينا نظرة فاحصة على تصانيف احد الكتاب فسوف لن نجدها على نسق واحد اطلاقاً ، بل لابد من وجود تفاوت في بداية الكتاب ونهايته ، خاصة اذا ماكان الانسان واقفاً امام موجة من الاحداث الكبيرة والساخنة ، الاحداث التي تضع الحجر الاساس لاحد الانقلابات الفكرية والاجتماعية والدينية الشاملة ، فهو

مهما سعى واراد ان يكون كلامه على سياق ونسق واحد ، ومعطوفاً على سابقة لا يقوى على ذلك وخاصة اذا ما كان أمياً وناشئاً في محيط متخلف جداً.

اما القرآن فقد نزل على حسب الاحتياجات والمتطلبات التربوية للمجتمع في ظروف وملابسات مختلفة تماماً طيلة ٢٣ عاماً ، فهو الكتاب الذي تحدث عن مواضيع متنوعة ، وهو ليس كسائر الكتب التي تراكب احد البحوث الاجتماعية أو السياسية أو الفلسفية أو الحقوقية أو التاريخية فحسب ، بل احياناً يتحدث عن التوحيد واسرار الخلقة ، و احياناً عن الاحكام والتوانين ، والآداب والسنن ، وتارة يتحدث عن الامم السابقة وقصصهم المثيرة ، وتارة اخرى عن المواعظ والنصائح ، والعبادات ، والعلاقة القائمة بين الله تعالى وعباده ، وعلى ضوء قول الدكتور «غوستاولبون» : ان الكتاب السماوي للمسلمين - وهو القرآن - لا يقتصر على التعاليم والدساتير الدينية فحسب ، بل تندرج فيه الدساتير الاجتماعية والسياسية للمسلمين أيضاً.

إنَّ مثل هذا الكتاب المشتمل على هذه الخصوصيات لا يمكن ان يخلو من التضاد والتناقض واختلاف الاقوال الكثيرة عادة ، لكن عندما نرى الانسجام القائم بين آياته كلها ، وخلوها من كل الوان التضاد والاختلاف وانتهافت يمكننا حينئذ الحدس بان هذا الكتاب ليس وليد أفكار الناس ، بل هو صادر من قبل الباري تعالى ، كما بيّن القرآن نفسه هذه الحقيقة في الآية السابقة .

وبعبارة اخرى - ان كافة الموجودات المادية - ومن ضمنها الانسان الذي له صبغة مادية باحد اللحاظات - في تغير وتحول دائم ومطرد وتنقل هذا التغير الى الموجودات الدائرة حوله ، ان قابلية التأثر والتأثير جزء لا يتجزأ من طبيعة الانسان ، وطبيعة أي موجود مادي آخر ، ولهذا السبب تتبدل افكار الانسان واراته مع تقدم الزمن ، علاوة على ان ازدياد تجارب الانسان ورقى مستوى ابداعه في المسائل

المختلفة يساهم في تصعيد هذا التغير ، وهذه هي التي تؤدي حتما الى التغير والتضاد واللاانسجام في المذكرات التي تعود الى سنين متمادية لأحد الاشخاص فيما لو جمعت ونسقت بعد ذلك ، والله القادر المتعال وحده هو الذي يكون بمعزل عن هذه التغيرات وقابلية التأثير والتأثير فليس في كلماته تضاد أبداً وهذه هي إحدى الطرق في معرفة كلام الحق وتمييزه عن كلام غيره ، حتى ان البعض من المفسرين صرحوا بأنه لا يقتصر الامر على عدم وجود التضاد في القرآن فحسب ، بل يتعداه الى عدم وجود التفاوت والاختلاف في درجة فصاحته وبلاغته أيضاً ، ومن الصحيح القول باننا نجد بعض الآيات القرآنية أبلغ من بعضها الآخر ، وعلى حد قول الشاعر: متى كانت «تبت يدا» بمنزلة «ياارض ابلعي» ولكن هذا يتأتى عند اختلاف المقامات أي ان كل واحدة منها تعتبر من افضل التعبيرات وانسبها في مقامها الخاص بها ، ومن هذه الجهة لا يوجد تفاوت واختلاف .

سؤال :

وهناك سؤال لا بد من طرحه وهو : اذا لم يكن هناك تضاد واختلاف في القرآن الكريم فما هو السبب من وجود آيات ناسخة وآيات منسوخة ؟

الجواب :

سبق وان قلنا في بحث الناسخ والمنسوخ في القرآن : ان الآيات المنسوخة تشتمل على قرائن تدل على ان أمدها المضموني قصير وسينتهي في يوم من الايام ، بمعنى وجود دواعي النسخ في مضمونها ، وبناء على هذه النكته فلا تضاد فيها فحسب ، بل - علاوة على ذلك - يوجد فيها نوع من التناسب والتوافق بينها .

وعلى سبيل المثال لو اردنا ان نعد برنامجاً دراسياً لمقاطع زمنية مختلفة حتى تساعد الافراد الدارسين في دائرة التعليم والتربية على تخطي المراحل المختلفة ،

والوصول بهم الى المرحلة النهائية، فان التغيرات الطارئة على البرامج في فترات مختلفة لا تعد بعنوان تضاد وتناقض وذلك الوجود قرائن في متن هذه البرامج، بل على العكس هناك نوع من التوافق والانسجام بينها.

ومما قلناه آنفاً اتضح الجواب على سؤال مشابه أيضاً يطرح في مورد آيات «العام والخاص» أو «المطلق والمقيد» ذلك ان الجمع بين العام والخاص عن طريق التخصيص، وكذلك الجمع بين المطلق والمقيد هو جمع عرفي متعارف، ولا يعد تناقضاً بأي شكل من الاشكال .

فمثلاً لو اعلنت الحكومة بحرية التصدير بشكل مطلق، ثم قررت وضع استثناءات معينة بعد ذلك فان وجود هذه الاستثناءات ليس دليلاً على التضاد، وبالاخص اذا ما تجسد هذا العمل على شكل سُنَّة وخطة معينة بحيث يقال له: حكم عام، ثم يقومون بتقييده وتخصيصه بعد ذلك، علاوة على انه لا يوجد حكم بدون استثناء عادة.

الى هنا نصل الى نهاية البحث في الاعجاز القرآني والصور المختلفة للاعجاز.



الخوارق الأخرى للعادات

مما لا شك فيه ان لنبي الاسلام معجزات اخرى كثيرة غير القرآن الكريم ، وقد اجمع كافة المسلمين في العالم على هذه المسألة ودلت عليها روايات متواترة أيضاً ، وكما ان القرآن الكريم اشار اليها مراراً وتكراراً ، فذكرها تارة بشكل مجمل ومقتضب ، وتارة بشكل مفصل من خلال الاشارة والتنويه على المعجزات الخاصة .

ومما تجدر الاشارة اليه هو المقطع الاول من الآية التالية :

١ - ﴿وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

مُبِينٌ﴾ .

التعبير بـ(رأوا آية) يدل بوضوح على انهم شاهدوا معجزة أو معاجز للنبي ، وبدلاً من ان يؤمنوا به أبدوا مردودين عكسيين سلبيين للغاية ، الاول : هو انهم اخذوا يتوسلون بمنطق الاستهزاء والسخرية ، والآخر : هو انهم اعتبروا ذلك «سحراً مبيناً» . ومن المسلم ان الآيات القرآنية سمعية وليست بصرية ، وعليه لا يمكن أن تكون لفظة «الآية» هنا ناظرة الى الآيات القرآنية ، بالاضافة الى ذلك فان التعبير بـ«السحر المبين» يتناسب تماماً مع المعجزات وخوارق العادات ، والواقع ان اتهامهم نبي الاسلام بالسحر ، وترويجهم لهذه المسألة بشكل واسع يدل على انهم رأوا منه

خوارق عادات ومعجزات ، وفضلاً عن ذلك كله كيف يتأتى للنبي الاكرم ان ينقل في كتابه السماوي المعاجز الحسية لبقية الانبياء كمعجزة «اليد البيضاء» ، و «عصا موسى» ، والمعجزات التسعة الصادرة منه (النمل - ١٢) ، أو المعجزات المتعددة للسيد المسيح ، نظير «احياء الاموات» ، «وشفاء العمي الذين فقدوا بصرهم منذ الولادة» ، و «المرضى المأبوس من علاجهم» وما شابه ذلك ، وكذلك المعاجز الصادرة من ابراهيم ، وصالح ، ويوسف ، وسليمان ، وداود ، والتي ورد ذكرها جميعاً في القرآن - ثم لا يأتي بنفسه بمعجزة حسية؟! كيف يمكن له ان يقنع الناس بان جميع الانبياء كانوا يمتلكون معاجز حسية وهو لا يمتلك شيئاً منها في حين ان نبوته افضل النبوات ، ودينه افضل الاديان ؟ إن كل هذه القرائن - مضافاً الى الآية السابقة - تدل على انه كانت له ﷺ معجزات أخرى .



بالاضافة الى الآية السابقة فهناك آيات كثيرة أخرى بصدد بيان مسألة اعجاز نبي الاسلام ، وقد وردت عن ائمة الدين روايات في تفسيرها وذكر سبب وتاريخ نزولها ، إن معاجز نبي الاسلام لا تعد ولا تحصى فعلى سبيل المثال لا الحصر نلاحظ نماذج منها:

١ - نطالع في الآية الاولى من سورة الاسراء قوله تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» .

لا شك ان الذهاب من «المسجد الحرام» الى «المسجد الاقصى» ، واكثر من ذلك الصعود الى السماوات ، خاصة في الظروف الموضوعية لذلك الزمان ، كان امراً خارقاً للعادة ، بيد انه ما لم يشاهد الناس هذا المشهد لا يمكن ان تكون له صبغة

اعجازية ولا يمكن ان يقع في طريق اثبات دعوى النبي ﷺ ، إلا ان الروايات الاسلامية تدل على ان الناس اطلعوا على هذه القضية عن طريق الاخبار التي القاها النبي على القافلة أو القوافل التي كانت تشق طريقها بين مكة والشام^(١).

٢ - جاء في ذيل الآية (٩٥) من سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ، ان ستة مجموعات (أو أقل) كانت كل واحدة منها تتعامل مع نبي الاسلام بنوع من انواع الاستهزاء ، وكلما انبرى الى دعوة الناس كانوا يسعون من خلال احاديثهم الى تفريق الناس من حوالبه ، غير ان الله تعالى ابتلى كل واحد منهم ببلاء معين ، ووصل الامر بهم الى ان ينشغلوا بانفسهم كثيراً بحيث نسوا النبي ﷺ^(٢).

٣ - يقول تعالى في الآية (١١) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ .

ورد في بعض الروايات الى ان هذه اشارة مستبطنة ناظرة الى المؤامرة التي دبرها «يهود بني النضير» لاغتيال نبي الاسلام ، وذلك حينما توجه النبي اليهم مع جمع من اصحابه ليتباحثوا حول الاتفاقية التي كانت معقودة بينهم بالنسبة الى دية المقتولين ، فقالوا: لا مانع من ذلك ، اجلسوا وتناولوا الطعام حتى يتحقق مرادكم ، وفي تلك الحالة كان في نيتهم ان يقوموا بحملة مباغته ويقضوا على النبي واصحابه ، فاطلع الله تعالى النبي بذلك واخبر بدوره هو اصحابه أيضاً وعادوا بسرعة ، «وكانت

١ - جاء في اثبات الهداة، المجلد ١، ص ٢٤٧، عن الامام الصادق عليه السلام ان النبي ﷺ أخبر عن رؤية قافلة أبي سفيان ومرورها ببئر قبيلة فلان بحثاً عن ناقة لهم ذات وبر أحمر، كما وصف سوق الشام الذي لم يره قط (مجمع البيان المجلد ١، ص ٣٩٥، وسيرة ابن هشام المجلد ٢، ص ٤٣ - ٤٤).

٢ - نقل الطبرسي في مجمع البيان المجلد ٥ - ٦، ص ٣٤٦، وكذلك العلامة المجلسي في بحار الانوار المجلد ١٨، ص ٤٨، وابن هشام في السيرة المجلد ٢، ص ٥٠، وبقية المفسرين والمؤرخين شرحاً وافياً لهذه الواقعة.

هذه احدى معجزات النبي^(١).

٤ - تعقيباً على قوله تعالى في الآية ٤٥ من سورة الاسراء: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَنُشُورًا﴾.

ورد ان بعض الاعداء كانوا ينوون القضاء على حياة النبي في حالة انشغاله بتلاوة القرآن ، فاسدل الله تعالى حجاباً على أبصارهم يحول بينهم وبين رؤية نبيه .
وورد في الحديث الذي نقله المرحوم الطبرسي في الاحتجاج عن علي عليه السلام : ان الله تعالى اسدل خمسة حجب على انظارهم للحيلولة بينهم وبين رؤية محمد ﷺ ، وقد اشير الى هذه الحجب الخمسة في القرآن الكريم .

في احد المواضع من (سورة يس آية ٩) يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ ، فهذا هو الحجاب الاول ثم يعتب بقوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ وهذا هو الحجاب الثاني ، ثم يقول بعدها: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ .

ثم انه يقول في آية ٤٥ من سورة الاسراء: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَنُشُورًا﴾ ، وهذا هو الحجاب الرابع .

وقال بعد ذلك في سورة (يس) الآية ٨: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾^(٢) ، ولذا لا يرون شيئاً وهذا هو الحجاب الخامس .

إن هذه الحجب سواء كان لها صبغة مادية او معنوية ، فهي وقتت حاجزاً امام المؤامرات المختلفة المدبرة ضد النبي ، وهذه بحد ذاتها تمثل احد المعاجز النبوية الشريفة .

٥ - نطالع في الآية ١٣٧ من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

١ - مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

٢ - تفسير البرهان ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ ، الحديث ٢ .

ان الاشخاص المحيطين علما بالتاريخ الاسلامي هم القادرون على الاطلاع على عمق مفهوم هذه الآية التي يُستشف من ظاهرها ان الاعراب المعاندين والمتعصبين الجاهليين وخاصة الاشراف من مشركي مكة الذين تعرضت منافعهم اللامشروعة للخطر مع ظهور الاسلام ، لم يدخروا جهداً في القضاء على الاسلام والنبي الاكرم .

في الوقت ذاته تعطي الآية التي نحن بصددھا وعداً صريحاً بان الله تعالى سوف يدفع شرورهم ، ويسفه احلامهم ، وينفلث مؤامراتهم ، وهذه من احدى النبؤات الاعجازية .

٦ - وردت الاشارة في الآية ٩ من سورة الاحزاب الى اعجاز آخر حدث في حرب الاحزاب يقول عز من قائل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ . ان الذين يطالعون قصة «حرب الاحزاب» في القرآن الكريم ، والروايات والتواريخ ، يجزمون على وجود بون شاسع بين المسلمين واعداءهم ، فقد فرض الاعداء حصاراً شديداً على المدينة بحيث اصبحت سقوطها حتمياً بحسب الظاهر ، ووصلت الحالة بالمسلمين الى ان يعبر القرآن عنهم بقوله : ﴿إِذْ زَاغَتِ الْ أَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ... وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ .

في خضم هذه الظروف هبت - على حين غرة - نسمة الرحمة الالهية ، وانقلبت الامور رأساً على عقب وتتابعت فيوضات المدد الالهي على المسلمين وقذف الله في قلوب المشركين الرعب والفرع الشديد فتراجعوا خائبين بدون ان يحققوا عملاً معيناً وعادوا الى مكة .

وفي الواقع ان جميع الاخبار الغيبية في القرآن التي بحثناها مفصلاً في الفصل السابق ، يمكن الاستناد اليها في هذا البحث أيضاً ، وذلك لأن كل واحد منها يعتبر

معجزة من معاجز نبي الاسلام ودليلاً على صدق قوله وادعائه طالعوا مرة أخرى كل ما ذكرناه في الفصول العشرة من بحث الاعجاز القرآني من ناحية الاخبار الغيبية ، اذ كل واحدة من تلك الفصول تعتبر شاهداً على البحوث التي بين ايدينا في هذا الفصل .



واما الموارد الخاصة التي حددها القرآن ففي مقدمتها قصة شق القمر التي جاء ذكرها في سورة القمر من الآية ١ الى ٣ بقوله تعالى : «إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمْرٍ مُسْتَقَرٌّ» .

الكلام يقع في ان المقصود من شق القمر هل هو بعنوان معجزة من المعاجز الواقعة في هذا العالم ، أو انه اشارة الى انشقاق القمر في المستقبل أو في نهاية العالم بصفته احد العلائم على بداية الآخرة فالمشهور بين المسلمين هو الاحتمال الاول على حد قول الفخر الرازي : «والمفسرون بأسرهم على أن المراد ان القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ، ودلت الاخبار على حديث الانشقاق ، وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة»^(١) .

وينقل المرحوم «الطبرسي» أيضاً حديث انشقاق القمر عن جمع كبير من صحابة النبي ، وجماعة من المفسرين ويعد المخالفين لهذه المسألة ثلاثة اشخاص فقط ، هم : (عثمان بن عطاء ، عن ابيه وكذلك الحسن والبلخي) ، ثم يقول بعد ذلك : «وهذا لا يصح لان المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتد بخلاف من خالف فيه ولان

اشتهاره بين الصحابة يمنع من القول بخلافته»^(١).

وذكر جماعة من المفسرين عبارات متشابهة لما نقلناه عن «الطبرسي» و«الرازي».

علاوة على ذلك فانه توجد قرائن واضحة على هذا المعنى في نفس هذه الآيات من جملتها:

١ - جملة «وانشق القمر» المذكورة بصيغة الفعل الماضي التي تدل على وقوع مثل هذا الامر، واما كون الفعل الماضي بمعنى المضارع فانه وان ورد ذكره في موارد معينة من القرآن الكريم، لكن نظرا لكونه استعمالاً مجازياً فهو بحاجة الى القرينة، ولا توجد قرينة في هذا المقام.

٢ - ان افضل شاهد على هذا المعنى هي الآية الثانية التي تقول: «وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ»، لان مشاهدة «الآية» و«الاعراض» عنها، ونسبة السحر الى النبي كلها تدل في الظاهر على وجود معجزة.

٣ - تخبر جملة: «وكذبوا واتبعوا أهواءهم» في الآية الثالثة عن تكذيب هؤلاء لنبي الاسلام حتى بعد مشاهدة المعجزة، ولو لم يكن اعجازاً في البين لما كان لهذه التعابير اساس من الصحة بأي شكل من الاشكال.

٤ - بالاضافة الى ذلك فقد نقلت روايات كثيرة في مصادر الحديث الاسلامي حدوث هذا الاعجاز وصلت الى حد الشهرة والتواتر، وقد اقر جمع من المفسرين مسألة تواتر الاخبار الواردة في شق القمر، من جملتهم: الطبرسي، والفخر الرازي، والسيد قطب، والبروسوي في روح البيان فلا يمكن الاعراض عن هذه الآيات والروايات بالاستناد الى بعض الهواجس والفرضيات البعيدة على الاطلاق.

ومما يمكن ذكره بعنوان قرينة على وقوع هذه الحادثة في المستقبل هو اقتران

قرب وفروع يوم القيامة الى جانب شق القمر حينما يقول: «إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ».

الآن الذي ذهب اليه جماعة من المفسرين هو ان اقتراب يوم القيامة تحقق مع ظهور نبي الاسلام ، لاننا نقرأ في المأثور عنه : «بعثت انا والساعة لهاتين» وقد اشار الى اصبعين متوازيين من اصابعه المباركة^(١).

ولذا نقرأ في بداية سورة الانبياء هذه الآية : «إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ»، ونقرأ في سورة الاحزاب آية ٦٣: «قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يَذْرَئِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا»، وذلك حينما سألوا النبي عن موعد حصول يوم القيامة.

ووفقاً لما ورد في الروايات المشهورة فان المشركين جاؤوا الى رسول الله وقالوا: (اذا كنت صادقاً في قولك وانك نبي حقاً فاشطر القمر لنا شطرين)^(٢). ولم يمض شيء من الوقت حتى اتصل احد شقي القمر بالآخر وعاد الى حالته الاولى.

وقد نقل الصحابي المشهور حذيفة قصة انشقاق القمر بحضور جمع من الناس في مسجد المدائن ، فلم يعترض عليه أحد مع انهم ادركوا عصر النبي ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على قطعية هذه المسألة في اوساطهم^(٣).



تساؤلات مختلفة حول مسألة شق القمر

في قبال الآيات السابقة ، والروايات الاسلامية المشهورة التي وردت في جميع

١ - تفسير الفخر الرازي ، ج ٢٩ ، ص ٢٩ - مجمع البيان ذيل آية ١٨ سورة محمد ﷺ .

٢ - مجمع البيان وكتب التفسير الاخرى في ذيل الآية المبحوثة .

٣ - نقل الحديث السيوطي في الدر المنثور والقرطبي في ذيل الآية .

كتب الحديث المعروفة ، وتفسير أهل السنة والشيعة يميل البعض من خلال الاستناد الى مجموعة من الاشكالات الى رفع اليد عن ظهور هذه الآيات ، وربطها بالحوادث المختصة ببدايات يوم القيامة وبالاصلطلاح «اشراط الساعة» .

١ - اشكال من زاوية تاريخية

من جملة الاعتراضات التي يوردها بعض البسطاء والسذج على مسألة «انشقاق القمر» هو ان هذا الامر ينبغي ان يدون مع ماله من اهمية كبرى في تواريخ العالم ، والحال ان الامر ليس كذلك فلا نشاهد اثرأ منها يذكر في التواريخ .

ولكن يتضح إن هذا الاعتراض غير وارد ، حيث يلزم ان تجرى عملينا التجزئة والتحليل من جميع جوانب هذه المسألة .

أ - ينبغي الالتفات الى ان القمر قابل للرؤية دائما في نصف الكرة الارضية لا في جميعها ولهذا فان نصف الناس مستثنون من هذه القاعدة .

ب - ان الاكثرية الساحقة في نصف هذا النصف من الكرة نائمون أيضاً بعد منتصف الليل ، وعليه فان الذي يحيط علما بمثل هذه الحادثة هم ربع الناس في العالم فقط .

ج - لا يبعد في المجال القابل للرؤية أيضاً ان تكون مساحات شاسعة من السماء ضبابية ، ويكون وجه القمر محجوباً بالسحاب .

د - ان الحوادث السماوية انما تسترعي انتباه الاشخاص في صورة كونها كالعواصف المصحوبة بالصخب الشديد ، أو كالخسوف والكسوف الكلي المستلزم لانقطاع النور بصورة تامة ولمدة طويلة نوعاً ما أيضاً .

ولهذا السبب قلما يطلع احد على الخسوفات الجزئية ، والكسوفات البسيطة اذا لم تكن مسبقة بالاعلان من قبل المنجمين ، حتى ان الكثير من الناس تخفى عليهم

حالة الكسوف التامة أيضاً في بعض الاحيان .

ان العلماء الذين يترصدون القمر والاجرام السماوية ، أو الاشخاص الذين تقع اعينهم على السماء صدفة ، هم فقط يمكنهم ان يطلعوا على مثل هذه الحادثة ويخبروا عنها مَنْ لَمْ يَرَهَا من الناس .

ولذا فان مثل هذه الحادثة القصيرة الاملد لا تسترعي انتباه جميع الناس في العالم ، لا سيما ان مجتمع ذلك العصر لم يبد الاهتمام المطلوب بالاجرام السماوية . هـ -بالاضافة الى ان الوسائل اللازمة لتدوين المطالب في التاريخ ونشرها كانت محدودة في ذلك الزمان ، وحتى الافراد المتعلمون كانوا قليلين جداً ، وكانت الكتب جميعها خطية ، ولم تكن تنشر الحوادث المهمة بواسطة الاجهزة الصوتية والمرئية والصحف المحلية في جميع انحاء العالم ، وتسجل في جميع التواريخ كما هو الحال في يومنا هذا .

واستنادا الى هذه النقاط لا ينبغي الاستغراب من عدم ذكر هذه الحادثة في التواريخ غير الاسلامية ، واعتبار ذلك دليلاً على نفيها .

٢ - من زاوية علمية

استناداً الى «هياة بطليموس» التي ترى ان الارض هي مركز العالم والافلاك التسعة المحيطة باطرافها على شاكلة طبقات قشرة البصل ، وكانت تعتقد ان هذه الافلاك كالجسم البلوري المرتبط ببعضه ببعض ، والنجوم والاجرام السماوية مندكة في قلب الافلاك ، وتدور مساوقة لحركة الافلاك ، وأي نوع من انواع الخرق والالتثام في الافلاك محال ، لهذا السبب انكر اتباع هذه العقيدة كلاً من «المعراج الجسماني» ، و «انشقاق القمر» معاً ، ذلك ان كليهما يوجب الخرق والالتثام في الافلاك!

الاعجاز القرآني من ناحية عدم التضاد والاختلاف ٢٩٣

الآن أنه لم يعد هناك أرضية لهذا الكلام في يومنا هذا بعد أن طويت فرضية الهبأة لبطليموس في ملف الأساطير والخرافات وثبت بطلان الأفلاك التسعة من الناحية العلمية والحسية .

وقد يقال: ليس من السهل تحقق مسألة انشقاق القمر بمنظار العلم الحديث أيضاً ، لأن هذه الكرة «مساحة القمر» وإن كانت خمس الكرة الأرضية الآن مع ذلك كرة عظيمة ، ووقوع الانشقاق والانفجار فيها بحاجة إلى عامل قوي جداً ، والجواب على هذا الاشكال واضح في نظر أهل التوحيد ، إذ لم يدع أحد بحدوث «انشقاق القمر» من جراء إحدى العوامل الطبيعية ، بل كان يُعزي سبب حدوث ذلك إلى الإعجاز مستنداً إلى القدرة اللامتناهية للباري عز وجل .

ولا يخفى عليكم أن الله لا يصعب عليه انشقاق القمر ، بل إن إيجاد المنظومات والمجرات الأخرى كلها منقادة لإرادته ومشيبته أيضاً ، ذلك الله الذي أحدث الانفجار الأول في قلب الشمس منذ البداية ، وفصل عنها السيارات الكبيرة للمنظومة الشمسية ، فقذفت كل واحدة منها في ناحية من النواحي وبدأت تدور حولها ، أجل ، إنَّ مَنْ بيده كل شيء وقادر على كل شيء لتأدبر على إثبات نبوة نبيه ، وذلك أن يحدث في لحظة من اللحظات مثل هذا الانفجار ثم الالتئام في كرة القمر التي هي لا تساوي شيئاً أمام قدرته تعالى .

إن الذين يستهينون بالقدرة الإلهية - والعباد بالله - أو لم يحيطوا علماً بحدوث المنظومات السماوية الكبيرة على أثر الانفجارات المتتابعة ، هم فقط الذين يشيرون بالاشكالات على هذا النوع من المسائل .

٣- انشقاق القمر بمنظار الآيات

يقولون إن آيات في القرآن الكريم تدل على أن نبي الإسلام ﷺ لم يمتلك

معجزة سوى القرآن : واستدل هؤلاء على اثبات فكرتهم بالآية ٥٩ من سورة الاسراء التي تقول : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ ، وكذلك تشبثوا بالآية ٩٠ الى ٩٣ من سورة الاسراء وذلك استناداً الى ان جماعة طلبوا من النبي طلبات مختلفة فتارة قالوا : لا نؤمن الا ان تشجر لنا نبعاً من هذه البقعة من الارض (الجرعاء القاحلة) ، وتارة أخرى قالوا : لا نؤمن لك الا ان يكون في حوزتك بستان كبير من اشجار النخل والعنب وتجري من خلاله الانهار ، أو تنزل على رؤوسنا - كما تدعي - الاحجار السماوية ، أو تحضر لنا الله وملائكته ، أو تمتلك بيتاً من الذهب ، مليئاً بالرسوم والنقوش ، أو تصعد الى السماء ، ولا نكتف بذلك الا ان تأتينا بكتاب من قبل الله تعالى ، فما كان جواب النبي الاكرم على مطالبهم الا أن قال : ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ، وعلى ضوء جوابه ﷺ ادعى اولئك المرتابون بأنه لم يقدم على أي معجزة .

الجواب :

ان الالتفات الى الكلمة التي وردت في اقوال جمع من المفسرين الكبار توضح الجواب على هذا الاشكال وهي : ان المعجزات على نوعين :

النوع الاول : هي المعجزات الضرورية لاثبات صدق دعوى النبي ، وترغيب الناس الى الايمان ، وتخويف المنكرين ، وهي المعاجز المنطقية لناشدي الحق والباحثين عن الحقيقة ، بحيث يعبر القرآن في ذيل الآية الاولى منها بقوله : ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ ، (سورة الاسراء : ٥٩) .

النوع الثاني من المعجزات : هي المعجزات التي تسمى بـ«الاقتراحية» ، اي المعجزات التي يطالب بها المتعلّلون لا لأجل سلوك سبيل الحق واليقين بصدق دعوى النبوة ومن ثم الايمان واعتناق الاسلام ، وانما بقصد تعجيز الطرف الآخر فان

وجدوا به قدرة على ذلك اتهموه بالسحر.

والانبياء كانوا يتجهون صوب القسم الاول ولا يستسلمون اطلاقاً لمقترحات المتعللين والمعاجز الاقتراحية.

يشير لحن الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الاسراء بشكل واضح الى ان هذه المطالبات العجيبة والغريبة والمتهافئة لمشركي العرب لم يكن منشؤها هو البحث عن الحقيقة، بل الغاية منها هي اختلاق الاعذار والتشكيك في نبوة نبي الاسلام وارساء دعائم الشرك والصنمية، ولذا لم يتمعنوا النظر حتى في مفهوم كلامهم، فمن ضمن مطالبهم مثلاً أنهم يطلبون معجزة من المعاجز التي تبيدهم «كنزول الاحجار السماوية على رؤوسهم»، وتارة يطلبون معجزة كمعجزة (الصعود الى السماء)، ثم ينفون ذلك مباشرة ويقولون: نحن لا نؤمن بذلك حتى تبعث لنا كتاباً من قبل الله، وتارة يطلبون الامور المستحيلة كقولهم: ان تأتينا بالله والملائكة، والحال أن الله ليس له مكان، وليس بجسم ولا جسماني.

ثم اذا كان الهدف هو التوصل الى معرفة حقانية النبي فَلِمَ يطلبون ست معاجز مختلفة؟ أليس المورد الواحد منها كافياً؟

من هنا لم يتسن لأي نبي ان يستسلم لهذا النوع من الارجيف والاباطيل، فضلاً عن ان الاعجاز ليس من شأن النبي واختياره، وانما هو من شأن الله تعالى واختياره. ان النبي بامكانه ان يطلب المعجزة من الله والله تعالى يضع بين يديه اي مورد يراه صالحاً، ولهذا نقرأ في ذيل الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الاسراء هذا المعنى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ وكذا في سورة الرعد آية ٣٨: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

واما قوله: نحن لن نستسلم لمطالبكم لان الاولين كذبوا ذلك فهذا يدعو الى هذا التساؤل وهو: كيف يجوز ان يكون تكذيب الاولين سبباً لحرمان الاجيال

المتعاقبة من مشاهدة المعجزات ؟ فالاجابة عليه تكمن في كون هذه العبارة متداولة وذلك بأن يقال للشخص العنيد الذي لا نريد أن نستسلم له : انّ اقتراحك لم يكن وجيهاً وقد سبق لغيرك أن اقترحه ، ولم يرضخ للحق .

بعبارة اخرى أن المعاجز التي تقترحونها لا تستند الى أساس البحث عن الحقيقة ، وانما هي «اقتراحية» وتعليلية ، ولو نفذت طلباتكم لما آمنتكم أيضاً ، فقد سبق لافراد مثلكم في الامم الغابرة أن طلبوا إظهار معاجز ثم كذبوها بعدما شاهدوها .

ملخص الكلام هو ان من الصحيح القول : بان القرآن لوحده معجزة خالدة ، ولو لم يكن هناك معجزة اخرى سوى هذه المعجزة للنبي لاستطاعت ان تكون شاهداً على صدقه ، ولكن هذا لا يدل على ان النبي لم يمتلك معجزات جسمانية ومادية غير هذه المعاجز الروحية والمعنوية ، بل ذهبت الآيات والروايات والتواريخ الاسلامية وسيرة النبي الى القول : بانه كان يمتلك ذلك ، ولا شك في ان انضمام المعجزات المحسوسة والمادية الى تلك المعجزة المعنوية الكبيرة يظهر حقانية الدعوة النبوية بصورة أجلى وواضح .



تجميع القرائن طريق
آخر للاطمئنان

تمهيد :

خلافاً لما يظن البعض فإن سبيل اثبات صدق دعوى النبوة ليست قضية المعجزات فقط ، بل احياناً تثبت عن طريق تجميع القرائن المتعلقة بحياة ذلك النبي ، وصفاته وخصائصه الاخلاقية والعملية ، ومضمون الدعوة وبرامجها المستخدمة يمكن الحصول على سند واضح قد يعادل اقوى المعجزات بل أحياناً يتقدم تلك المعجزات ايضاً .

إنّ هذا النوع من الاستدلال يلاحظ ايضاً في كلام القدامى ، وان كان يبدو شكله اقل انسجاماً .

ولهذا السبب فمن اللازم تقديم بعض التوضيحات حول هذا الموضوع مسبقاً .

تجميع القرائن دليل معمول به في كل العلوم

للتوصل الى الحقائق في العلوم المختلفة يتم اليوم الاستفادة من طريقة تجميع القرائن بشكل كبير لكشف الجرائم ، ولتشخيص انواع الامراض ، ولمعرفة خصائص الشخصيات العظيمة السالفة على طول التاريخ ، ولكشف القضايا المتعلقة بعالم الخلق ، الارض والسماء ، النباتات والحيوانات .

والفرق بين هذا الأسلوب وأسلوب (الاستقراء) الذي هو أحد طرق البرهان هو: اننا نحصل بالاستقراء على حكم كلي عند البحث والتنقيب عن الافراد فعلى سبيل المثال نقوم بعد فقرات افراد كثيرين ثم ندرج في الكتب قانوناً عاماً يقول: بأن الانسان له كذا عدد من الفقرات .

ولكن بطريقة تجميع القرائن نقوم بدراسة آثار موضوع خاص أو مايسمى بـ«الجزئي الحقيقي» ثم نتوصل من مجموع تلك الآثار الى المؤثر.

وكمثال على ذلك: حينما تقع جريمة في نقطة ما ويؤتى بالمتهم الى المحكمة فينكر التهمة الموجهة اليه جملة وتفصيلاً مستفيداً من عدم وجود شاهد يثبت التهمة، فان الحاكم الذكي لا يغلق ملف القضية بذريعة انكار المتهم وعدم تبسّر الشاهد بل يقوم بتجميع القرائن عن طريق التحقيقات المختلفة، ودراسة امور كثيرة اخرى مثل:

أ: سوابق المتهم .

ب: نوع العلاقة التي تربط بين المتهم والشخص الذي وقعت عليه الجريمة، وهل هناك من خصومة أو اختلاف بينهما ام لا؟

ج: مكان وزمان وقوع الحادثة، وهل بإمكان المتهم ايضاح المكان الذي كان فيه وقت وقوعها؟

د: نوع السلاح أو الرصاصة التي عُثر عليها في هذه الحادثة، وهل ان المتهم يستخدم مثل هذا السلاح ام لا؟

هـ: ملاحظة الحالة الجسدية للمتهم والشخص الذي وقعت عليه الجناية، وهل توجد آثار منازعة عليهما ام لا، وهل للمتهم توضيحات لهذه الآثار ام لا؟

و: الاحساس الذي ينعكس على المتهم عند مشاهدته رداء المقتول وآثار الجريمة، وهل تضطرب حالته ام يحتفظ بهدوئه اثناء ذلك؟

تجميع القرائن طريق آخر للاطمئنان ٣٠١

ز: الحالة النفسية للمتهم ومقارنتها بالسابق، هل هي متعادلة ام يسيطر عليها الاضطراب؟

ح: عند اجابته على اسئلة المحقق والحاكم هل ينتابه الارتباك والاضطراب والتناقض وامثالها ام لا؟

بالاضافة الى مسائل اخرى كثيرة، وقد لا تكون آحادها كافية لاثبات الحقيقة، ولكن بحث هذه الجوانب احياناً لا يبقي اي شك أو ترديد بان الجريمة نفذت من قبل المتهم، وهذا ما يقوي من عزم الحاكم أو القاضي بأن يتابع القضية بأناة وما اكثر ماتنتهي متابعته الى اقرار الطرف المقابل ايضاً.

بل ويمكن القول: بأن (الاقرار) هو دليل ظني -لأنه لوحظ كثيراً أن البعض ومن اجل الهروب من قبضة العدالة اعطوا اموالاً طائلة لشخص آخر حتى يعترف بعد طمأنته بأنهم سيخلصونه في النهاية، وكذلك (شهادة الشهود) هي دليل ظني ايضاً، لان احتمالها للخطأ أو التواطؤ ليست مستحيلة (لاشك ان شهادة الشهود والاعتراف مقبولة، وان المقصود هو انها دلائل ظنية مقبولة في نهاية الامر، في حين ان تجميع القرائن يمكن قبولها عند وصولها الى مرحلة القطع واليقين).

وتلاحظ في الاحكام الاسلامية ايضاً نماذج واضحة لهذا المسألة، وحياناً تم اثباتها حتى بواسطة قرينة حكم واحدة مثل حكاية اختلاف (العبد) و(السيد) في عصر أمير المؤمنين عليه السلام عندما أمر عليه السلام (صورياً) بضرب عنق العبد منهما اذ سحب احدهما رأسه ليثبت على نفسه انه العبد.

أو قصة اختلاف تينك المرأتين على وليدٍ وأمره عليه السلام -صورياً- بقطع ذلك الوليد الى نصفين، عندئذ تنازلت الأم الحقيقية لذلك الطفل عن حقها فكان موقفها ذاك دليلاً على صدق دعواها، وامثال ذلك.

على أية حال ان الاستفادة من هذه الطريقة للوصول الى نتائج قطعية ليس في

المسائل القضائية وحسب، بل وفي الكثير من العلوم، وكذلك القضايا الاجتماعية والسياسية المختلفة هو أمر معتاد وبناء. ويمكننا ايضا الاستفادة منه في مسألة اثبات نبوة الانبياء واحيانا يكون تأثيره في ايجاد اليقين والاطمئنان اكثر من تأثير المعجزات العادية.

بهذه الاشارة نعود الى الآيات القرآنية لنرى مالها من بيان حول هذا الدليل - بشكله الكلي، ثم نتجه نحو حياة الرسول الاكرم ﷺ لنجمع القرائن المختلفة عن حياته ونضعها الى جانب بعضها البعض حتى يحكم القراء عليها بأنفسهم.



في القسم الاول وفي آيات متعددة من القرآن تلاحظ اشارات طافحة بالمعاني حول هذا الدليل ومن جملتها:

١ - الآيات التي تعبر عن وجود نبي الاسلام ﷺ بأنه (شاهد) و (سراج منير) و (برهان) و (شمس).

ففي الآيتين ٤٥ و ٤٦ من سورة الاحزاب نقرأ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.

في هاتين الآيتين يقدم القرآن الكريم نبي الاسلام ﷺ على انه (شاهد)، فقد ورد في أحد التفاسير أنه شاهد على أحنثيته، لان صفاته وأخلاقه، وخططه البناءة، وسوابقه الساطعة، واعماله، تشهد على حقانية دينه وصدق دعوته هذا من جهة^(١). ومن جهة اخرى يعرفه بعنوان (سراج منير)، واننا نعرف بأن السراج هو دليل

١ - في تفسير آخر للآية المذكورة اعتبر النبي ﷺ كشاهد على الانبياء قبله. أو شاهد على أعمال امته يوم القيامة. في حين لا يوجد اي تناقض أو تعارض بين هذه التفاسير الثلاثة ويمكن جمعها في معنى الآية.

على نفسه ولا يحتاج لدالٍ عليه أو كالقول المعروف (طلوع الشمس دليل على الشمس).

وتعبير (برهان) الذي جاء في الآية ١٧٤ من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ هو إشارة أخرى لتلك الحقيقة، لأن (برهان) مشتقة من مادة (بره) «على وزن فرح» وتعني الإيضاح، ولأن الاستدلالات الواضحة تنير وجه الحق وتبيضه، لذا أطلق عليها برهان.

ويعتقد جمع من المفسرين أن المقصود من البرهان في هذه الآية هو ذات الرسول ﷺ^(١)، والمقصود من النور هو القرآن المجيد.

وبناءً على ذلك فإن شخص الرسول ﷺ جرى تعريفه بعنوان (برهان)، وذلك بسبب توفر آثار وقرائن في وجوده تنبئ بأحقيقته فضلاً عن معجزاته.

وجاء في تفسير: (والشمس وضحاها) في روايات متعددة أن (الشمس) هي إشارة لوجود الرسول الأكرم ﷺ، وأن (القمر) هو إشارة إلى وصيه بالحق^(٢).

من البديهي أنه لا يوجد دليل لا ثبات وجود الشمس سوى وجودها بالذات، لأن الجميع يطلعون على وجود الشمس المشرقة والمنيرة بمجرد طلوعها من أفق المشرق.

وفيما عدا هذه التعابير أشار القرآن الكريم في آيات أخرى البنان على هذه المسألة وأشار إلى بعض دلائل احقية الرسول ﷺ ومن جملتها أنه استند إلى قضية (أميته) واعتبارها قرينة، مثلاً يقول في الآية ٤٨ من سورة العنكبوت:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

١ - من الذين قبلوا هذا المعنى أو نقلوه باعتباره تفسيراً: المرحوم الطبرسي في مجمع البيان، والعلامة الطباطبائي في تفسير الميزان، والمراغي، والقرطبي في تفسيرهم (ذيل الآية المذكورة).

٢ - في تفسير البرهان الجزء / ٤ ص ٦٦ توجد خمسة أحاديث حول هذا الموضوع، وليس في هذا التفسير تعارض مع التفاسير الأخرى للشمس، ويمكن جمعها كلها في معنى الآية.

وهنا يشير القرآن الى ان الرسول ﷺ لو كان قد تلقى الدروس لكان الشك بأن القرآن منه أو من الله طبيعياً، ولكن بالنظر الى انه ﷺ كان أمياً وأن القرآن الكريم كان معجزة من جوانب مختلفة فلا يبقى لأحد اي مجال للشك بأن هذا الكتاب هو من قبل الله تعالى.

وهذه طبعاً قرينة واحدة فقط من الترائن الكثيرة التي تلاحظ في وجوده ﷺ، ودليلاً على صدق دعوته، وكلما وضعنا مجموع هذه الترائن الى جنب بعضها البعض لاضحت المسألة اكثر سطوعاً من الشمس.

وتعبير (المبطلون) يدل على انه حتى لو كان النبي ﷺ قد تلقى التعليم فلا مجال ايضاً الى ان نعتبر هذا الكتاب هو من بناء افكاره، لماذا؟ لانه يقينا اسمى من فكر وعلم بني البشر، ولكن هذا الأمر بمنزلة قد يشكل ذريعة للمفسدين والمبطلين.

وفي الآية ١٦ من سورة يونس ايضاً نقراً:

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّرْنَ قَبْلِهِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وفي الحقيقة كان النبي ﷺ يعتمد على هذه القرينة عندما يقول: انني عشت بينكم سنين طويلة ولم تسمعوا مني مطلقاً مثل هذا الكلام (الآيات الترانسية)، ولو كانت هذه الآيات صادرة مني فلا بد ان تجري على لساني خلال هذه الاربعين سنة أو لسمعت مني قسماً منها على الاقل.

وكما يقول بعض علماء النفس: فأن النبوغ الفكري، واكتشاف وابداع المسائل المستحدثة يبدأ عادة عند الانسان من سن العشرين، وتمتد على الاكثر الى سن ٣٠ أو ٤٠ سنة، أي: ان الانسان اذا لم يأت حتى ذلك العمر بأبتكار جديد ففي الغالب ينتهي عنده بعد ذلك.

وهذا الموضوع الذي يُعدّ اليوم كاكشاف نفساني كان يقينا في الماضي غير واضح الى هذا الحد ، ولكن غالبية الناس كانوا يعرفون عادة بالهداية الفطرية ان ليس بمقدور الانسان ان تكون له افكار خاصة متمثلة بدين جديد وهو يعيش بين قومه وشعبه مدة اربعين سنة ولا يظهرها مطلقاً ، ولهذا يقول القرآن : كيف لا تدركون استحالة هذا الأمر؟

إنّ استناد القرآن الكريم في آيات متعددة على (أمية) النبي ﷺ له دلالات مليئة بالمعاني ايضاً ، وكذلك القرائن بأن كيف يستطيع شخص لم يتلقَ تعليماً ان يأتي بكتاب بهذا المحتوى الذي ليس له نظير، وبهذا الشمول الاستثنائي ، والحقائق التي تحتفظ بطراوتها تماما بعد مضي الف سنة أو اكثر ، والذي يعتبر وصفة راقية وناجعة لحل المشاكل الحياتية لبني البشر في الجوانب المعنوية والمادية ؟
ومما قيل نستنتج بأن للقرآن الكريم اهتماماً خاصاً بهذا الدليل (أي تجميع القرائن).

والآن نعود الى الشرح والبيان التفصيلي لهذه القرائن التي اختصّ بها النبي الاكرم ﷺ ، ونخضع الامور التالية للبحث والدراسة الدقيقين :
محيط دعوته والظروف السائدة فيها .

الخصائص الاخلاقية والنفسية لنبي الاسلام ﷺ وسوابقه .
زمان دعوته من ناحية الوضع العام في العالم وبالخصوص في منطقة ظهوره ﷺ .

مضمون دعوته وأسس القضايا التي يدعو الناس اليها .

الوسائل التي يستفيد منها للوصول الى اهدافه .

مساومته أو عدمها مع مطالب البيئة المنحرفة وكيفية تصديه للخرافات .

ماهية الافراد الذين آمنوا ومن أي طبقة وأي نوع .

ميزان اعتقاده بالاهداف التي يدعو الناس اليها.
سرعة انتشار دعوته ومستوى الاثر الذي تتركه احكامها وقوانينها في المجتمع.
بالاضافة الى علائم اخرى.



١ - محيط دعوة النبي ﷺ والظروف السائدة فيها

ان القضية التي يتفق عليها كل المؤرخين الكبار هي : ان العرب قبل بدء الرسول ﷺ بدعوته كانوا في اوضاع سيئة للغاية من ناحية سيطرة المعتقدات الخرافية ، والانحطاط الاخلاقي ، والاختلافات ، والحروب الداخلية المستعرة ، والظروف الاقتصادية السيئة ، ولا تتحرك فيه نسمة للعلم والمعرفة ، ولا يوجد حتى اثر من الحضارة الشكلية للبشر . ولهذا السبب كانوا يعتبرونهم قوما نصف متوحشين ، ويطلقون على عصرهم اسم (العصر الجاهلي) .

وللقرآن الكريم تعابير صريحة وواضحة عن ذلك العصر يمكنها رسم ملامح الاوضاع في ذلك الزمان بشكل جيد (حتى لو لم يصدق احد بان القرآن الكريم وحي الهي ، ولكن لا يمكنه انكار حقيقة ان ذكر تلك الصفات لذلك العصر في القرآن هي دليل على واقعيته وحقيقته ، والا يكون منكرًا لكل الجوانب) .

فيقول في مكان : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ . (آل عمران - ١٤٦) .

وعبارة (ضلال مبين) في هذه الآية وفي أواخر الآية الثانية من سورة الجمعة ايضاً ، هو اشارة معبرة عن الاوضاع في العصر الجاهلي الذي كانت الضلالة المبينة تسود اركانه ، وأي ضلالة أوضح وأبين من عبادتهم لأصنام من الحجر والخشب

تجميع القرائن طريق آخر للاطمئنان ٣٠٧

ينحتونها بأيديهم ، والأسوأ من ذلك هو تلك الاوثان التي يعملونها من التمر ويعبدونها ، ثم يأكلونها ايام القحط والجفاف .

أو يقبرون بناتهم بأيديهم وهن أحياء ، وهم يفخرون ويتباهون بعملهم هذا بدعوى انهم لا يدعون عرضهم وناموسهم يقع بايدي الاجانب .

وجاء في الآيتين ٥٨ و ٥٩ من سورة النحل : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ * أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

وأي ضلال أوضح من سيطرة انواع الخرافات والالوهام عليهم ، أو اعتبارهم الملائكة بنات الله : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً﴾ الزخرف - ١٩ ، وفي مكان آخر يقول : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ النحل - ٥٧ وآيات اخرى نظيرها .

أي ضلال أوضح وأبين من أن تسيطر عليهم الحروب وسفك الدماء في كل ايام السنة - باستثناء الاشهر الحرم - ، وتوارث الاحتاد القبلي من الآباء للابناء واستمرارها لسنوات وسنوات ، كما يشير القرآن الى ذلك بقوله : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ آل عمران - ١٠٣ .

أي ضلالة أوضح من أن تكون حتى مراسم صلاتهم ودعائهم مضحكة ومقززة ، فحينما تطوف النساء حول بيت الله الحرام وهن عاريات تماماً ويحتسبن ذلك عبادة ، وحينما آخر يقيمون صلاتهم مصحوبة بالتصفيق والصفير : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ الانفال - ٣٥ .

لقد كانت شتى انواع الخرافات والالوهام تخيم على مجتمعهم ، وكانت كل قبيلة تسعى الى ابراز نفسها على أنها أرفع من القبيلة الأخرى وربما يؤدي الى ظهور

الاحقاد والضغائن والحسد ، واحياناً سفك الدماء فيما بين القبائل الى الحد الذي يدعهم - من أجل اثبات كثرة قبائلهم - الى التوجه صوب القبور لعدّ قبور موتاهم والتفاخر بالعظام النخرة لاجدادهم وهي تحت التراب .

يقول القرآن الكريم : ﴿الْهَكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ التكاثر - ١ - ٢ ، وما الى ذلك من اوهام ومفاسد وكوارث اخرى من هذا القبيل .

إنّ الانحطاط في تلك البيئة والفقر المعنوي والمادي جعل تلك المنطقة في قائمة اكثر مناطق العالم تخلفاً .

ينقل أحد المؤرخين الغربيين عن بعض المؤرخين المعروفين حول بيئة الحجاز في العصر الجاهلي قائلاً: عندما دخل (ديمتريوس) القائد اليوناني الكبير (البتراء) - إحدى مدن الحجاز القديمة - وهو في طريقه لاحتلال المنطقة العربية قال له العرب الساكنون هناك : (ايها الملك ديمتريوس ! لماذا تحاربنا ؟ اننا نعيش في ارض حصباء تفتقر لأبسط متطلبات الحياة ، ومحرومة من كل النعم التي يتمتع بها اهالي المدن والقصبات ، لقد اخترنا السكن في هذه الصحراء القاحلة لاننا لا نريد ان نكون عبيداً لاحد ، ولهذا تقبل منا هذه التحف والهدايا التي نقدمها لك وأخرج جيوشك من هنا وعد ...) .

وانتهز (ديمتريوس) رسالة الصلح هذه وقبل الهدايا وغض النظر عن هكذا حرب تخلف مشاكل كثيرة^(١) .

و (الحجاز) على مدى التاريخ لم تخضع لسيطرة الفاتحين القدامى وحافظ على استقلاله ، والسبب كما يقول المحللون : هو عدم استحقاق مثل هذه المنطقة - الجرداء التي تفتقر لكل شيء - هذه الجهود والمشاكل ، وايضا افتقار منطقة الحجاز لحضارات البلدان القديمة مثل ايران وروما والتي تتواجد في الكثير من نقاط شبه

تجميع القرائن طريق آخر للاطمئنان ٣٠٩

الجزيرة العربية .

وبعد أن تعرفنا على حال الجزيرة العربية لأبد لنا من النظر الى حال المرء البسيط الذي عاش في محيطها مهما كانت قوة ارادته وقوة تفكيره (لاسيما اذا لم يكن قد تلقى اي نوع من التعليم) .

هل ان الذي تربى في محيط موبوء بالجهل والفساد يمكنه ان يكون مؤسسة للعلم والمعرفة والفضائل الاخلاقية ؟

وهل سمعتم البتة بأن علماء عظماء وفلاسفة نوابغ نهضوا من بين اقوام متوحشة أو نصف متوحشة ؟

اذا نبتت ورود جميلة وحشائش طرية في ارض خصبة ومهيأة فلا عجب في ذلك بل العجب عندما تنبت وردة جميلة في ارض سبخة .

وعلى أية حال يمكن ان تكون هذه المسألة بمفردها غير كافية في اثبات احقية الرسول الاكرم ﷺ ، ولكنها بدون شك تعتبر واحدة من القرائن التي متى احقناها بالقرائن الاخرى شكلت برهاناً قوياً ومبيناً .

نختم هذا الحديث بقول أمير المؤمنين علي عليه السلام - الذي ادرك العصرين ، عصر الاسلام والجاهلية - وهو يرسم لنا العصر الجاهلي : (أرسله على حين فترة من الرسل ، وطول هجعة من الامم ، واعتزام في الفتن ، وانتشار من الامور ، وتلظ من الحروب ، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من ورقها ، واساس من ثمرها ، واغورار من مائها ، قد درست منار الهدى وظهرت اعلام الردى ، فهي متجهمة لاهلها ، عابسة في وجه طالبها ، ثمرها الفتنة ، وطعامها الجيفة ، وشعارها الخوف ودثارها السيف)^(١) .

وفي مكان آخر نقرأ له عليه السلام : (ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً

للعالمين، وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار، منيخون بين حجارة خشن وحياتٍ صمٍ تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الاصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة^(١).

وخلاصة القول هي: ان البحث في القرآن الكريم والروايات الاسلامية ومجموع التواريخ التي كتبت في الشرق والغرب حول العصر الجاهلي، تدلل على انها متفقة جميعاً على أن البيئة التي ظهر فيها نبي الاسلام ﷺ هي من أحط البيئات وأكثرها تأخراً، بيئة لا تنسجم أبداً مع ظهور هكذا دين وتعاليم متطورة في كافة الاصعدة.



٢ - خصائصه الاخلاقية وسوابقه ﷺ

إن الخصائص الاخلاقية هي احدى افضل الطرق في معرفة الدعاة الصادقين من الكاذبين، فهذه الخصائص يمكن اعتمادها كقرائن وادلة واضحة لنفي أو اثبات احقية الداعي. وكلما شوهدت مظاهر الطهارة والتقوى، والعظمة والتسامح والرافة والمحبة، والزهد والتقشف، والشجاعة والشهامة والماضي الاجتماعي الحسن في المدعي، فمن الصعوبة بمكان ان لانعتبره صادقاً، وبالعكس فاذا كان محباً للعالم، ومنكباً على المادة، ومتعلقاً بالمال، والمقام، والجاه، والقدرة المصحوبة بالتهور والكذب، والحقده وحب الانتقام، وما شابه ذلك من رذائل خلقية، فلا يمكن اعتبار مدعي النبوة هذا بأنه صادق مطلقاً.

ولحسن الحظ فان سوابق النبي الاكرم ﷺ قبل نبوته هي سوابق ساطعة ومضيئة حيث قضى أربعين عاماً بين ظهرائهم والتاريخ الذي كتبه أيادي الاصدقاء والاعداء يعطى صورة ناطقة ومعبرة عن ذلك.

ففي كل التواريخ اعتبرت نزاهة النبي ﷺ وأمانته بأنها مسألة متفق عليها من قبل الجميع ، وأن لقب (الامين) سمعوه يطلق عليه .

والملفت للنظر هو ان الناس - بالرغم من مخالفتهم له - بعد بداية دعوته للاسلام بقوا يودعون اماناتهم عنده ، ولذا أمر ﷺ علياً عليه السلام اثناء الهجرة الى المدينة المنورة - أي بعد مرور ثلاثة عشر عاماً من البعثة - بأن يبقى في مكة ليؤدي عنه الامانات الى أهلها ، ثم يهاجر الى المدينة .

ان حسن خلق النبي ﷺ وحسن تجاوزه وسخائه وكرمه ، وخلاصة الصفات التي تليق بقائد الهي عظيم يمكن مشاهدتها به ﷺ بوضوح خلال الوقائع المختلفة في حياته ، وخاصة اثناء فتح مكة ، ومعركة احد ، وكذلك في تعامله مع أسرى الحرب ، والرفيق ، وطبقات المجتمع المحرومة ، الى الحد الذي اعتبروا فيه هذه المسألة بأنها نقطة ضعف عنده ، وان دينه هو دين العبيد والمحرومين ، وأبتعد عنه الاغنياء والاثرياء ، وعرضوا عليه طرد الحناة والمستضعفين وابعادهم مقابل تأييدهم وتقربهم منه ﷺ ، وقد جاء هذا المعنى بآشارة واضحة في الآية ٢٨ من سورة الكهف :

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا * وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ .

وهو الذي صفح عن (ابو سفيان) الدّ اعدائه والمؤجج الخطير لنيران الحروب ضد الاسلام ، وجعل من بيته اثناء فتح مكة ملجأً ومأمناً لأهل مكة ، وأعلن العفو العام عن المكّيين الذين ارتكبوا جرائم كثيرة ضده ، وضد اتباعه ، وهذا الخلق الحسن والتجاوز الحسنين والكرم صار السبب في جعلهم يلتفتون حوله .

وفي (معركة أحد) ايضاً عندما فرّ - جماعة من حديثي الدخول في الاسلام - من

أرض المعركة وتركوه وحيداً بين الاعداء متحملاً ضربات شديدة منهم عاد وأعلن العفو العام، وصفح عن الجميع الى درجة استوجبت نزول الآية المباركة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَضًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ * فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران - ١٥٩.

فقد بينت هذه الآية لين قلب وباطن النبي ﷺ وصفاء باطنه وكذلك اللهجته الرقيقة والمليئة بالعاطفة التي لم تأمره بالعنف عن اخطائهم وحسب وإنما أمرته ايضاً بطلب المغفرة لهم من الله تعالى، وان يحترم شخصياتهم ويشاورهم.

لقد كان ﷺ شفيقاً بالمؤمنين وغير المؤمنين بالتقدير الذي يجعله يتألم بشدة من عدم ايمان البعض، والى حد يوشك فيه على الهلاك أسفاً عليهم.

ونقرأ في الآية - ٦ من سورة الكهف ما يتضمن معنى التسلية للنبي ﷺ بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ رَأْسًا﴾.

وشبيه هذا المعنى جاء في الآية - ٣ من سورة الشعراء: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وحقاً اذا لم يتصف القائد بهذه الصفات فلا يستطيع ان يجسد المعنى الحقيقي والواقعي للقيادة، وقد جاء في الآية - ١٢٨ من التوبة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ * حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن المسلم به ان البحث حول الملكات الخلقية للرسول الاكرم ﷺ وخصائصه الاخلاقية أوسع وأشمل من أن يضمها حديث قصير، وان غابتنا فقط هي الاشارة العابرة لهذه المسألة باعتبارها احدى القرائن.



١ - (باخع): من مادة: بخع (على وزن تخت) تعنى الهلكة من شدة الغم والحزن، وبتعبير آخر: الموت غصة.

٣- مضمون الدعوة

إنَّ تحقيق ودراسة محتوى أيِّ دعوى يشكل في الغالب دليلاً مقنعاً للتوصل إلى صدق أو كذب المدعي فالدين السماوي الذي يصدر عن جهة السماء ، وينزل عن طريق الوحي له مزاياه الخاصة ، في حين ان الدين الكاذب الذي يبتدعه فرد او افراد لاهداف مادية وشيطانية له مزايا اخرى .

فالاول : غايته هداية البشرية ، وتنوية النفوس ، واقامة العدل ، وتهيئة متطلبات الصلح والسلام والامن ، واخيراً تكامل الانسان مادياً ومعنوياً .

في حين ان الثاني . يسعى لتحقيق الانسان وتخير فكره ، والانتفاع الاكثر والاستعمار والاستثمار ، ومسلماً أن اهدافاً كهذه تتطلب خططاً وبرامج اخرى .

وبملاحظة ما ذكر انفا نلتي نظرة اجمالية على مجموع المعارف والقوانين والبرامج الاسلامية ، لاسيما تلك التي استند اليها القرآن الكريم واكد عليها :

١- إنَّ اول شيء يبدو للنظر ويشكل الاساس الرئيسى لكل المعارف والقوانين الاسلامية هو مسألة (التوحيد) ومحاربة كل انواع الشرك بالاعتماد على هذا الاصل ، فقد حرر رسول الاسلام ﷺ الانسان من قيود كل عبودية إلا عبودية الله الأحد ، ودعا البشرية إلى عبادة الآله الواحد الأحد خالق السماوات والارض ، وجامع كل صفات الكمال ، المطلع على ظاهريهم وباطنهم ، وحطم سلاسل الاوهام والخرافات وعبادة البشر أو الحجر أو الخشب وانواع الاوثان والاصنام .

وقد ذم القرآن اليهود والنصارى لعبادتهم البشر بقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

وَرُهبَانَهُمْ أرباباً مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ التوبة - ٣١ .

وفي مقارنة بديعة على لسان نبي الله يوسف وهو يخاطب رفاقه في السجن

يقول : ﴿ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ يوسف - ٣٩ .

٢ - إنه لا يعتبر أي مؤثر في مصير الانسان الا الله تعالى ويدعو الجميع للتوكل عليه ويقول: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ الزمر - ٣٦.

٣ - ومن جهة اخرى يعتبر الانسان مرهوناً بأعماله ، ويعتبر ان طريق الخلاص والفلاح الوحيد هو الجهد والاجتهاد الاكثر.

ويقول: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ النجم - ٣٩ و: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المدثر - ٣٨.

٤ - أعتبر الاسلام كل بني البشر ومن أي عنصر ولون وفي كل زمان متساوين ، وبناءً على هذا لا يوجد أي تمايز بينهم أو تفاضل إلا بـ (التقوى) والورع . (الحجرات - ١٣).

٥ - يخاطب كل المؤمنين بأنهم (أخوة) لبعضهم البعض ، ويعتبر ان أقرب رابطة ممكنة بين انسانين هي الرابطة التي تقوم على العدالة والمساواة ، ويقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الحرات - ١٠.

٦ - يعتبر (العدالة الاجتماعية) أصلاً أساسياً حاكماً على المجتمعات البشرية ويدعو كل المؤمنين للقيام بالقسط ، فيقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ المائدة - ٨.

وان لا تكون صلة القرابة والابوة والبنوة ونظائرها حائلاً دون اجراء العدالة وترجيح كفة الحكم لصالحهم - بدون دليل - (النساء - ١٣٥).

٧ - أقر حاكمية أصل (الانفاق) على العلاقات الانسانية ، ودعا الجميع الى الانفاق مما رزقهم الله من نعم على الآخرين: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ البقرة - ٢.

يؤكد على (صلة الرحم) ورعاية رابطة القرابة (البقرة - ٢٧). وقد أولى (الاب والام) خاصةً احتراماً بالغاً الى الحد الذي اوصى بالتعامل الحسن معهما حتى وإن لم

يكونا مسلمين (القمان - ١٤ و ١٥).

٩ - من المسائل التي اكد عليها الاسلام ايضاً هي : (حماية المظلومين) في شرق العالم وغربه ، حتى ان ظواهر الآيات القرآنية لم تفرق بين ابناء الدين الاسلامي وغيرهم في هذه المسألة ، كما ورد في الآية - ٧٥ من سورة النساء : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ .

١٠ - اكد ايضاً على (احترام حقوق المرأة) في ذلك المحيط الذي أهدر كل حقوقها ولم يعطها حتى الحق في الحياة ، ويقبر البنات وهن أحياء ، فأعاد إليها مكانتها الى الحد الذي يقول فيه : ﴿لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ البقرة - ٢٢٨ ، والحق لا ينفصل عن الواجب .

١١ - دعوته لـ (التعايش مع اتباع الاديان الاخرى) وحملة الكتب السماوية ، ودعوته كذلك للجميع للاتكاء على نقاط الالتقاء والاشتراك ، كما نقرأ في الآية - ٦٤ من سورة آل عمران : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ .

١٢ - أعطى الاسلام أهمية بالغة لـ (العلم) والمعرفة ، وقد أشارت مئات الآيات القرآنية الى ذلك ، وهذا الامر كان مثيراً وملفتاً للنظر لاسيما اذا لاحظنا المحيط الذي نزل فيه القرآن ، والذي كان مركزاً للجهل والأمية ، وأول الآيات التي نزلت على النبي ﷺ كانت تؤكد على العلم (العلق ١ - ٥) .

ويقسم في مكان آخر بالقلم : (القلم - ١) ، واعتبر أن افضلية (آدم) ، والبشر بصورة عامة تكمن في (فضيلة العلم) والمعرفة هذه . (البقرة ٣١ - ٣٣) .

١٣ - تعتبر مسألة (الامر بالمعروف) و(النهي عن المنكر) احدئ المميزات المضبئة لهذا الدين والتي يعتبرها نوعاً من الاشراف والرقابة العامة على كل المجتمع بواسطة كل المجتمع ، ومسؤولية متقابلة لكل افراده في مقابل اي نوع من المفساد

الاجتماعية أو ترك القيام بالواجب - (آل عمران ١٠٤ و ١١٠ وآيات أخرى).

١٤ - بما أن مصدر الكثير من المفسدات الاجتماعية هو الميل الشديد للقضايا المادية ، والتنافس في حب التجميل والبذخ في الحياة فقد دعا الاسلام الى (العيش البسيط) ونبذ حب التجميل من أجل اغلاق منبع الشر هذا (الزخرف ٣٣ - ٣٥) ، في نفس الوقت الذي اعتبر الانتفاع المعقول والمنطقي من المواهب المادية وحتى التزيينية والكمالية بأنه مباح (الاعراف - ٣٢).

١٥ - دعوته (لامراعاة الاداب)، وحسن المواجهة مع الآخرين ، وملاحظة الموازين الاخلاقية في اي مكان ، وقد اشار لهذه المسألة في سورة لقمان (الآيتين ١٨ و ١٩) ، وسورة الحجرات (الآيتين ١١ و ١٢) ، وسورة الفرقان (آية ٧٢) ، وآيات أخرى. وورد في الآية ١٩٩ من سورة الاعراف أيضاً ﴿تُخَذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١).

١٦ - استخدام (البحث المنطقي) في المناظرة مع اتباع الاديان الاخرى بدلاً من التعصب الاعمى ، يقول القرآن الكريم : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل - ١٢٥.

١٧ - (الخضوع في الحق) وقبوله من أي كان لأنه يعتبر واحداً من المبادئ السامية للدين الاسلامي ، يقول تعالى : ﴿قَبِّشْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الزمر ١٧ و ١٨.

١٨ - (اخلاص النية من الدوافع غير الالهية) من الاصول التي اكد عليها القرآن الكريم والروايات الاسلامية مراراً ، وأعتبر ان الاعمال النزيهة المقبولة عند الله تعالى والتي تؤدي الى النجاة والسعادة هي الاعمال التي لم يقصد بها التظاهر والرياء ،

١ - في حديث للامام الصادق (عليه السلام) أن هذه الآية أكثر الآيات الاخلاقية شمولاً في القرآن المجيد (مجمع البيان - ذيل الآية المذكورة).

تجميع القرائن طريق آخر للاطمئنان ٣١٧.

وانما التي يراد بها غايات انسانية واخلاقية والهيبة سامية تشكل ركناً اساسياً، واستندت سبعة آيات من القرآن الى جملة (مخلصين له الدين)^(١).

ومن جهة شبه صدقات المؤمنين - الخالصة - بالبستان المليء بالثمر عندما تنزل عليه رحمة المطر الالهية تتضاعف ثماره ضعفين (البقرة - ٢٦٥).

ومن جهة اخرى شبه أعمال المرائين - غير المؤمنين - بالبذور التي تم غرسها في تراب قليل يغطي صخرة فيأتي المطر فيجترقها امامه (البقرة - ٢٦٤).

١٩ - انتقد الاسلام بشدة (الاسراف والتبذير) وسمى المبذرين باخوان

الشیطان: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا أَخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ الاسراء - ٢٧.

٢٠ - من الاصول الاساسية للاسلام ايضاً (رعاية الاطفال الايتام وفاقدي المعيل)

وأكدت آيات وروايات كثيرة على ذلك الى الحد الذي اعتبرت فيه أكل اموال الايتام كأكـل النار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ النساء - ١٠.

وفي مكان آخر اوصى بأصلاح شؤونهم، يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى * قُلْ

إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ البقرة - ٢٢٠.

٢١ - احترام الاسرى في الاسلام، بحيث واوصى بحسن معاملتهم وأعتبر

مساعدتهم واعانتهم في القرآن الكريم بأنها جزء من اعمال الابرار والاخيار: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ الدھر - ٨.

وجاء في حديث للامام علي عليه السلام: (اطعام الاسير والاحسان اليه حق

واجب)^(٢).

٢٢ - ومن المسائل المهمة التي اكد عليها القرآن الكريم والروايات الاسلامية

١ - الاعراف: ٢٩، يونس: ٢٢، العنكبوت: ٦٥، لقمان: ٣٢، غافر: ١٤ و ٦٥، البينة: ٥.

٢ - وسائل الشيعة الجزء / ١١ ص ٦٩ ابواب جهاد العدو: الباب / ٣٢، الحديث الثالث.

هي مسألة (التشاور في الامور)، حتى ان الرسول الاكرم ﷺ مع عقله الكامل كان مأموراً بالاستشارة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران - ١٥٩.

واعتبر التشاور في الامور الاجتماعية المهمة بأنه احدى علائم الايمان: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ التورى - ٢٨.

٢٣ - كانت (محاربة الخرافات) ايضاً من المهام الرئيسية للنبي ﷺ في حين كان مدعو النبوة الكاذبون يصرون على نشر الخرافات وتسميم افكار الناس عن طريقها، ولترغيب العامة بخرافاتهم لكي ينسجموا معها، ولكن نبي الاسلام ﷺ حطم هذا السد، بل كان يحارب كل خرافة حتى لو كانت تصب في صالحه ظاهراً. وأي خرافة اكبر من (عبادة الاوثان) التي اجتاحت جزيرة العرب بأسرها، الى حد ان مخالفتها والاعراض عنها اصبح مشكلة عويصة وعجيبة جداً، بل عدّ واحياناً من علامات الجنون، واثناء ما كان النبي ﷺ يدعو لعبادة الاله الواحد الأحد قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ سورة ص - ٥.

وظاهراً إن أحد اسباب نعت نبي الاسلام ﷺ بالجنون هي انه نهض لمحاربة قضية عبادة الاصنام التي كانت من اكثر بديهيات تلك البيئة والمحيط.

والخلاصة هي ان عرب الجاهلية كانت تخيم عليهم خرافات كثيرة يطول شرحها، وقد حاربها الرسول ﷺ كلها.

٢٤ - من المسائل التي اعطاها الاسلام اهمية كبيرة هي تحرير الانسان من رقة الهوى والهوس وأسر الناس الآخرين، أو في أسر الاعراف والتقاليد والسنن المغلوطة، الى درجة اعتبر فيها أن احدى صفات النبي ﷺ هي: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الاعراف - ١٥٧.

وجاء في الحديث النبوي المعروف: أن أحد الذنوب التي لا يغفرها الله ابداً

هي ان يسلب الانسان حرية الانسان الآخر ويستعبده ويبيعه^(١).

٢٥ - أحد البرامج الأساسية لهذا الدين (المنع من التكاثر) وطلب الزيادة والحرص والطمع في الامور المادية ، وقد اشير الى ذلك في آيات متعددة من القرآن الكريم ، وكذلك الروايات الاسلامية ، الى حد اعتبارها من الصفات المذمومة في الحياة الدنيا ، وجعلها مرادفة للهو واللعب والتفاخر (الحديد - ٢٠) ، وعدّها سبباً للجهل بالله ، وذم بشدة اولئك الذين يتوجهون صوب القبور لحساب قبور موتاهم حتى يشبوا كثرة قبائلهم : ﴿إِلَهِكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ التكاثر ١ - ٢ .
ويقصّ عليهم - بالتفصيل - قصة «قارون» المستكبر المستكثر الذي كان يرى نفسه انه فوق الجميع ، وعاقبته وعاقبة امواله بعد أن خسفت به الارض ، وينهى نبيه ﷺ عن مد عينيه الى الامكانيات المادية لهؤلاء الافراد أو اعتبارها علامة على افضليتهم وعلوهم ، (طه - ١٣١ ، القصص ٧٦ فما بعد) .

٢٦ - (الدعوة الى الاتحاد والتضامن) يمكن اعتبارها جزء من الاوامر التي تحتل صدر قائمة البرامج الاسلامية ، والتي ذكرها القرآن الكريم بتأكيد شديد ، فكان يدعو الجميع الى الاتحاد وبنهاهم عن التفرقة ، ويحذرهم من العودة الى اختلافات الجاهلية وعد الافراد المتفرقين المشتتين على شفير هاوية من النار ، (آل عمران - ١٠٣) وأعتبر التنازع والاختلافات مصدراً لضعف المجتمع ، وضياح قدرته وشوكته ، (الانفال - ٤٦) .

٢٧ - (احترام القانون) يعتبر من اهم وصايا الاسلام التي أكد عليها لدرجة انه قال احتراموا القانون حتى لو حكم ضدكم ، وجاء في القرآن : ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ النساء - ١٣٥ . وأعتبر نقض حرمة

١ - عن النبي ﷺ : إن الله تعالى غافر كل ذنب إلا من جحد مهراً ، أو أغتصب أجيراً أجره ، أو باع رجلاً حراً ، (سفينة البحار - مادة أجر) .

القانون حراماً، والتعدي على (حدود الله) ظلماً وجوراً: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة - ٢٢٩، وان الايمان الصادق هو التسليم المطلق لقانون الحق وترك معارضته حتى في حيز الفكر والعقل . (النساء - ٦٥) .

٢٨ - (نبذ حب الانتقام) ولم تكن هذه الصفة الحميدة مختصة بالرسول ﷺ وان تجلّت بوضوح كامل في حروبه وخاصة في فتح مكة، وانما اوصى أتباعه مراراً وتكراراً الى العفو والصفح، وغض النظر عن زلات الآخرين وتذكيرهم بالعفو الإلهي: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ النور - ٢٢، بل تعدى ذلك الى القول: ﴿أَدْفَعْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت - ٣٤، ولكنه مع كل هذا لايسمح بأن يستغل الاعداء الحاقدون رحمة الاسلام ورأفته، بل كان ﷺ يأمر اصحابه ان: مثلما عليكم ان تكونوا لبنين وعطوفين مقابل الاصدقاء والاعداء المخدوعين فيجب عليكم ان تتعاملوا مع الاعداء الاشداء بخشونة وشدة. حتى انه وصف الصادقين بأنهم: ﴿أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الفتح - ٢٩.

٢٩ - (الدعوة الى التقوى) وهي من النضايا التي يستند اليها الاسلام في كل مناسبة، ويعتبرها السبيل الوحيد لخلاص الانسان، وزاد آخرته^(١)، ومعيار شخصيته^(٢)، وبركة الدنيا^(٣)، وسعادة الآخرة^(٤)، وسبباً للبصيرة والمعرفة^(٥).

٣٠ - (الحب والبغض في الله) من اسس التعاليم الاسلامية ايضاً، أو بتعبير أوضح اعتبر الاسلام كل من يخطو في محجة الايمان، والحق، والعدل، والتقوى، والنزاهة، صديقاً يجب توثيق العلاقة معه، وبالعكس اوصى بالابتعاد عن الاشرار

١ - البقرة: ١٩٧.

٢ - الحجرات: ١٣.

٣ - الاعراف: ٩٦.

٤ - مريم: ٦٣.

٥ - الانفال: ٢٩.

والسبئين والملوثين والظالمين ، وأعتبر القرآن الكريم ذلك من علائم الايمان الاصلية (حزب الله)^(١). واعتبرتها الروايات الاسلامية بأنها من أقوى عرى الايمان والاسلام (أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله)^(٢)، وأفضل الاعمال^(٣).



هذه طائفة من تعاليم الاسلام في الاصول والفروع .
فهل يصدق أن يأتي انسان أمي لم يتلقَ أي تعليم ، وهو ابن بيئة ظلمانية جاهلية ، وتربى في بؤرة الكفر والفساد والجور والخشونة ، بمثل هذه التعاليم ؟ كلا بالطبع إلا اذا كان مسدداً عن طريق الوحي السماوي والالهام والتأييد الالهي .
إن دراسة مضمون ومحتوى الدعوة لأي دين من أفضل الادلة للعلماء لاثبات صدق أو كذب المداعي لذلك الدين ، واحياناً تكون مقدمة على الكثير من المعجزات ، لان العديد من الوسوس التي تبرز من قبل المعاندين اللجوجين لها (من قبيل اتهامه بالسحر وامثاله) تصبح لا معنى لها عند البحث في محتوى الدعوة ، بل وحتى يمكن تأليف كتاب ضخيم حول هذا الموضوع وخاصة حول تعليمات الاسلام في كافة الجوانب الاعتقادية والاخلاقية والاجتماعية ، وكذلك الميدان الواسع والفسيح لهذا المبحث في المسائل الفردية والجماعية المعنوية والمادية .
بديهي انه لايمكن ان تكون هذه المجموعة من التعاليم الصادرة من عربي صحراوي أمي خرج من أكثر البيئات تخلفاً هي مسألة عادية ، وباعتقادنا انه لا توجد اي معجزة اكبر من هذا ، أو على الأقل هي قريبة اذا ضمناها الى القرائن الاخرى

١- المجادلة : ٢٢ .

٢- اصول الكافي : الجزء الثاني ، ص ١٢٥ .

٣- سفينة البحار : الجزء الاول ، ص ٢٠١ .

شكلت مجموعة مطمئنة وقوية .



٤ - عمق تأثيره في محيطه

صحيح إنَّ التأثير الواسع الذي تركه مدرسة من المدارس في بيئة معينة لا يمكن ان يكون بمفرده دليلاً على صحتها، لاننا نعرف العديد من الديانات والتعاليم الخاطئة التي تركت تأثيرها على بيئات واسعة وكانت نهايتها ان انفرط عقدها أو لازال البعض منها متصلاً، ولكن كيفية هذا التأثير وماهيته يمكن اعتباره كقرينة حية الى جانب القرائن الاخرى .

وعندما يكون هذا التأثير على شكل فئزة وفي جوانب ايجابية ومع أقل الاضرار، فمن المسلم به ان يدل على عمق تلك المدرسة واصالتها .

منْ لذي له أدنى اطلاع على تاريخ العرب والاسلام ينكر الفاصلة الزمنية مدتها ٢٣ عاماً وهي سني دعوة الرسول ﷺ - الفاصلة التي احدثت (طفرة فلسفية) اكثر مما هي ثورة ؟

فالقوم المنبوذين الذين لم يتركوا في التاريخ اسماً ولا رسماً ...

ومن وجهة نظر علم الاجتماع لم يخطْ على جباههم أي استعداد للتطور المذهل حتى لو بعد عدة قرون، يتحولون فجأة ويدخلون مرحلة جديدة من الحضارة العظيمة، ولم يغيروا انفسهم فقط، بل غيروا ايضاً العالم المعاصر لهم ولتبقى آثار هذه الثورة والتغيير ظاهرة في القرون اللاحقة والى زمان غير محدود ... حضارة حولت مسار تاريخ البشرية، وغطت باشعاعها الحضارات الخمس العظمى في عصرها، أي: (حضارة الروم) و(ايران) و(مصر) و(بابل) و(اليمن).

وهذا بالضبط ما لم يستطع المؤرخون وعلماء الاجتماع تفسيره وفق المعايير

المعروفة التي بين ايديهم ، وان كانوا قد ألفوا كتباً بعنوان : تاريخ حضارة الاسلام ، أو مسميات اخرى ، ولكنهم يعترفون بأنه لازالت عندهم نقاط كثيرة غامضة لم تجد الحل حول ظهور الاسلام ونفوذه في العالم .

والملفت هو ان هذه الثورة وهذا التحول - خلافا لسائر الثورات - لم يحدث على صعيد واحد ، ولم تكن له جوانب سياسية أو اقتصادية فحسب ، بل وغير كل نُظُم المجتمع كالثقافة ، والاخلاق ، والاقتصاد ، والآداب ، والتقاليد ، وكل شيء .

ملخص الكلام : هو ان ابعاد تأثير الاسلام في محيط ظهوره ، ثم في العالم كله ، وكل التاريخ البشري ، هو موضوع يستحق الدقة التي تجعله قرينة ساطعة من قرائن حقانيته ، وان شرحه وبيانه يتطلب وضع كتاب منفصل .



٥ - ماهية الوسائل لبلوغ الهدف

كل فرد أو مجموعة مضطرين - للوصول الى اهدافهم - الى الاستفادة من وسائل معينة . واختبار هذه الوسائل يمكنه ان يساعد الى حد بعيد في التعرف على اصالة وأحقية تلك المدرسة أو على تزويرها وخداعها .

ويدهي أن اولئك الذين يعتبرون الاستفادة من كل وسيلة - للوصول الى اهدافهم - جائزة ، ويجعلون أصل (الغاية تبرر الوسيلة) ، أو (الغايات تبرر الوسائل) برنامجهم الاصلي هم بعيدون عن الاصالة .

أما اولئك الذين يستخدمون الوسائل المقدسة لنيل اهدافهم المقدسة فهم يعطون الدليل على أحقيتهم ، ويمكن تمييز الانبياء الصادقين من الكاذبين عن هذا الطريق .

الاشخاص الذين لا يعترفون بأي قيد أو شرط للوصول الى اهدافهم ويعتبرون

كل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة مباحة والذين يعتبرون مفاهيم من قبيل العدالة والامانة والصدق والاحترام للقيم الانسانية محترمة طالما انها تعينهم للوصول الى أهدافهم وإلا تركوها ونبذوها فمسلماً انهم في زمرة الانبياء الكاذبين .

إن الانبياء الصادقين هم اولئك الذين يحترمون الاصول الانسانية حتى في حروبهم ، ولا يعدلون عنها في الشدائد والمحن مطلقاً ، وعند انتصارهم لا يتجاوزون أصول العدالة ، والعفو ، والتسامح مع اعدائهم ، وفي اوقات الخطر واحتمال عدم تحقيق النصر لا يلتجأون الى الوسائل غير الانسانية .

واذا قسنا هذا الاصل الكلي مع حياة نبي الاسلام ﷺ والتفتنا الى سلوكه مع الاعداء والاصدقاء ، في اوقات تحقيق النصر او عدم تحقيقه ، في الشدة والرخاء ، فسوف ندرك جيداً انه كان متبعا لقيم خاصة في اختيار وسائل الوصول الى الهدف . لم يلجأ النبي ﷺ مطلقاً في لحظات الخطر الى استخدام أساليب غير انسانية ، بل وراعى المسائل الاخلاقية الدقيقة حتى في ساحة القتال .

فعند انتصاره في (فتح مكة) أصدر (العفو العام) عن أخطر اعدائه ، وصفح حتى عن القتل ومجرمي الحرب .

ولما سمع أحد قادة الجيش يعلن شعاراً ثارياً ويقول :

(اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً) أمر فوراً بعزله وقال : ليقولوا بدل هذا الشعار (التبيح وغير اللائق) : (اليوم يومُ المرحمة... اليوم أعزَّ الله قريشاً)^(١) .

وحتى حين وقف كبراء مكة صفاً ليروا ما يحكم الرسول ﷺ بشأنهم (وكان الكثير من الناس يتوقعون ان يشدد ويتسو على هؤلاء الاعداء الحاقدين) التفت

١ - نقلت هذه القضية بعبارات مختلفة في بحار الانوار: ج ٢١، ص ١٠٥ و ١٢٠ وفي حبيب السير: ج ١، ص ٢٨٨ والطبري في ج ٢، ص ٣٣٤ وكامل ابن الاثير ج ٢، ص ٢٤٦.

تجميع القرائن طريق آخر للاطمئنان ٣٢٥

اليهم ﷺ وقال : (ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟) قالوا : (لا نظنُّ إلا خيراً فقال ﷺ :
(أقول لكم ما قال يوسف لآخوته : ﴿لا تثرِيبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم
الراحمين﴾^(١) . (اذهبوا فأنتم الطلقاء).

وعندما قتل (خالد بن وليد) أسرى بني خزيمة بدون سبب ووصل الخبر إلى
نبي الاسلام ﷺ . تألم بشدة وقال مرتين أو ثلاث : (اللهم اني أبرء اليك مما صنع
خالد)، ثم أمر علياً عليه السلام ان يذهب مع مبلغ من المال إلى تلك القبيلة فيعطيههم دية
قتلاهم ويعوض ممتلكاتهم التي تضررت بالمال وان يسعى في جلب رضاهم^(٢) .
إن هذه الامور لا يمكن مشاهدتها في حروب عالم اليوم ، وحتى في مهد
الحضارة الصناعية ، فقد شهد العالم افضع مآسي الانتقام في نهاية الحرب العالمية
الاولى والثانية ، والجرائم التي لاتعد للجيش المنتصرة .

والآن كيف اتصف النبي ﷺ بكل هذا العنبر والرحمة بين قوم نصف
متوحشين ؟ هذا السؤال يجب ان يجيب عليه العقلاء والحكماء .

كان ورعه واجتنابه عن الوسائل غير الانسانية إلى درجة انه ﷺ ، يرفضها
حتى ولو تهيات مقدماتها واسبابها بصورة طبيعية ، ومهما بدت في الظاهر انها مؤيدة
له ، ففي حادثة وفاة (ابراهيم ابن النبي ﷺ قيل : ان الشمس كسفت تزامنا مع هذه
الواقعة ، وقال بعض الناس : أنها كرامة ومعجزة من قبل النبي ﷺ ، وان الشمس
كسفت لوفاة ابراهيم .

لكن النبي ﷺ صعد المنبر وقال : (ايها الناس ان الشمس والقمر آيتان من آيات
الله يجريان بأمره مطيعان له ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا انكسفا أو احدهما
صلوا ، ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف ، فلما سلم قال : يا علي قم

١ - سورة يوسف : ٩٢ .

٢ - حبيب السير ، ج ١ ، ص ٣٨٩ .

فجهز ابني^(١).

تشير هذه القصة الى ان النبي ﷺ سارع الى هذا العمل حتى قبل اجراء مراسيم دفن ابنه ابراهيم كي يقضي على هذه الفكرة الخاطئة قبل شيوعها وان كانت لصالحه ظاهراً... انه لا يريد ان ينتفع من وسائل مغلوبة وغير مشروعة في التقدم لنيل اهدافه ومقاصده.

على الرغم من ان الحديث قد طال حول هذا الموضوع، ولكن لا بد في الختام من ذكر هذه النقطة وهي: ان دقائق الامور التي جاءت في آداب الحرب في الاسلام وأكد عليها النبي ﷺ وأثبت عملياً التزامه بها هي شاهد آخر على الادعاء الانف الذكر.

فحينما كان الجيش الاسلامي يستعد للتحرك الى أحد ميادين الجهاد، كان النبي ﷺ يعرفهم بواجباتهم الحساسة بهذه العبارات: (سيروا بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، لا تغلوا، و تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة ولا تقطعوا شجراً الا ان تضطروا اليه).

وفي حديث آخر: «... ولا تحرقوا النخل، ولا تغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً لانكم لا تدرن لعلكم تحتاجون اليه ولا تعقروا من البهائم يؤكل لحمه الا ما لا بد لكم من اكله»^(٢).

وكان النبي ﷺ ملتزماً بكل المبادئ الاخلاقية السامية الى تلك الدرجة التي جعلته في معركة خيبر ان يرفض اقتراح من أشار عليه بقطع الماء عن اليهود المحاصرين لمدة طويلة في داخل قلاع خيبر النوية، وأجابه ﷺ قائلاً: (انني لا أقطع عنهم الماء أبداً).

١ - بحار الانوار: ج ٢٢، ص ١٥٥، الحديث: ١٣ (باب عدد اولاد النبي).

٢ - جاء هذا الحديث في مصادر متعددة وبعبارات مختلفة، من جملتها كتاب الوسائل / ج ١١، ص ٤٣ باب آداب امراء السرايا واصحابهم، الحديث ٢ و ٣.

وعندما قال له راع لمواشي اليهود: انني حاضر لان اعطيك هذه المواشي كلها،
رفض النبي ﷺ ذلك ونهاه ان يخون الامانة التي اودعوها عنده^(١).



٦- ايمانه وتضحيته في سبيل هدفه

من القرائن الرئيسة الاخرى لمعرفة المدعين الصادقين من الكاذبين هو ايمانهم
بما يدعونه وتضحيتهم وايتارهم في سبيله، ولان المدعين الكاذبين مطلعين على
حقيقة الامر فانهم بالطبع لا يضحون كثيرا في سبيل هدفهم، بالاضافة الى انهم
مستعدون للمساومة وتحريف مدعياتهم، في حين ان الصادقين منهم لا يجوزون
لانفسهم اياً من ذلك.

صحيح ان هذا الامر بمفرده غير كاف، ولكن يعتبر قرينة جيدة تضم الى القرائن
الأخرى.

ولم ير في أي من كتب التاريخ أن نبي الاسلام ﷺ قد تراجع أو تنصل عن
معتقداته، أو فرّ من ميدان الجهاد، وحتى في معركة (أحد) عندما وصلت الحرب
الى أقصى درجات الشدة وفرّ من ساحة المعركة أغلب الجيش (أو كله عداً علياً عليه السلام
والتجأوا الى زاوية هنالك حيث بقي النبي ﷺ صامداً في الميدان، محتملاً أذى
الجراحات بسبب اصابته في جبهته واسنانه ولم يتبق له في الظاهر أي أمل بالنجاة
ولكنه ظل صامداً.

وفي قصة (مرض ابي طالب) وطلب قريش منه -التي قرأناها في بداية الجزء
السابق- ان يعرض على النبي ﷺ ان يكف عن محاربته لعبادة الاصنام، ويكف
عن الدعوة الى الاله الواحد الاحد، قال ﷺ: (لو وضعوا الشمس في يميني والقمر

في يساري على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه متركته) (١).

ونقرأ في قصة اخرى: ان قريشاً جاءت للنبي ﷺ وأعطته وعداً بأن تضع تحت اختياره من المال ما يجعله أغنى رجال مكة، وأن يزوجه أي امرأة يريد، ويتبعوه بشرط (أن يدع تسفية أصنامنا. واذا لم تقبل فلدينا اقتراح آخر ينفعك وينفعنا وهو أن تعبد الهتنا مثل (اللات) و(العزى) عاما ونحن نعبد الهك عاما لنرى ماتكون العاقبة)، وهنا نزلت سورة (يا أيها الكافرون)، ورد عليهم النبي ﷺ بالسلب (٢).

وفي تفسير سورة طه (الآية الثانية) نقرأ: حينما كان النبي ﷺ - بعد نزول الوحي والقرآن - يتعبد إلى حد تورمت قدماء المباركتان، نزلت الآية الآتية لئلا تمنعه من هذا العمل، وقالت: ﴿ما نزلنا عليك القرآن لتشقى﴾، وهذه دلالة على أنه إلى أي حد كان مؤمناً بتعاليمه.

و(قصة المباهلة) ودعوة النبي ﷺ أعداءه - أن اذا كنتم تقولون حقاً فتعالوا بأهلكم، ويطلب كل منا من الله ان ينزل العذاب على الكاذب منا وينفضحه - هي دلالة اخرى على ايمانه الراسخ بدينه، لانه ﷺ أعلن استعداداه التام لهذا الغرض وتراجع مخالفوه لانهم غير مطمئنين لاستحكام قواعد دينهم.

وقد نقل مؤرخو الشرق والغرب قصصا وحكايات كثيرة عن (صمود النبي ﷺ امام الحوادث ومواجهته للمشاكل الكبرى التي يعجز الانسان العادي عنها).

قال (غوستاف لوبون) المستشرق الفرنسي المعروف: انه لا يهرب من أي خطر، وفي نفس الوقت لا يلتي بنفسه إلى الخطر بدون دليل (٣).

ويقول تلميذ تلك المدرسة العظيم أمير المؤمنين (عليه السلام) بشأن احوال النبي ﷺ

١ - الطبري: ج ٢ ص ٦٧.

٢ - الطبري: ج ٢ ص ٧٠.

٣ - حضارة الاسلام والعرب، ص ١١٩

في ساحات الحرب : (كنا اذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله «٦» فما يكون أحد أقرب الى العدو منه)^(١).



٧ - من هم المؤمنون به ؟

عادة ما يجتذب الافراد غير الصالحين حولهم افراداً مثلهم ، وهذه القاعدة وان لم تكن دائمة ولكنها في الغالب هكذا .

ويتضح ذلك من مطالعتنا للمثل المعروف : (ان المزور يُعرف من زائريه) ، وعلة ذلك واضحة لان أهل الدنيا ومنتهزي الفرص يتجهون دائماً الى اولئك المهيئين للتساوم معهم ، يعطونهم امتيازات ويأخذون منهم اخرى ، ليصلوا الى مقاصدهم غير المشروعة .

وهذه المسألة خاصة تظهر اكثر وضوحاً حول المقربين والخواص وحافظي اسرار ذلك الشخص ، فاذا رأينا اخلاص خواص تلك المدرسة ، وحملة اسرارها ، وموثوقيتها ، ادركنا بالنهاية نزاهة وايمان وصدق قائدها ، وبالعكس ، فاذا التفت حول افرادا كذابون ، نفيعون فسوف نفهم بأن الماء ينبع من منبع آسن .

والآن لنلقي نظرة على الخلص وحملة الاسرار والتلاميذ الاصليين لمدرسة نبي الاسلام ﷺ ... افراداً مثل (علي بن ابي طالب) ، وفي مراحل لاحقة افراداً مثل (سلمان) و(ابو ذر) و(المقداد) و(عمار بن ياسر) و(صهيب) و(بلال) وأضرابهم ، فنرى كل واحد منهم كان نموذجاً للتقوى والفضيلة والايمان والمعرفة والزهد .

١ - بحار الانوار ، ج ١٦ ص ٢٢٢ - وبنفس المضمون مع بعض التفاوت في نهج البلاغة . الكلمات القصار ، الكلمة / ٩ .

ونموذج آخر من هؤلاء الافراد هم (أصحاب الصفة) المهاجرون الابرار الذين غضوا أبصارهم عن كل حياتهم في مكة ، والتحقوا بصفوف اصحاب النبي ﷺ وكانوا يعيشون في أسوأ الاوضاع الاقتصادية .

أو مجموعة السبعين شخصاً الذين توجهوا الى منطقة (نجد) لنشر الاسلام ، ثم تجرعوا كأس الشهادة كلهم في هذا السبيل ، وكانوا يقضون الليل بالعبادة والنهار بجمع الحطب ليضعوا ما تكذب به ايديهم بأختيار أصحاب الصفة اولئك^(١) .

وكان من بين خلص اصحابه افراد يعيشون في مستويات دنيا من حيث الموقع الاجتماعي ، والجوانب المادية والظاهرية ، ولكن النبي ﷺ كان يكرمهم لمميزاتهم المعنوية ويقدمهم على الآخرين الى ذلك الحد الذي سبب اعتراض مخالفيه الشديد وجاءه عدد من كبرائهم وكان عنده افراد من امثال سلمان ، وصهيب ، وابي ذر ، وعمار ، وخباب ، ونظرائهم من المعوزين والفقراء ، وحينما وقعت أعينهم على ذلك المشهد قالوا بغرور وتكبر: (لو نحيث عن هؤلاء روائح صنانهم ... جلسنا نحن اليك وأخذنا عنك فلا يمنعا من الدخول عليك الا هؤلاء) .

وهنا نزلت آية ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الكهف - ٢٨ ، وأمر النبي ﷺ بأن يكون دوماً مع هذه الزمرة من اصحاب القلوب الطاهرة الحفاة ، وان لا يمد عينيه الى الأبهة الظاهرية للاثرياء الانانيين^(٢) .

وفي الآية التي بعدها يرد بكلمات حادة وموجعة على مطالب المستكبرين هذه قائلاً: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ * إِنَّا عِتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ تَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ .

١ - انتهى الامال - وقائع السنة الهجرية الرابعة - وجاء نفس المعنى مع بعض الاختلاف في تاريخ الكامل لابن الاثير ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

٢ - نقل هذه القصة الكثير من المفسرين والمؤرخين بعبارات مختلفة ، تفسير مجمع البيان والقرطبي في ذيل الآية ٢٨ من سورة الكهف .

وهذا البيان الصريح والقاطع يثبت بشكل جيد أن الاسلام عن أي طبقة يدافع ؟ وما هي الطبقات التي تحتل الصفوف المتقدمة فيه ؟

ويعتبر القرآن الكريم التفاف الافراد المؤمنين المخلصين والابرار حول النبي ﷺ بأنه واحد من شواهد حقانيته ﷺ اذ يقول : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ...﴾ هود - ١٧ ، والكثير من المفسرين يعتقدون بأن (البينة) هي نفس القرآن والمعجزات ، وان المقصود بـ(الشاهد) هم الاتباع المضحون المؤمنون المخلصون انفسهم :

ومن البديهي أن ايمان شخص كعلي عليه السلام بماله من المميزات العلمية والمعنوية والاخلاقية التي اتضحت في (نهج البلاغة) يمكن ان يكون شاهداً ناطقاً على حقانية النبي ﷺ .



٨- التطور السريع

ان التطور السريع ، والتقدم الخارق لدين ما ، وايجاده لتحول عظيم وواسع ، يمكنه ان يشكل قرينة اخرى على أصالته وحقانيته ، لان تأثيراً كهذا يكون ممكناً فقط اذا كانت قواعد هذا الدين مستندة الى فطرة الحياة وواقعياتها ، ومنطبقة مع قوانين الخلق والابداع ، اي نفس القوانين المتحركة بحياة البشر .

فالقانون غير الفطري ، والمخالف لروح الانسان وجسمه ، يتقدم بصعوبة بالغة ، واذا تقدم فبسبب استخدام عوامل ضاغطة ، فمثلاً في بداية دعوة الشيوعية لنفسها كان لها تقدم سريع ومثير ، ولكننا نعرف جميعاً ان ذلك تم باللجوء الى استخدام القوة وسفك الدماء والدكتاتورية الشديدة ، في حين ان التقدم الفكري السريع والعميق اذا جرى في عمق افكار المجتمع كان دلالة على أصالته ، ونحن نعلم بأن

الاسلام قد فتح مناطق شاسعة في نفس القرون الاولى من ظهوره بدون ان تطأها اقدام حتى جندي مسلم واحد .

على كل حال ان النمو السريع للاسلام في ظاهر المجتمع البشري وباطنه ، وبمناطق شاسعة من هذا العالم ، وذلك في خلال برهة زمنية قصيرة ايضاً ، ليس بالشيء الذي يبقى خافياً على احد ، والمثير ان هذا الدين ظهر في منطقة نصف متوحشة ، وبسط نفوذه على كل العالم المتمدن في ذلك الزمان وفي مدة وجيزة . وهذا النفوذ السريع والشامل لازال يشكل لغزاً محيراً للمؤرخين الكبار من غير المسلمين ، وكنموذج على ذلك :

١ - عندما يصل مؤلفو كتاب (حضارة الغرب ومرتكزاتها في الشرق) وهم ثلاثة من العلماء الغربيين المعروفين - الى فصل ظهور وانتشار الاسلام ، يعترفون بصراحة قائلين : (كل المحاولات التي جرت لمعرفة الاسلام وانتشاره السريع - الى الحد الذي استطاع ان يبسط ظلاله على القسم الاعظم من العالم المتحضر آنئذ في أقل من قرن - وعلى الرغم من كل التفسيرات والتحليلات التي وردت عن هذه الحقبة التاريخية فلا زالت هذه القضية باقية على شكل لغز من الالغاز)^(١) .

٢ - كتبت السيدة (فاغلري) العالمة الاوربية المعروفة كتاباً بعنوان (انتشار الاسلام السريع) يمكن اعتباره شاهداً آخر على هذه المسألة ، اذ اعتبرت الانتشار السريع للاسلام بأنه أمر اعجازي ، كما ان القرآن كتاب اعجازي لا يمكن ابدأ لمحمد ﷺ العربي الامي ان يبتدعه .

٣ - وعبر باحث ايطالي في احد فصول كتابه عن تاريخ الرياضيات حول (الرياضيات عند المسلمين) بأنها احدى معجزات العرب .

واعتبر ان ما أحدثه الاسلام سريعاً وعميقاً الى درجة يعجز المنطق والتعبير

١ - (حضارة الغرب ومرتكزاتها في الشرق) - فصل ظهور الاسلام وانتشاره .

العادي عن تفسيره .

ثم يضيف : (ان ما ينسبه البعض من المسلمين للمشیئة والقدرة الربانية في ظهور الاسلام وثقافته ... هو في الحقيقة دلالة على ان أصل تطور الحضارة البشرية هذا كان غير متلائم مع موازين امكانات ومقتضيات تلك الازمنة الى الحد الذي جعلهم لم يستطيعوا ان يجدوا له تفسيراً سوى مشیئة الله وتقديره^(١) .

٤ - يقول الكاتب الانجليزي الشهير (برنارد شو) في أحد كتبه حول عظمة نبي الاسلام ﷺ : (انني انظر دائماً الى دين محمد ﷺ بأحترام كبير، لانه يتمتع بحركة وطراوة عجيبة ، وأعتقد بأن الاسلام هو الدين الوحيد الذي يتطابق مع ادوار الحياة المختلفة ، ويتلائم مع كل عصر وزمان ... نحن ننظر الى القرآن ككتاب لمحمد ﷺ بنفس التعظيم والثقة التي ينظر فيها المسلمون له ويعتبرونه كتاب الله)^(٢) .

٥ - يتنبأ هذا العالم الانجليزي نفسه في مقال عن جذابية الاسلام وانتشاره ويقول : (ان الاسلام وبما يمتلكه من نفوذ معنوي يزيد باضطراد من اتباعه خاصة في البلدان الاوربية)^(٣) .

واذا اردنا جمع شهادات المؤرخين المسلمين وغير المسلمين حول هذا الموضوع فإنها تشكل كتاباً ضخماً ، لذا نكتفي بهذا المقدار :

١ - الاخلاق والصفات الخاصة الاخرى لنبي الاسلام ﷺ بذاتها شاهد معبر على انه يبتغي هدفاً مقدساً ، وينفذ مهمة الهية ، ولم تلاحظ اي علامة من علامات المدعين الكاذبين ومنتهمي الفرص المنتفعين في اخلاقياته .

وأشارت كل كتب التاريخ تقريباً - سواء التواريخ التي كتبها المسلمون أو غير

١ - (قاموس دارسي الشؤون الاسلامية الاجانب) ، ج ١ ، ص تأليف حسين عبد الله خورش (فارسي) .

٢ - نفس المصدر : ج ١ ص

٣ - نفس المصدر ، ج ٢ ص

المسلمين - الى قضية نزاهته وأمانته والى ذلك الحد الذي يعرف فيه كل الناس هذه الصفات حتى في الجاهلية ويلقبونه به (الامين) ، بل وبعد ظهور الاسلام كذلك كان معارضوه واعدائه يودعونه اماناتهم ، ولهذا السبب عندما اراد النبي ﷺ الهجرة الى المدينة بعد مضي (١٣) عاماً من ظهور الاسلام أمر علياً عليه السلام ان يبنى في مكة ليعيد للناس اماناتهم ثم يهاجر الى المدينة .

الافضل ان نستمع لهذا الحديث عن لسان الآخرين ، لنرى ما لدى اولئك الذين هم غرباء عنه في الظاهر من شهادات صريحة عن هذا الموضوع :

ينقل عن كتاب (الاعتذار الى محمد ﷺ) للانجليزي (جان ديفن بورت) قوله : (بلا شك اذا لم نأت به «محمد» كواحد من نوادر العالم وكأظهر نابغة استطاع الكون تربيتهم حتى الآن ، فيجب ان نعتبره من أعظم البشر ، والشخصية الوحيدة التي يمكن لقارة آسيا ان تفتخر بوجود هكذا ابن لها) ^(١) .

٢ - في كتاب (محمد رسول الله ﷺ) نقلاً عن كتاب (الاسلام من وجهة نظر فولتير) أن (نابليون) قال منتقداً (مسرحة فولتير) التي وردت فيها اهانات لساحة الرسول ﷺ : (أن فولتير خان التاريخ والوجدان الانساني لانه أنكر السجايا السامية لمحمد ﷺ ، وصور هذا الرجل العظيم الذي سلط نوراً آلهياً على وجوه العاملين ، على صورة موجود آخر) ^(٢) .

٣ - وصدفة ان (فولتير) نفسه غير رأيه بهذه المسرحية المهيينة أواخر عمره وأعترف صراحة بالقول : (يوجد في محمد ﷺ شيء يدفع الجميع لاحترامه ، وأنني أسأت كثيراً بحق محمد ﷺ) ^(٣) .

٤ - جاء في كتاب (دائرة المعارف البريطانية) في ذيل كلمة (القرآن) : (يعتبر

١ - (عذر التقصير الى ساحة محمد والقرآن) ص ... (فارسي) .

٢ - (محمد رسول الله ﷺ) - ص ١٤٢ .

٣ - نفس المصدر : ص ١٤٣ .

محمد ﷺ من بين الرجال والشخصيات الدينية العظيمة في العالم اكثر الشخصيات توفيقاً وظفراً، وكانت رسالته مرادفة للنجاح والانتصار^(١).

٥ - يقول الفرنسي (غوستاف لوبون) مؤلف الكتاب المعروف (حضارة الاسلام والعرب): (أن بساطة ووضوح اصول العقائد الاسلامية بالاضافة الى التعامل مع الناس بالعدل والاحسان الذي طبع وجه الدين الاسلامي بطابعه المنير صار سبباً في ان يبسط نفوذه على وجه الارض كلها).

٦ - يقول (لامارتين) الشاعر الفرنسي المعروف بعد بيان مفصل في مدح نبي الاسلام ﷺ: (هذا هو محمد ﷺ الذي لو أردنا ان نزنَ عظمته بأي ميزان فأننا سوف نضطر للقول: بأنه ما من رجل في العالم أعظم من محمد ﷺ^(٢)).

٧ - طبيب وكاتب لبناني مسيحي معروف أعتبر في اشعاره التي نظمها عن (نبي الاسلام) ﷺ بأنه افضل مدبر وحكيم وعالم، ورب للكرم والكلام، ورجل العقل والسياسة، وبطل ميدان المعارك، ووصفه بصفات ليس لها نظير^(٣).

٨ - مع ان البعض من مؤرخي الغرب المفرضين والمنتفعين حاولوا ان يعطوا صورة عن نبي الاسلام ﷺ مخالفة للواقع، ولكن الرد عليهم هو نفس الرد الذي كتبه واحداً من باحثيهم بأسم (يوحنا واكنبرت) الذي انتقد في كتابه (محمد والاسلام) الكتاب المتعصبين والمفرضين الذين كتبوا عن نبي الاسلام ﷺ خلافاً للحقيقة يقول: (بالقدر الذي يعود فيه الشخص الى الحقائق المعتمدة تاريخياً، والمصادر الموثقة والصحيحة التي كتبت عن أقوال وافعال وحالات محمد ﷺ فسوف يبدو في نظره شاتم هذا النبي امثال (ماركس) و(برايدر) وسائر هؤلاء

١ - دائرة المعارف البريطانية، مادة (قرآن).

٢ - نقلاً عن كتاب (تاريخ تركيا) حسب كتاب (قاموس دارسي الشؤون الاسلامية الاجانب) ص ... (فارسي).

٣ - (قاموس دارسي الشؤون الاسلامية الاجانب) ص ٥٢٤ (فارسي).

الاشخاص توافه وحقراء وضعفاء جداً^(١).

ملخص القول : ان ليس اصدقاءه واتباعه فحسب ، بل ومخالفوه والبعيدون عنه تحدثوا عن صفاته وسجاياه وملكاته الاخلاقية الناضلة ، وبرامج حياته الشخصية والاجتماعية القيمة بالتقدير الذي لو جمعت اقوالهم هذه لشكلت عدة كتب كبيرة .



من مجموع هذه الترائن العشر التي كان لنا في كل منها اشارة عابرة ، يمكن ان يستنتج بأنه كان نبيا صادقاً ورسولاً حقيقياً ومبعوثاً من الله العظيم ، ولا يوجد في ذلك ادنى شك أو تردد حتى لو غضضنا النظر عن كل معجزاته وخوارق عاداته . هذا الدليل يعتبر كافياً لوحده ، بل وكما اشرنا سابقاً ايضا ان هذا الدليل بالنسبة للعلماء اسمى واعلى من المعجزات .



١ - (محمد من وجهة نظر الآخرين) نقلا عن (قاموس دارسي الشؤون الاسلامية الاجانب) ج ١ ، ص ١٦٤ (فارسي).

البشارات والاشارات

تمهيد :

ثالث الادلة التي يمكن اقامتها لتصديق اقوال نبي الاسلام ﷺ هي البشارات والاشارات التي جاءت في (الكتب السماوية السابقة) ، وبالرغم من ان الكثير من هذه البشارات قد غطتها غيوم من التعصب وتم حذفها أو تغييرها وتزويرها من كثرة التحريفات التي جرت على الكتب السماوية السابقة ، ولكن لازالت اشارات كثيرة عن هذا الموضوع تبدو للناظر في نفس كتب الديانات الاخرى الموجودة بين ايدينا اليوم .

وتشير القرائن الى ان هذه الاشارات والدلالات كانت في متناول اليد بداية ظهور الاسلام اكثر من الوقت الحاضر بالشكل الذي كان القرآن الكريم يستند اليها مكرراً ويدعو (اليهود) و(النصارى) للتدقيق فيها ، وبلا شك اذا لم يكن ذلك موجوداً ، فلا يمكن للقرآن ان يعتمد على تلك الاشارات بهذه الصراحة .

وهناك نقطة تلفت الانتباه ، فكما صرحت الكثير من كتب التاريخ ان مجيء مجموعة من اليهود الى أرض المدينة كان بدافع البشارات التي قرأوها في كتبهم عن ظهور نبي الاسلام ﷺ ، وان الشوق وتمني ادراك محضر ظهوره هو الذي أجبرهم

على ترك ديارهم والجلء عن اوطانهم وسكنوا المدينة ، والا فان بيئة الحجاز عموماً والمدينة خاصة ليس فيها مايجذب للحياة المادية من قبيل التجارة أو الزراعة أو تربية المواشي حتى يختاروها وطناً لهم .

كانوا يعتبرون انفسهم اكثر أهلية من الآخرين في قبول الدين الذي كانوا ينتظرونه ، ولكن بعد ظهور الاسلام وتعرض مصالحهم غير المشروعة للخطر. غير قسم منهم شكل القضية ، وهبوا في النهاية لمواجهة النبي ﷺ ، ولا مجال للتعجب والاستغراب هنا لاننا نشاهد مثل هذا في علاقات الكثير من الاصدقاء والروابط الودية لمجموعة من المتحابين .

بهذه الاشارة نعود الى القرآن الكريم ، ونتابع الآيات التي تشير الى هذا المعنى ، وتوبخ اليهود والنصارى بسبب عدم توجههم لها :

١ - ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ . (البقرة -

١٤٦ والانعام - ٢٠) .

٢ - ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي

التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ . (الاعراف - ١٥٧) .

٣ - ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا

لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ . (الصف - ٦) .

٤ - ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ

عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ . (البقرة - ٨٩) .

٥ - ﴿وَأَمِينُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا

بَايَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاي فَاتَّقُونَ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا
الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١ و ٤٢﴾.



انهم يعرفونه جيداً

أول آية جاءت في سورتين من القرآن الكريم تقول :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي أنهم ليسوا مطلعين
على أصل ظهوره ودعوته وحسب ، بل ويعرفون ايضاً اشاراته وخصوصياته
وجزئياته ، ويقول في ذيل الآية التي جاءت في سورة البقرة : ﴿وَأَنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ
لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

وينقل عن (عبد الله بن سلام) - الذي يعد من علماء اليهود الكبار ثم اعتنق
الاسلام - (أنا أعلم به مني بابني)^(١) .

وجاء في رواية أخرى : ان النبي ﷺ عندما جاء الى المدينة قال (عمر) لعبد
الله بن سلام : ان الله انزل آية على نبيه تقول : إنَّ أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفونه
ابناءهم ، فما هي هذه المعرفة ؟ ، فقال عبد الله بن سلام : (اننا نعرفه بصفاته التي
بينها الله ، وعندما نراه فيكم نشخصه من بينكم كما يشخص أحدنا أبنه عندما يراه
بين الاولاد)^(٢) .

والتفسير المشهور للآية والذي ينطبق جيداً مع ظاهرها هو هذا التفسير الذي
بيناه ، ولكن تم عرض احتمالين آخرين في تفسير الآية وهما : الاول : ان الضمير في
(يعرفونه) يعود الى (الاطلاع على النبوة) والثاني : الى (مسألة القبلة) ، وبناءً على
ذلك فان الاول هو اشارة لاطلاع ومعرفة اهل الكتاب بمسألة (النبوة) ، اما الثاني فهو

١ - التفسير الكبير للفخر الرازي ، والمنار في ذيل الآية المذكورة .

٢ - روح المعاني ، ج ٧ ص ١٠٣ ومجمع البيان ، ج ٣ ص ٢٨٢ وروح البيان ، ج ٣ ص ١٨ .

اشارة لمعرفته بأمر (تغيير القبلة) عند المسلمين من (بيت المقدس) الى (الكعبة). وكلا الاحتمالين ضعيفان جداً.

في الآية الثانية - تذكر تسعة اوصاف من صفات النبي ﷺ التي هي في الواقع دلائل على حقايقه من زوايا مختلفة - بعضها اشارة الى المضمون الرفيع لدعوته وبرامجه، وبعضها اشارة الى قرائن اخرى مثل اميته وعدم تعليمه، وشفقته ورحمته، وأمثال ذلك، وتستند في قسم آخر من هذه الدلائل الى مسألة أوصافه وعلاماته وسماته في الكتب السماوية السابقة (التوراة والانجيل) - تقول:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ... أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ومع عدم ذكر اسم النبي ﷺ في هذه الآية صراحة ولكن الاوصاف التي ذكرتها ترمي بوضوح الى ان المقصود هو نفسه.

فكيف يمكن القبول بأن القرآن يتحدث مع اليهود والنصارى بهذه الصراحة، ويخبرهم بوجود دلائل وعلامات النبي ﷺ في كتبهم ولكن هذه المسألة لا تنطبق الحقيقة وانهم يسكتون؟ وبقينا اذا لم تكن هذه الاشارات والعلامات موجودة في كتبهم فأنهم سيتخذونها حجة وذريعة مهمة ضد النبي ﷺ، ولصرّحوا لها في كل مكان، واذا كان ذلك قد حصل لنقله التاريخ لنا.

وبناء على هذا فعلى الأقل ان سكوتهم يعتبر دليلاً ساطعاً على وجود هذه القرائن والاصاف في كتبهم، وعلاوة على ذلك على حد قول الفخر الرازي: اذا لم تكن لهذا الامر حقيقة واقعية لكان موجباً لنفرة اليهود والنصارى من الاسلام، والشخص العاقل لا يقدم مطلقاً على ما يوجب تنفر الناس (خاصة في مجال الدعوة)^(١)، وكما سيمر علينا لاحقاً فإنّ قسماً من هذه الدلائل والاشارات موجودة

حتى في كتبهم المحرّفة الحالية .

والملفت للنظر هو ان القرآن لا يقول : (يجدون علائمه ودلائله) ، بل يقول : (يجدونه) ، أي يجدون نفس ذلك النبي ﷺ في التوراة والانجيل ، وهذا التعبير الذي يعني حضور النبي ﷺ في كتبهم هو تأكيد على منتهى وضوح هذا الامر . وفي البعض من الروايات الاسلامية جاء في ذيل الآية : ان بعض المسلمين سألوا شخصين من المطلعين على التوراة كلاً على حدة وأنها ذكرا أوصاف النبي ﷺ بدقة متطابقة^(١) .

٣ - في الآية الثالثة نقرأ عن لسان عيسى بن مريم أنه اعطى البشارة أمام بني اسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ ، ويقول في نهاية الآية : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ .

والمثير للاهتمام هو ان القرآن ينقل أقوال هؤلاء في مخالفتهم ومعارضتهم للمعجزات واتهامهم عيسى عليه السلام بالسحر ، ولكنه لم يتحدث عن معارضتهم حول اخبار (المسيح عليه السلام) بمسألة مجيء (احمد عليه السلام) ، وهذا دليل واضح على أنهم لا ينكرون هذا الخبر .

٤ - في الآية الرابعة نواجه نقطة جديدة تقول : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا * فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

ان هذه الآية جاءت لتشير الى السبب الذي استوجب نزولها من أن (اليهود) هاجروا من ارضهم وديارهم الى المدينة لرؤيتهم علامات نبي الاسلام ﷺ التي في كتبهم ، ولأنهم قرأوا فيها ان محل هجرة هذا النبي ﷺ بين جبلي (عبر) و(أحد) -

وهما جبلان على طرفي المدينة ، ولهذا فقد جاءوا وسكنوا المدينة وكتبوا حتى لاخوانهم بأننا وجدنا الارض الموعودة فتعالوا بنا .

فقال اولئك الذين ليسوا بعيدين جداً عنها : انه لاتصلنا فاصلة كبيرة عن تلك المنطقة وحين يهاجر اليها النبي الموعود نلتحق بكم! وعندما يصطدمون مع سكان المدينة الاصليين من قبيلتي (الاوس) و(الخزرج) يقولون : (نحن في ظل النبي الجديد سوف نتصر عليكم)^(١).

ولكنهم للأسف عندما ظهر هذا النبي نهضوا لمخالفته ، لانهم لم يروه ملبياً لميولهم واهدافهم غير المشروعة .

وهذه كلها تدل على ان مسألة ظهور نبي الاسلام ﷺ جاءت واضحة في كتبهم الى حد ما .

النقطة الجديرة بالتأمل أن عبارة «مصدق لما معنهم» أو مايشابنها من تعبير وردت في القرآن الكريم اكثر من عشر مرات ، وليس مفهومها أن النبي ﷺ يؤيد كتبهم السماوية مع ما حدث فيها من تحريف) ، بل المتصور أن أوصاف النبي ﷺ موافقة ومتطابقة مع العلامات والاشارات التي في أيديهم ، وبتعبير آخر أن للنبي ﷺ وكتابه السماوي نفس الاوصاف التي كانوا يعرفونها من قبل بالضبط وكان في الحقيقة تصديقاً لكتبهم السماوية من ناحية تطابقتها تماماً مع صفاته ﷺ .

وبهذا الترتيب تعتبر كل الآيات التي جاء فيها هذا التعبير في زمرة الآيات التي نحن بصددھا في هذا البحث .

٥ - وختاماً فان الآية الأخيرة - التي تخاطب اليهود حول الموضوع - ضمن

١ - اقتباس عن سبب النزول الذي جاء في الدر المنثور من تفاسير أهل السنة . وتفسير العياشي عن الامام الصادق (عليه السلام) (وذكره الكثير من مفسري الشيعة وأهل السنة ايضاً في ذيل الآية المذكورة) - ومع ان البعض من المفسرين مثل الفخر الرازي اعطوا احتمالات متعددة لعبارة (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) ولكن أغلبها ترجع الى نفس المعنى الذي ذكر اعلاه .

تأكيداً على وجوب الايمان بالكتاب السماوي للنبي ﷺ الذي يتطابق ومالديهم من علامات ، تقول : «وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ» .

أي أن عبدة الاوثان من العرب اذا كفروا به فلا عجب في ذلك ، بل العجب كل العجب هو ان تنكروه انتم ، لان المتوقع منكم ان تكونوا أول المؤمنين به ، والآن أستم الذين هجرتم مدنكم ودياركم وجئتم الى المدينة شوقاً للقاءه أو لم تعدوا الايام والليالي انتظاراً لظهوره ؟ ... اذن لِمَ تنعكس القضية وتكونون أنتم أول الكافرين به ؟!

ثم تشير الآية الى الباعث لتغيير اسلوبهم « هذا وتقول لهم لانكتموا الحقائق من أجل المنافع المادية «ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فأتقون» . وهذا اشارة الى أن اي ثمن يأخذونه مقابل ذلك فهو لا شيء ، حتى ولو كان العالم كله ، ولكنكم يا أصحاب الهمم الدنية ، من أجل مصالحكم المادية النافهة (أحياناً من أجل ضيافة سنوية) كتمتم الآيات التي تحمل علامات وأوصاف النبي ﷺ .

ثم تقول الآية تأكيداً للمراد : «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون» .

وفي الحقيقة فان اليهود ارتكبوا عدة مخالفات في هذا المجال :
الاولى : أنهم تعاهدوا على ان يكونوا اول المؤمنين بالنبي ﷺ في حين كانوا أول الكافرين به .

الثانية : أنهم لبسوا الحق بالباطل حتى يطمسوا وجهه ويوقعوا الناس في المناهات .

الثالثة : أنهم كتموا الحق وهم يعلمون بأنه حق وأشتروا بالآيات الالهية ثمناً

قليلاً.

وهناك في القرآن الكريم آيات متعددة أخرى بنفس المعنى (أي تحكي عن «كتمان الحقائق» من قبل اليهود) والظاهر أن تلك الآيات كلها تشير إلى نفس مسألة كتمان آيات النبوة.

ويستفاد من مجموع ما جاء في الآيات الآتية بأن اوصاف وعلامات نبي الاسلام ﷺ وحتى اسمه المبارك قد وردت في الكتب السابقة، وقدمت بشارات وإشارات كثيرة بالنسبة لظهوره.

ونتجه الآن صوب كتب العهدين الموجودة في متناول أيدينا (التوراة والانجيل)، لنبحث في نماذج من هذه العلامات والإشارات:



التبشير بظهور النبي ﷺ في الكتب السماوية

كما أشرنا من قبل، فإننا نجد في كتب اليهود والنصارى الموجودة اليوم علامات ذلك النبي العظيم، ولكن قبل ظهوره كانت توجد يقيناً مسائل كثيرة طمست في ظلمات الكتمان على أثر عدم انسجامها مع التعصبات العمياء الصماء أو متطلبات مصالح زعمائهم.

وحول (بشارات العهدين) كتبت مؤلفات متعددة، أو خصصت لها أقسام من بعض الكتب، وتناولها كلها ليس من شأن هذا التلخيص، ونكتفي ببعض النماذج البارزة:

١ - تم التأكيد في ثلاث موارد من «انجيل يوحنا» على لفظة (فارقليط) أو (فارقليطا) والتي تعني في العربية بـ(المُعزّي).

ونقرأ في مورد منها: (وسأطلب من الأب ان يعطيكم معزياً آخر

(فارقليط)، يبقى معكم الى الأبد^(١).

وجاء في مورد آخر: (ومتى جاء المعزي الذي ارسله اليكم الأب، روح الحق المنبثق من الأب، فهو يشهد لي)^(٢).

وفي الباب التالي له: (صدقوني، من الخير لكم ان اذهب، فان كنت لأذهب لا يجيئكم المعزي اما اذا ذهبت فارسله اليكم)^(٣).

مما يجلب الانتباه ان الفخر الرازي ينقل في الجزء (٢٩) من تفسيره صفحة (٣١٣) عن الاناجيل الموجودة في عصره (انجيل يوحنا - الباب ١٤): (وأنا أطلب لكم الى أبي حتى يمنحكم ويؤيتكم الفارقليط حتى يكون معكم الى الأبد). وهذا عين ما ذكرناه اعلاه ولكن بالتصريح بلفظة (فارقليط). ويذكر نفس المعنى بالتصريح بلفظة (فارقليط) أيضاً عن الباب ١٥ و ١٦ منه.

ان (فارقليط) التي تلفظ باللغة اليونانية (بريكلتوس) أو (براقليتوس) فسرّها الكثير من المسيحيين بمعنى (المُعزّي) أو (روح القدس)، ولكن جمعاً منهم ذكر أنّ معناها (كثير الحمد) وهو ما يتطابق تماماً مع اسم أحمد ومع الآية ٦/ من سورة الصف التي تقول: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرُسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ﴾. وأنّ ما يتضح من المطالعة الدقيقة لجذور هذه الكلمة هو أن (فارقليط) كلمة يونانية الاصل، وأنّ جذرها (بريقلتوس) ومعناه (كثير الحمد) التبس عليهم مع (براقليتوس) التي تعني (المُعزّي).

ينقل السيد حسينيان مؤلف كتاب (السراج)^(٤) في بداية كراسه الصغير والمليء بالمضامين، عين المتن اللاتيني لانجيل يوحنا عن كتاب بأسم

١- انجيل يوحنا: الباب ١٤، الجملة ١٦.

٢- نفس المصدر: الباب ١٥، الجملة ٢٦.

٣- نفس المصدر: الباب ١٦، الجملة ٧.

٤- (جراغ) - فارسي.

(الاناجيل) من تأليف «لامينيه» - طبع باريس - والموجود حالياً في مكتبة مجلس الشورى الاسلامي .

مايدل جيداً على أن كلمة (فارقليط) وردت هناك على صورة (بركلييت) - التي تعني بالعربية (أحمد) وبالفارسية (كثير الحمد) وليس بصورة بَرَكلييت (باراكلييت) التي تعني (المُعَزِّي)^(١) ، ولكن للأسف أزيح التعبير الاول فيما بعد من متون الاناجيل وحل محله التعبير الثاني .

ويضيف ايضاً : (ان قدماء النصارى فهموا من لفظ «باراكلييت» اسماً خاصاً لشخص ، لان في التراجم السريانية جاء عين اللفظ «أي فارقليط» ، وفي التراجم العبرانية الموجودة لدي ورأيتها شخصياً «فرقليط» . ولانهم يعتبرونه اسم انسان «معين» ، والترجمات العبرانية والسريانية عند المسيحيين لها كمال الاهمية والاعتبار)^(٢) .

وفي الواقع فإن مفردات من قبيل (محمد) و(علي) و(حسن) و(حسين) وأمثالها لايمكن مطلقاً ترجمتها عند ترجمة العبارات ، فمثلاً: بدل جملة (جاء علي) لايقول الفارسي أبداً: (بلند مرتبه آمد) بل يقول (علي آمد) ، ولكن المؤسف ان العلماء المسيحيين في الازمان المتأخرة ، ومن أجل محو علامة نبوة نبي الاسلام ﷺ هذه أبدلوا اولاً لفظة (بركلييت) بـ(باراكلييت) .

وثانياً اخرجوها من صورتها كاسم علم الى معني وصفي وقالوا بدلها «المُعَزِّي» فتأمل .

يتضح من هذا الكلام أن اللفظة الاصلية اذا كانت (بريقليتوس) فان معناها (كثير الحمد) ومن غير المستبعد التباسها مع (براقليتوس) ، وطبعاً ان احتمالات

١ - كتاب جراغ، صفحة ١ .

٢ - نفس المصدر، ص ٦ .

التعمد في هذا التفسير كثيرة جداً.

يقول المرحوم (العلامة الشعراني) في كتابه «نثر طوبى»: (رأيت في احد قواميس اللغة اليونانية أن «فارقليط» ترجم معناها بـ «كثير الحمد» أي من تتناقله الالسن ويذكر بالخير). ثم يضيف: أن قواميس اللغة اليونانية باللغة الانجليزية، والقواميس الفرنسية موجودة في كل مكان و(يمكنكم مراجعتها ولكن) يعتبرها المسيحيون مصحفة ومحرفة. ويترجمونها بمعنى (المعزي) وقد كتبنا نحن رسالة مستقلة في هذا الباب^(١).

ونطالع في كتاب قاموس مفردات القرآن^(٢) تأليف الدكتور قريب: «أن المستفاد من الروايات هو ان الانبياء العظام- كل بنوبته قد بشروا في كتبهم بحضرته نبي الاسلام ﷺ ثم ينقل عن الكثير من المصادر الاسلامية ان اسمه في الانجيل «الفارقليط» التي يكون معناها «احمد»^(٣).

وفيما عدا ذلك ففي تعبيرات الانجيل نفسه توجد جمل تشير الى أن هذه الكلمة وبأي تعبير تكون فهي تتحدث عن نبي يظهر ويبقى دينه خالداً. فجملة (وسأطلب من الاب ان يعطيكم معزياً آخر يبقى معكم الى الابد)^(٤) دليل واضح على ان المقصود من (المعزي) هو نبي دينه ابدى وخالد.

ويقول هناك: (ومتى جاء المعزي الذي ارسله اليكم الأب، روح الحق المنبثق من الاب، فهو يشهد لي)^(٥).

١- نثر طوبى، ج ١ ص ١٩٧.

٢- فرهنگ لغات قرآن (فارسي).

٣- فرهنگ لغات قرآن (فارسي)، ج ١، ص ٣٥١.

٤- انجيل يوحنا: الباب ١٤، الباب ١٦.

٥- نفس المصدر، جملة ٢٦.

وواضح ان هذا المعزي هو نبي وليس روح القدس . وتكمن في تعاليمه كل الحقائق ولن يبق شيء يستحق القول .

وعلى كل حال لا مجال لأي شك أو تردد بأن كلمة (أحمد) أو مفردات من قبيلها كانت موجودة في الاناجيل المتوفرة في زمن النبي ﷺ ، والآ فان الآية السادسة من سورة الصف ستكون في مظان الاعتراض الشديد من قبلهم ولأصبحت حجة قوية لهم في محاربة الاسلام . في حين لم ينقل لنا التاريخ الاسلامي مثل هذا الشيء .

وبناء على ذلك يبدو ان البعض من علماء المسيحية حينما رأوا أن مواقعهم معرضة للخطر أخذوا قرارهم بتحريف وتبديل تلك المعاني الى معاني اخرى . وحتى يمكن مشاهدة نفس الاسم المقدس للنبي ﷺ في بعض كتب المسيحيين التي كانت موجودة لقرون بعد ظهوره ﷺ في زوايا العالم المختلفة .

والشاهد على هذا الكلام بيان مثير لاحد العلماء المسيحيين الذين اعلنوا اسلامهم في كتابه (أنيس الاعلام) وهو كتاب تحقيقي فريد ازاح الستار عن هذا الجانب .

وباعتباره كان بنفسه أحد القساوسة المسيحيين المعروفين وانهى دراسته عند كبار علماء المسيحية ووصل الى مقام كبير في نظرهم ، يشرح في مقدمة كتابه المذكور قصة اسلامه العجيبة بهذا الشكل ، يقول : «بعد تنقيب كثير وجهود خارقة وجولات في المدن المختلفة وصلت الى قسيس رفيع المستوى كان ممتازاً من ناحية الزهد والتقوى . ويعود اليه أبناء الطائفة (الكاثوليكية) من ملوك وغيرهم بأسئلتهم الدينية . وقد درست عنده فترة مذاهب النصارى المختلفة . وكان عنده تلامذة كثيرون ولكن كان له تعلق خاص بي من دونهم

وكانت مفاتيح المنزل كلها بيدي الآ مفتاح واحد لآحد الخزائن كان يحتفظ به عنده .

في تلك الاثناء احس القسيس المذكور يوماً بوعكة صحية ، فقال لي : قل للتلاميذ أنني لاطاقة لي على التدريس . وعندما جئت للطلبة وجدتهم مشغولين بالبحث والنقاش الذي انجر الى معنى لفظة (فارقليطا) في السريانية و(بريكلتوس) باللغة اليونانية ... وقد امتد جدالهم وطال ، وبدا لكل واحد منهم رأياً... بعد أن عدتُ الى الاستاذ سألني : ما بحثتم اليوم ؟ فقدمت له تقريراً عن اختلافهم في لفظ (فارقليطا) ... قال : وأنت أي الاقوال انتخبت ؟

قلت : انتخبت ما اختاره فلان مفسر .

فقال القس : ما قصرت ولكن الحق والواقع يخالف كل هذه الاقوال ، لان الحقيقة لا يعلمها (الراسخون في العلم) وقليل من هؤلاء ايضاً من يعرفها ، فألححت عليه ان يقول لي معناها ، فبكى بشدة وقال : أنني لا أبخل عليك بأي شيء ... ان في تعلم معنى الاسم اثراً عظيماً ولكن بمجرد شيوعه سيقتلوننا انا وأنت واذا عاهدتني بأن لا تقول لآحد سآبين لك المعنى ... فأقسمت له بكل المقدسات أن لا أبوح بأسمه ، عندئذ قال : ان هذا الاسم هو من اسماء (نبي المسلمين) ومعناه (أحمد) و(محمد) :

ثم أعطاني مفتاح تلك الغرفة الصغيرة وقال : افتح باب الصندوق الفلاني . وأتني بكذا وكذا كتاب ، فجلبت الكتابين له وكانا مكتوبين بالخط اليوناني والسرياني قبل ظهور نبي الاسلام على الجلد .

وقد ترجم لفظ (فارقليطا) في كلا الكتابين بمعنى (أحمد) و(محمد) ، ثم اضاف الاستاذ قائلاً : لم يكن عند علماء النصارى أي اختلاف قبل ظهور نبي الاسلام بأن (فارقليطا) تعني (أحمد ومحمد) ولكن بعد أن ظهر محمد أولوا

اللفظة وأخترعوا لها معنى آخر من أجل الإبقاء على رئاستهم ومنافعهم المادية . وقطعا ان هذا المعنى لم يقصده صاحب الانجيل .

فسألته : ماتقول عن (دين النصارى) ؟ قال : نسخ بمجيء الدين الاسلامي وكرر هذا اللفظ ثلاث مرات ، فقلت : في هذا الزمان ماهو طريق النجاة والصراط المستقيم...؟ قال : انه منحصر في اتباع محمد ﷺ .

قلت : وهل ان تابعيه من أهل النجاة ؟ قال : أي والله (كررها ثلاثا)... ثم بكى الاستاذ وبكى انا ايضا وقال : اذا كنت تريد الآخرة والنجاة فيجب ان تقبل دين الحق... وسوف ادعوك دائما ، بشرط ان تشهد لي يوم القيامة بأنني كنت مسلماً في الباطن ومن أتباع حضرة محمد ﷺ... وليس من شك اليوم أن «دين الاسلام» هو دين الله على وجه الارض...^(١) .

وكما تلاحظون فان علماء أهل الكتاب - وفق هذا السند - فسروا وبرروا اسم وعلامات النبي ﷺ بعد ظهوره بشكل آخر من أجل مصالحهم الشخصية .

سؤال :

يطرح هنا سؤال وهو : ان الاسم المعروف للنبي ﷺ (محمد) في حين سمي في الآية ٦ من سورة «الصف» باسم (احمد) ، وهاتان المفردتان وان لم تختلفا كثيرا في دلالتهما على معنى ومفهوم (محمود) ولكنهما في الظاهر اسمان مختلفان . وبناءً على ذلك اذا كانت (فارقليطا) تعني (محمود) ، فانها تنسجم مع كليهما ، ولكن تعبير القرآن بـ(أحمد) لا ينسجم مع الاسم المعروف للنبي ﷺ .

الجواب :

ستتضح الاجابة جيداً على هذا السؤال ببيان بعض النقاط :

١ - جاء في التواريخ بأن للنبي ﷺ منذ طفولته اسمين ، وحتى أن الناس كانت تخاطبه بكليهما . احدهما : (محمد) والآخر (أحمد) ، والاول اختاره له جده (عبد المطلب) . والثاني : أمه (آمنة) ، وقد ذكر هذا الموضوع بالتفصيل في السيرة الحلبية .

٢ - من بين الذين ينادونه مراراً بهذا الاسم ، عمه (ابو طالب) ، وفي ايدينا اليوم كتاب بعنوان (ديوان ابي طالب) نشاهد فيه قصائد كثيرة ذكرت النبي ﷺ بعنوان (أحمد) مثل :

أرادوا قتل «أحمد» ظالموهم وليس بقتلهم فيهم زعيم

وان كان «أحمد» قد جائهم بحق ولم يأتهم بالكذب^(١)

وفي غير (ديوان ابي طالب) نقلت عنه اشعار في هذا المجال مثل :

لقد أكرم الله النبي محمداً فأكرم خلق الله في الناس أحمد^(٢)

٣ - ويرى هذا التعبير ايضاً في أشعار (حسان بن ثابت) الشاعر المعروف

في عصر النبي ﷺ :

ومفجعة قد شفها فقد أحمد فظلت لآلاء الرسول تعدد

والاشعار التي جاء فيها اسم (أحمد) بدلا من محمد سواء في ديوان ابي

طالب أو غيره كثيرة جداً ولا مجال لنقلها كلها هنا . ونختم هذا البحث ببيتين

آخرين لابن ابي طالب (عليه السلام) حيث يقول :

اتامرني بالصبر في نصر «أحمد» ووالله ماقلت الذي قلت جازعاً

١ - ديوان ابي طالب ، ص ٢٥ و ٢٦ .

٢ - تاريخ ابن عساكر : ج ١ ، ص ٢٧٥ .

سأسمى لوجه الله في نصر «أحمد» نبي الهدى المحمود طفلاً ويافعا^(١)
 ٤ - نقرأ في الروايات التي جاءت تتحدث عن مسألة المعراج بأن الله
 خاطب النبي ﷺ في ليلة المعراج مرات بأسم (أحمد) وربما من هنا اشتهر
 بأن اسمه في السماء (أحمد) وفي الأرض (محمد).
 وجاء أيضاً في حديث عن الامام الباقر عليه السلام أن للنبي ﷺ عشرة أسماء
 جاءت خمسة منها في القرآن وهي: (محمد) و(أحمد) و(عبد الله) و(يس) و(ن)^(٢).

٥ - عندما تلى النبي ﷺ الآيات المذكورة (آيات سورة الصف) لأهل
 المدينة ومكة وسمعها أهل الكتاب أيضاً، لم يعترض أي واحد من المشركين
 وأهل الكتاب بأن (الانجيل) بشر بمجيء (أحمد) بينما اسمك (محمد).
 وسكوتهم هذا دليل على اشتهار هذا الاسم في ذلك المحيط، لانه اذا حدث
 مثل هذا الاعتراض لكان قد نقل الينا. مع أن اعتراضات الاعداء وحتى في
 الموارد الجارحة جداً مثبتة في التاريخ.
 نستخلص من مجموع هذا البحث أن اسم (أحمد) كان من الاسماء
 المعروفة لنبي الاسلام ﷺ.



٢ - نشاهد بشارة اخرى في سفر التكوين والظهور في (التوراة) في الفصل
 السابع. لا يمكن تطبيق علاماتها الا على النبي ﷺ.
 ففي الجمل من ١٧ الى ٢٠ نطالع: (وقال ابراهيم للرب ياليت اسماعيل
 يعيش أمامك... فقال الله سمعت دعائك في حق اسماعيل وها أنا اباركه واكثر

نسله وسيلد منه اثنا عشر رئيساً وسنجمله امةً عظيمة) (١).

وفي كتاب (أنيس الاعلام) ينقل متن جمل التوراة المكتوبة باللغة العربية ويكتب ترجمتها على هذا الشكل : (... وأثمره واعظمه بـ«مادما» والاثنا عشر اماماً الذي سيكون من نسله وسنجمله امةً عظيمة) (٢).

ثم يضيف : (أن «مادما» هو نفس «محمد ﷺ» بالعبرانية).

ومع الالتفات الى أن النبي هو من نسل اسماعيل ، وجاء في البشارة المذكورة بأنه سيكون امة عظيمة ويخرج منه (اثني عشر سيد وامام) سيتضح عدم وجود أي مصداق لها سوى شخص النبي ﷺ ، واذا الحقنا بها لفظة (مادما) التي وردت في النص العبري - وان لم يأتوا بها في الترجمة من العربية الى الفارسية - ستتضح أكثر وأكثر.

ان قيل بأن هؤلاء (الاثني عشر سيداً واماماً) وكذلك الامة العظيمة اشارة الى (موسى ﷺ) و(أسباط بني اسرائيل الاثني عشر) ففي الحقيقة ان الله بشر ابراهيم بظهور موسى ﷺ يكون الجواب على ذلك واضحاً لان موسى ﷺ وأسباط بني اسرائيل هم من نسل اسحاق ، في حين ان العبارة الآتية تعرفهم على أنهم من ابناء اسماعيل ولا يمكن ان يكون لها مصداقاً الاً النبي الاسلام ﷺ .

٣ - جاء في سفر التكوين (التوراة) - الباب ٤٩ رقم ١٠ : (ولن تؤخذ عصي السلطنة من يهودا حتى يأتي شيلوه التي ستجتمع حوله الامم) (٣).

وظاهر هذه العبارة هو أن حكم (يهودا) وتسلط بني اسرائيل سيستمر حتى ظهور (شيلوه) وتجتمع الامم حوله .

أما من هو وما هو المقصود بـ(شيلوه) ، فان مؤلفي اليهود والنصارى قدموا

١ - سفر التكوين : الفصل السابع .

٢ - انيس الاعلام : ج ٥ ، ص ٦٩ .

٣ - سفر ظهور التوراة - باب ٤٩ - رقم ١٠ .

احتمالات كثيرة كان أغلبها لا تتسق مع العبارة المذكورة بأي وجه ، ومن جملتها ان (شيلوه) تعني مكاناً للاستراحة أو مدينة في شمال «بيت ايل» أو محلاً يسمونه الان (سيلون) ، والمسلم فيه ان التعبير بمجيئه واجتماع الامم حوله هو اشارة الى شخص وليس اشارة الى مكان أو محل .

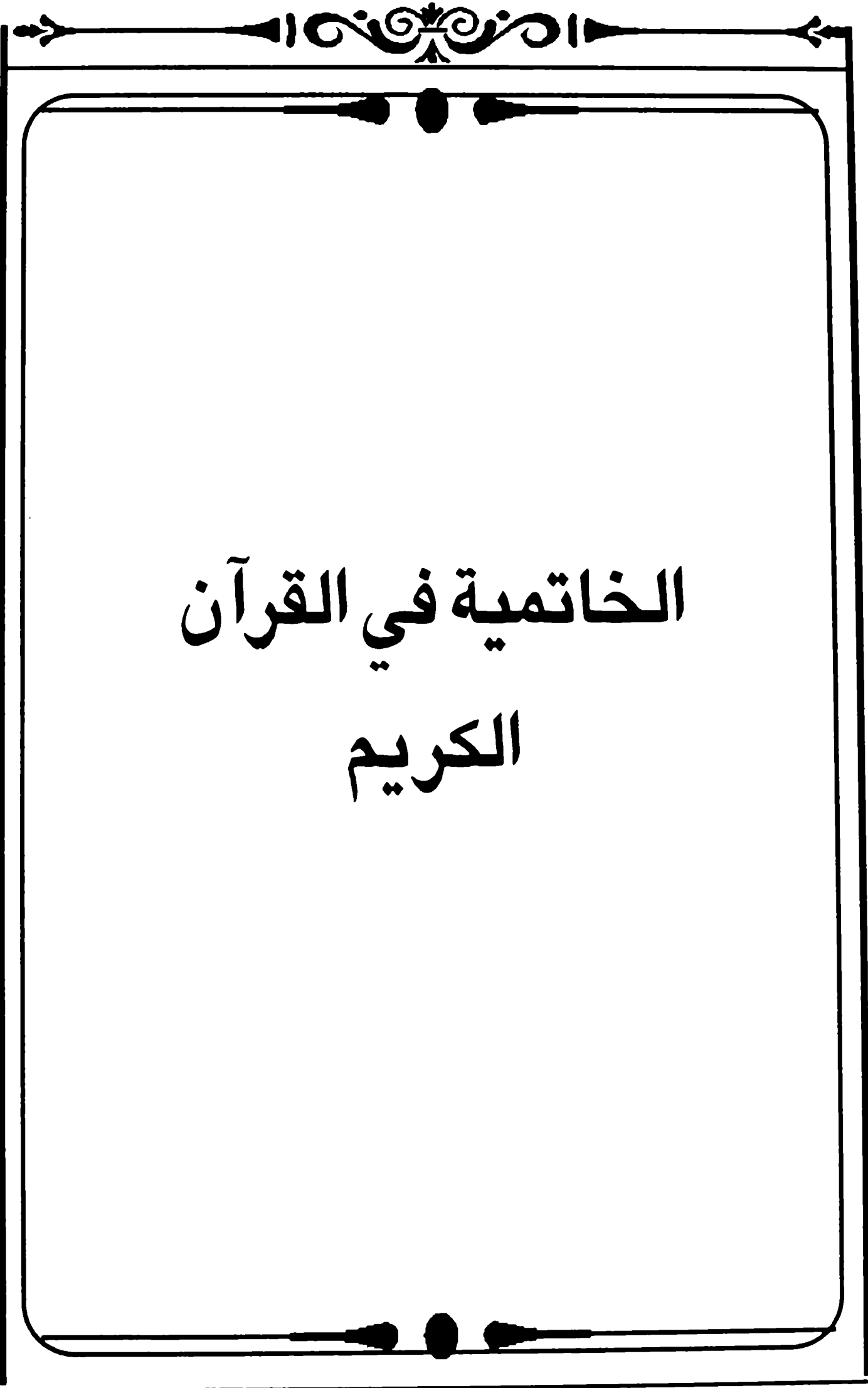
و(مستر هاكس) الاميركي مؤلف كتاب (القاموس المقدس) ضمن عده للمعاني المختلفة لهذه المفردة ذكر معنى (مرسل) التي تنطبق على لفظة رسول أو رسول الله .

والشيء الوحيد الذي يمكن ان يقال هو أن بشارة التوراة هذه هي اشارة لظهور (المسيح ﷺ) كما قالوا ولكن- حسب قول فخر الاسلام في (أنيس الاعلام): أن هذا الاحتمال غير صحيح لان المسيح ﷺ هو من أبناء (يهودا) من جهة الام .

وبناءً على ذلك فان حاكميته تعتبر امتداداً لحاكمية يهودا ، وفي هذه الحالة لم يبق من مصداق لها سوى نبي الاسلام ﷺ المرسل من الله الذي تزاح بظهوره حكومة (آل يهودا) خصوصاً في المدينة وخيبر والشامات والكثير من المناطق الاخرى^(١) .

طبعاً ذكرت بشارات متعددة اخرى ايضا في كتب العهدين بطول شرحها وان البعض منها قابل للايراد والتجريح ، والذين يرغبون بالبحث والتحقيق اكثر في هذا الموضوع يمكنهم الرجوع الى كتب (أنيس الاعلام) و(بشارات العهدين) و(البشارات والمقارنات) .





الخاتمية في القرآن الكريم

تمهيد :

مسألة (الخاتمية) وأن نبي الاسلام ﷺ هو آخر الانبياء الالهيين من المسائل التي يعتقد بها كل المسلمين من أي فرقة أو مذهب كانوا ، ولا يعرفها العلماء فحسب بل وآحاد المسلمين ايضاً ويعتبرونها من (ضروريات الاسلام) التي يتوصل اليها أي احد بسرعة مهما قلت معاشرته لاتباع هذه المدرسة وهي أنهم يعتبرون النبي ﷺ هو آخر الانبياء الالهيين .

ومنبع هذا الاعتقاد يعود الى (القرآن الكريم) و(الروايات الاسلامية) لان هذه المسألة ليست بالشيء الذي يمكن اثباتها بالادلة العقلية فقط وبقيناً بعد قبولهم للقرآن الكريم بصفته كتاباً سماوياً ، ونبي الاسلام ﷺ كونه رسولاً لله . يمكن الاعتماد على قولهم بهذا الصدد .

لهذا السبب نتوجه اولاً الى الآيات القرآنية ، ثم نتطرق الى الشواهد التاريخية والروايات الاسلامية ، ونختتمها ببعض الشبهات التي القاها مخالفو الاسلام حول خاتمية النبي ﷺ :

الآية الرئيسية التي تشهد على هذا المعنى هي الآية ٤٠ من سورة الاحزاب التي تقول : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ

النبيين * وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .

وذكر العلماء آيات متعددة اخرى حول الموضوع اذا لم نقبل دلالتها القطعية فلا أقل من احتوائها على اشارات مثل :

١ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَأَنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ

الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ

حَمِيدٍ﴾ . (فصلت - ٤١ و ٤٢) .

٢ - ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ

نَذِيرًا﴾ . (الفرقان - ١) .

٣ - ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَانذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ . (الانعام - ١٩) .

٤ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ . (سبا - ٢٨) .

٥ - ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ . (الاعراف - ١٥٨) .

٦ - ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ . (الانعام - ٩٠) .

٧ - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ . (الانبياء - ١٠٧) .

جمع الآيات وتفسيرها

في الآية الاولى (الاحزاب - ٤٠) اشارة الى قصة (زيد) الذي كان يسمى ابن النبي ﷺ بالتبني . وتزوج النبي بزوجه المطلقة حتى يحطم السنة المغلوطة لـ (الابن بالتبني) حتى لا تبقى المرأة التي زوجت لزيد عن طريق النبي ﷺ وانفصلت عنه اثر عدم التفاهم ، بدون معيل ، تقول : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ . ثم تضيف : ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾ .

وفي الحقيقة تنفي الآية في بدايتها نسبة الابوة والبنوة الجسمية والنسبية عنه بشكل كامل ، ولكنها في الجملة التالية تثبت له الرابطة المعنوية المتأنية من

مقام النبوة والخاتمية ، أي انه ليس أبيكم الجسدي ، بل هو أبيكم الروحي ، وأبي كل الاجيال اللاحقة حتى نهاية الدنيا ، واذا نقل في بعض الروايات عن النبي ﷺ قوله : (أنا وعلي أبوا هذه الامة) فهو ايضا اشارة الى نفس الابوة الروحية التي تنبع من التعليم والتربية والقيادة .

ويجب الالتفات الى ان للنبي ﷺ عدة اولاد نسبين بأسماء (القاسم) ، (الطيب) ، (الطاهر) ، و(ابراهيم) ورحلوا جميعهم عن هذا العالم قبل البلوغ . ولهذا السبب لم تسميهم الآية (رجال) ^(١) .

ضمننا هناك رابطة اخرى بين مسألة ختم النبوة فقد الولد وهي ان الكثير من اولاد الانبياء كانوا انبياء ايضا ، ولان النبي ﷺ لا ابن له لم يبق أي مجال للتوهم بأن سيكون بعده نبي آخر . وعلى هذا فإن فقدان الولد هي اشارة الى ختم النبوة .

ويقول في آخر الآية «وكان الله بكل شيء عليماً» .

ووضع تحت تصرف هذا النبي الخاتم ما كان لازماً من معارف وعلوم ومسائل الاصول والفروع .

وقد أبدى الاحتمال في ربط بداية الآية بنهايتها . ففي بدايتها نفى عن النبي ﷺ أمّوته الجسمية لأُمته ، ولذا سيظهر هذا السؤال وهو : اذا كان بهذا الشكل فلماذا لا يحق لامته ان يتزوجون زوجات النبي ﷺ من بعده ؟ وفي الجواب على ذلك يقول (انه رسول الله ﷺ بالاضافة الى كونه خاتم انبيائه وافضلهم ، ولهذا السبب فان حفظ حرمة واجب وترك الزواج من ازواجه بعد وفاته هو جزء من هذه الحرمة) ^(٢) .

١ - تفسير القرطبي والميزان - ذيل الآية المذكورة .

٢ - تفسير القرطبي - ذيل الآية المذكورة .

مفهوم خاتم النبين

مع أن معنى (خاتم) واضح جداً - لأن مادة ختم في كافة معاجم اللغة العربية تعني انتهاء شيء - ولكن قسماً من وساوس المنحرفين تستوجب تقديم توضيحات أكثر بشأنها في (معجم مقاييس اللغة) يقول «ابن فارس» أحد علماء اللغة المعروفين في القرن الرابع الهجري: (ختم، لها معنى أصلياً واحداً لا أكثر وهو الوصول الى نهاية الشيء. وأن قولهم (ختم) عندما يضعون ختما (مهر) على شيء فهو من هذا الباب، لانهم دائماً بعد انتهاء شيء ما يضعون ختماً أو مهراً عليه).

ويقول (الخليل بن احمد) وهو من أقدم المؤلفين والمحققين في لغة العرب والذي عاش في القرن الثاني للهجرة في زمن الائمة المعصومين عليهم السلام عن معنى خاتم وخاتم (خاتم كل شيء هو نهايته وآخرته. وخاتم تعني الختم «مهر» الذي يضعونه على الطين)، وذلك عند اتمام الرسالة وطبها ومن أجل ان لا يفتحها الغرباء يلصقون قطعة لينة من الطين على محل ربطها ثم يختمون فوقها بحيث لا يبقى أي طريق لفتحها الا بكسر الختم.

وذهب سائر أصحاب اللغة ايضاً الى هذا المعنى نفسه، وفسروا (خاتم) بمعنى الشيء الذي يؤدي الى النهاية أو الختم الذي يضعونه في النهاية. وفي كتاب (التحقيق) الذي يعد تحقيقاً جامعاً في مصادر اللغة المهمة بعد ان ينقل اقوال كبار اللغويين العرب يقول: (المتحقق ان لهذه المادة جذراً واحداً وهو في مقابل «بدء». أي اكمال شيء وايصاله الى آخره ونهايته)^(١).

وكذلك المفسرين الاسلاميين من اقدميهم وحتى معاصريهم لم يخرجوا

جميعهم عن أن معنى (خاتم النبيين) في الآية المذكورة هو آخر الانبياء .
ويقول المفسر المعروف (محمد بن جرير الطبري) الذي عاش في القرن
الثالث في تفسيره الذي يعتبر من أقدم التفاسير في ذيل الآية آنفة الذكر:
(خاتم النبيين) الذي ختم النبوة فختم عليها فلا تفتح لاحد بعد الى قيام
الساعة^(١) .

ويقول المرحوم (الشيخ الطوسي) وهو من عظماء الفقه والتفسير وعاش
في القرن الخامس في كتابه المشهور (البيان) بعد ان يذكر (خاتم النبيين) : أي
آخرهم لانه لا نبي بعده الى يوم القيامة^(٢) .

وكذلك المفسر الكبير (الطبرسي) الذي عاش بعده بقرن واحد جاء بنفس
المعنى ايضاً وشرحه^(٣) .

(ابو الفتوح الرازي) الذي يعدّ من المفسرين رفيعي الشأن في القرن
السادس وكتب تفسيره باللغة الفارسية يقول في تعبير جذاب في ذيل كلمة
(خاتم النبيين) : (وأخر الانبياء حتى تظن انه ختم النبوة . ونبوته ختم باب بعث
الانبياء)^(٤) .

ويقول كذلك المفسر السني الشهير (الفخر الرازي) والذي يعدّ من مفسري
القرن السادس الهجري المعروفين بعد كلمة (خاتم النبيين) : (مفهومها أن لا
نبي بعده . وشريعته تامة بحيث لم يبق شيء لم يذكر)^(٥) .

وسار بقية المفسرين قرناً بعد قرن على نفس المعنى حتى وصل الى
المفسرين المعاصرين .

١ - تفسير الطبري: ج ٢٢، ص ١٢ .

٢ - تفسير البيان: ج ٨، ص ٣١٤ .

٣ - مجمع البيان: ج ٧ و ٨، ص ٣٦٢ .

٤ - تفسير الفخر الرازي: ج ٩، ص ١٦٢ .

٥ - تفسير الفخر الرازي: ج ٢٥، ص ٢١٤ .

والشيء الملفت للنظر هو ان مادة ختم ومشتقاتها - الآية المذكورة - استخدمت في القرآن الكريم في سبعة موارد جاءت كلها وبدون استثناء بمعنى الاتمام أو انتهاء الشيء أو الختم الذي يضربونه اسفل الرسائل ، وهذا بذاته يدل على ان الآية موضوع البحث ليس لها اي مفهوم سوى ان النبي ﷺ هو خاتم سلسلة الانبياء ، والختم الذي وضع على نهاية سجل الرسائل . وكذلك جاء في (نهج البلاغة) والروايات الاسلامية نفس المعنى بشكل عام ، وسوف يشار الى قسم منها في نهاية هذا البحث .



الاجابة على بعض الاسئلة

١ - يقال أحيانا بان (خاتم) تعني الزينة . وبناء عليه فان مفهوم الآية هو ان النبي ﷺ كان زينة لكل الانبياء وليس خاتمهم .

لكن يجب الالتفات بأن (خاتم) لم تأت أبدا بمعنى الزينة وانما بمعنى (الخاتم الذي له فُص ويوضع في الاصابع) وأن هذا التعبير غير لائق تماماً أن يقال بأن النبي ﷺ هو خاتم اصبع النبيين ، ثم اننا قلنا بأن المعنى الاصلي لـ(خاتم) لم يكن أبداً (خاتم الاصبع) وانما الختم الذي يختمون به عند الانتهاء من الرسائل او البرامج أو الكتب . وانطلاقاً من أن وضع الختم يكون في (الختام) والنهاية . فان اسم (خاتم) يطلق على الواسطة التي تختم بها الرسالة . (لاحظوا أن كلمة «خاتم» بفتح التاء معناها «ما يختم به» اي الشيء الذي يختمون به) .

وما يشير الاهتمام هو ان الختم الاصلي للاشخاص في عصر نزول القرآن والقرون التالية له كان على الخواتيم التي يحملونها على اصابعهم وبواسطته كانوا يختمون رسائلهم . ولهذا السبب جاء في سيرة النبي ﷺ (أن خاتم رسول

الله كان من فضة نقشه محمد رسول الله ﷺ^(١).

وجاء في بعض التواريخ ان من جملة وقائع السنة السادسة للهجرة أنهم (عرضوا على النبي ﷺ بأنك تراسل زعماء البلدان والملوك وأنهم لا يقرأون الرسائل التي لا ختم عليها. لهذا السبب اختار النبي ﷺ خاتماً لاصبعه حتى يختم به الرسائل)^(٢).

وجاء في كتاب (الطبقات الكبرى) ايضاً بأن النبي ﷺ عندما قرر أن ينشر دعوته ويكتب الملوك والسلاطين في العالم أمر فصنعوا له خاتماً كتب عليه (محمد رسول الله) وكان يختم به رسائله^(٣).

بهذا البيان يتضح بأن كلمة (خاتم) وان كانت تطلق على خواتيم الزينة ايضاً ولكن في زمان نزول القرآن وما بعده كان يطلق على الخواتيم التي يختمون بها رسائلهم أو يختمون بها على محل ربط الرسائل بعد طيها واغلاقها.

والنقطة الملفتة للنظر بأن نفس المعنى استخدم في آيات متعددة من القرآن الكريم. فيقول حول مجموعة من الكفار ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ البقرة - ٧. ويقول عن يوم القيامة: ﴿اليوم نختم على افواههم﴾ يس - ٦٥. وعلى كل حال فان اقل اطلاع على معاني هذه المفردة في الادب العربي وجذورها الاصلية وموارد استعمالها يثبت بوضوح ان كلمة (خاتم النبيين) ليس لها أي معنى سوى معنى متمم عدة الانبياء وخاتمهم.



١ - سنن البيهقي: ج ١٠، ص ١٢٨. وفروع الكافي: ج ٦، ص ٤٧٣ - باب نقش الخواتيم، الحديث الاول

(كان نقش خاتم النبي «محمد رسول الله ﷺ»).

٢ - سفينة البحار: ج ١، ص ٣٧٦.

٣ - الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٥٨.

السؤال الثاني :

الابراد الواهي الآخر طرح من قبل بعض الاشخاص غير المطلعين وهو ان القرآن الكريم يقول : أن النبي ﷺ (خاتم النبيين) ولم يقل (خاتم الرسل) ومن الممكن ان سلسلة الانبياء تنتهي بظهوره ولكن سلسلة الرسل ، نهاية لها .

الجواب :

صحيح أن (النبي) معناه كل نبي يوحى اليه من قبل الله تعالى سواء كان مكلفاً بالتبليغ أو لا ، عنده كتاب سماوي أم لا . ولكن (الرسول) هو نبي مكلف بالبلاغ . ويتعبير اخر ان كل نبي رسول ولكن ليس كل رسول نبي .
بهذا البيان تكون الاجابة على السؤال المذكور واضحة تماماً . فعندما يكون شخص ما خاتماً للانبياء فبطريق أولى يكون خاتم للرسل ايضاً . لانه كما قلنا قبل قليل بأن كل رسول هو نبي - لان مرحلة الرسالة اشمل من النبوة ..
وهذا الكلام يشبه بالضبط ان نقول ان فلانا خرج من منطقة الحجاز فبالأكيد ان ذلك الشخص خرج من مكة ايضاً . اما اذا نقول ان فلانا ليس في مكة . فمن الممكن ان يكون في نقطة اخرى من الحجاز .
وبناء على هذا اذا كان النبي ﷺ خاتم المرسلين كان ممكناً ان لا يكون خاتماً للانبياء . ولكن حينما نقول الآية أنه خاتم النبيين فمن المسلم به أن يكون خاتماً للمرسلين كذلك .



في قسم آخر من الآيات المذكورة اعلاه هناك تعبيرات يعتبرها الكثير من

العلماء دليل ساطع على مسألة الخاتمية . واذا افترضنا عدم قبول دلالتها الصريحة . فلا أقل من أن تكون قرائن وشواهد على هذه المسألة :

١ - نقرأ في أول آية من هذا القسم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَأَنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ .

و(الباطل) في هذه الآية معناه الشيء الذي يبطل أو ينسخ وعليه فإن مثل هذا الكتاب سيكون خالداً وأبدياً . وهذا بنفسه دليل على خاتمية الدين الذي يعود له هذا الكتاب . كما هو دليل على عدم تحريف القرآن ايضاً . وقد يقال بأن (الباطل) في اللغة لا يعني (المبطل) اذن كيف فسرتم الآية بهذا الشكل ؟

فنقول : علاوة على ان الكثير من المفسرين ذكروا بأن أحد معاني الباطل هنا هو المبطل^(١) فاصولاً عندما يقول (لا يأتیه الباطل) فإن مفهومها ان الباطل لا يمكنه أن يعيقه أو يعطله خصوصاً وانه قال قبلها : (وانه لكتاب عزيز) التي تدل على بقاءه وثباته .



وفي الآية التالية يقول : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ .

ولفظه (عالمين) التي تشمل كل سكان العالم بالرغم من عدم تقييدها بأي قيد فهي تعم ابناء كل الاعصار حتى نهاية الدنيا .

وهي ليست غير محدودة من ناحية المكان فحسب . بل وحتى من ناحية

١ - مثل المرحوم الشيخ الطوسي في (البيان) والطبرسي في (مجمع البيان) والعلامة الطباطبائي في (الميزان) والآلوسي في (روح المعاني) وكذلك بعض المفسرين الآخرين (ذيل الآية مورد البحث) .

الزمان ايضاً ، وتشمل حتى الآتين ، ولهذا السبب اعتبرها الكثير من المفسرين دليلاً على عالمية الدين الاسلامي اولاً وعلى خلوده ثانياً^(١).

والنقطة الملفتة للنظر ايضاً ان كلمة (عالمين) اخذت من مادة (علم) التي تشمل كل الموجودات التي يحتويها علم الانسان وحتى السماوات والارض . ولكن بمراعاة كلمة الانذار التي وردت في الآية فان مفهومها يكون هنا محصوراً بالمكلفين في العالم .

على أية حال ، يكون الاستدلال على الآية الثالثة بنفس الطريقة ايضاً ، لان الرسول ﷺ يقول وفق هذه الآية : «وَأَوْحِي إِلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ» .

فسعة مفهوم (ومن بلغ) غير خافٍ على احد ويكون شاملاً لكل بني الانسان الى نهاية العالم ، وهو دليل على عالمية الاسلام وديمومته وخلوده . ويصرح (الطبرسي) رحمه الله في مجمع البيان - ذيل الآية المذكورة - بأن (من بلغه القرآن الى يوم القيامة) مشمولون بهذه الآية^(٢).

وكذلك الكثير من المفسرين القدماء والمحدثين بينوا صراحة في ذيل هذه الآية بأنها دلالة على مسألة (الخاتمية) ومن جملة هؤلاء (ابو الفتوح الرازي) من علماء القرن الثالث للهجرة وصاحب تفسير (روح البيان) والعلامة الطباطبائي في (الميزان) وغيرهم .



ودلالة الآيات (٤ و ٥ و ٦ و ٧) مورد البحث تكون ايضاً بنفس الطريق لان تعبير (كافة للناس) الذي جاء في الآية الرابعة يشمل عموم الناس . وفي الآية

١ - تفسير الفخر الرازي: ج ٢٤ ، ص ٤٥ ، وتفسير القرطبي: ج ٧ ، ص ٤٧١٨ ، وروح البيان: ج ٦ ، ص ١٨٨ .

٢ - مجمع البيان: ج ٣ و ٤ ، ص ٢٨٢ .

الخامسة «اني رسول الله اليكم» والآية السادسة ايضا استندت الى العالمين الذي هو مفهوم واسع من جهة الزمان والمكان.

ومجموع هذه الآيات يمكن ان يكون تأييداً وتأكيذاً اخر على مسألة (خاتمية نبي الاسلام ﷺ) و(خلود القرآن).

وذكر بعض من الكتاب والمؤلفين آيات اخرى بهذا الصدد صرفنا النظر عن ذكرها لان دلالتها غير كافية كما يبدو للنظر.



الخاتمية في الروايات الاسلامية

كما اشير من قبل بأن الاعتقاد بخلود الاسلام وديمومته موضع اتفاق كل العلماء والمفكرين المسلمين ، بل ويعتبر من ضروريات هذا الدين ومصدر هذه العقيدة - اضافة الى الآيات القرآنية - روايات لاتحصى وصلتنا عن النبي ﷺ وبقية الائمة المعصومين  بما يشكل مجموعها كتاباً لوحده . ونحن سنشير الى قسماً منها في هذا الملخص كنموذج .

١ - الروايات العديدة حول ختم سلسلة الانبياء والتي جاءت على لسان النبي ﷺ وهذه الروايات بذاتها تشكل باباً واسعاً جداً . ومن جملة الاحاديث في هذا الباب الروايات التالية :

أ - في الحديث المشهور الذي نقلته الكثير من مصادر الحديث والتفسير عن النبي ﷺ والذي يقول فيه :

(مثلي ومثل الانبياء كمثلي رجل بنى داراً فأتمها وأكملها الا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : لولا موضع اللبنة . قال رسول الله ﷺ فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الانبياء)^(١).

ونقل نفس الحديث بطريق آخر جاء في آخره (فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)^(١).

ونفس المعنى نقل بطرق متعددة^(٢).

وفي تفسير (مجمع البيان) جاء هذا الحديث بهذه الصورة: يقول: نقل في حديث صحيح عن جابر بن عبد الله الانصاري عن النبي ﷺ أنه قال: (انما مثلي في الانبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وحسنها الا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر اليها قال: ما أحسنها الا موضع هذه اللبنة، قال ﷺ: فانا موضع اللبنة ختم بي الانبياء) ثم يقول: هذا الحديث نقل في (صحيح البخاري) و (صحيح مسلم)^(٣).

وجاء ايضاً في مسند (احمد بن حنبل) و(الترمذي) و(النسائي) وكثير من كتب الحديث والتفاسير الأخرى. وهو من الاحاديث المعروفة جداً والمشهورة.

والعلامة الطباطبائي بعد ان يذكر هذا الحديث يقول: نفس هذا المعنى نقله ايضاً غير البخاري ومسلم مثل: الترمذي والنسائي واحمد وابن مردويه عن غير جابر^(٤).

ب - وجاء في (نهج البلاغة) ايضاً التصريح بمسألة خاتمية نبي الاسلام ﷺ في خطب متعددة. ونقرأ في الخطبة ١٧٣: (أمين وحيه وخاتم رسله).

وفي الخطبة ١٣٣: (ختم به الوحي).

وفي الخطبة ٧٢ بعد أن يصلي على ﷺ ويسلم على النبي ﷺ يصفه هكذا: (الخاتم لما سبق والفتاح لما انغلق).

٢- نفس المصدر السابق.

٣- مجمع البيان: ج ٧ و ٨، ص ٣٦٢.

٤- الميزان: ج ١٦، ص ٣٢٧. ذيل الآية مورد البحث.

وفي الخطبة ٨٧ يخاطب الناس قائلاً: (أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين...) ويقول في الخطبة الاولى من نهج البلاغة: (بعث الله سبحانه محمداً ﷺ لانجاز عده واتيام نبوته).

والمثير للاهتمام انه عند التدقيق الواسع الذي جرى على (١١٠) اجزاء من كتاب (بحار الانوار) بواسطة اجهزة الكمبيوتر تبين ان كلمة (خاتم النبيين) أو (خاتم الرسل) و(خاتم الانبياء) وردت في اكثر من (٣٠٠) موضع من الكتاب (من الجزء الثاني وحتى الجزء ١١٠) والقسم الاعظم منها في روايات الائمة المعصومين ﷺ والقليل منها في تفاسير العلامة المجلسي وامثاله. وتبين بوضوح ما تحظى به مسألة ختم النبوة بنبي الاسلام ﷺ في اوساط المسلمين في كل عصر وزمان من شهرة وشيوع واسعين^(١).

وجاء في كتب اهل السنة كرارا لفظ (خاتم النبيين) و(خاتم الانبياء)^(٢).

ج - حديث (المنزلة) المعروف - الذي ورد في الكثير من كتب الشيعة وأهل السنة المعروفة بخصوص علي ﷺ ويعتبر من اشهر الاحاديث النبوية المتواترة - ليس دليلاً واضحاً على هذه المعنى. لان النبي ﷺ كان يريد التوجه مع جيشه الى (معركة تبوك) فخلف مكانه في المدينة علياً ﷺ وقال له: (انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي)^(٣).

والنقطة المثيرة للاهتمام ايضا هي ان هذه الجملة لم يقلها النبي ﷺ في واقعة (معركة تبوك) فقط. بل وصرح بها في مواضع اخرى ايضاً، وعلى الاقل

١ - نتقدم بالشكر الى المركز الكومبيوترى للحوزة العلمية في قم الذي قدم هذه الموارد التي جاءت في ٢٣ صفحة من الحجم الكبير الى مركز تفسير رسالة القرآن.

٢ - يراجع (المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي) مادة - (ختم).

٣ - الملفت ان هذا الحديث نقل عن ١٧٠ طريق - مائة منها عن طرق اهل السنة وسبعون طريقاً من طرق أهل البيت ﷺ - ومن جملة الكتب التي نقل فيها هذا الحديث: صحيح مسلم. صحيح البخاري. سنن ابن ماجه. مستدرک الحاكم. مسند احمد بن حنبل. ذخائر العقبى. الصواعق المحرقة. كنز العمال. ينابيع المودة وغيرها. (للاستيضاح اكثر ارجعوا الى «المراجعات» المراجعة ٢٨).

أنها سمعت منه ﷺ ستة مرات في غير (غزوة تبوك):

اولاً: في يوم (المؤاخاة الاولى).

ثانياً: في يوم (المؤاخاة الثانية).

ثالثاً: اثناء تعزية النبي ﷺ ل(ام سليم) عندما استشهد ابوها واخيها.

رابعاً: في الحديث الذي ينقله (ابن عباس) عن (عمر) بهذا الخصوص.

خامساً: في الحديث الذي جرى اثناء المنازعة على كفالة بنت (حمزة

سيد الشهداء).

سادساً: في الحديث الذي ورد عن سد الابواب التي على المسجد الا

باب بيت علي عليه السلام وبيت النبي ﷺ^(١).

وهذا الحديث يثبت بوضوح ان مامن نبي سيأتي بعد نبي الاسلام ﷺ

وأن هذه المسألة اعتبرت جزءاً من الواضحات منذ نفس عصر ظهور النبي

الاسلام ﷺ.

د- ورد في احاديث متعددة بأن الاحكام الاسلامية باقية وقائمة الى نهاية

العالم. وهذا الامر لا يستقيم الا ب(خاتمية نبي الاسلام ﷺ لان مجيء نبي

جديد اخر سينسخ قسماً من احكام النبي الذي سبقه على الاقل.

ومن جملتها نقرأ في اصول الكافي: (حلال محمد حلالاً ابداً الى يوم

القيامة وحراماً ابداً الى يوم القيامة. لا يكون غيره ولا يجيء غيره)^(٢).

وجاء نفس المعنى في مكان آخر اذ يقول الامام الصادق عليه السلام بعد ان ذكر

الانبياء: (حتى جاء محمد ﷺ فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه، فحلاله حلال

الى يوم القيامة وحراماً الى يوم القيامة)^(٣).

١ - للاستيضاح اكثر ارجعوا الى (تفسير نمونه «فارسي» ج ٦، ص ٣٤٧ (ذيل الآية ٤٢ من سورة الاعراف) والمراجعات (المراجعة ٣٢).

٢ - اصول الكافي: ج ١، ص ٥٨، الحديث ١٩.

٣ - اصول الكافي: ج ٢، ص ١٧، الحديث ٢.

ثم انه يتضح من هذا الخبر المشهور انه ليس النبي ﷺ (خاتم الانبياء) حسب . بل وان دينه ومجموع تعاليمه واحكامه خالدة وابدية ولا تتعرض لاي تغيير . وأن أولئك الذين يتصورون - بقبولهم مسألة الخاتمية - انهم يستطيعون بأفكارهم ايجاد تغييرات في تعاليم الاسلام واحكامه مخطئون جداً . لان الاحاديث انفة الذكر تقول ان خلود نبوته توأماً لخلود تعاليمه واحكامه .

ونقل (العلامة المجلسي) رحمه الله هذا الحديث ايضا في الكثير من مجلدات بحار الانوار^(١) .

هـ - في آخر خطبة (حجة الوداع) الشهيرة وهي نفس الخطبة التي بينها النبي ﷺ للناس بعنوان وصيته الجامعة في آخر حجة وآخر سنة من عمره الشريف جاءت مسألة (الخاتمية) صريحة .

اذ يقول : (الا فليبلغ شاهدكم غائبكم لاني بعدي ولا امة بعدكم) ثم رفع يده المباركتان الى السماء - بعد ان انتهى من تبين كل وصاياه - حتى بان بياض ابطيه وقال : (اللهم اشهد اني قد بلغت)^(٢) .

و - وجاء في حديث معروف اخر عن النبي ﷺ أنه قال : (انّ الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي)^(٣) .

وهذا الحديث بالخصوص ملفت للنظر من جهة انه اغلق الطريق امام مختلفي الذرائع الذين يقولون بأنه (خاتم الانبياء) وليس (خاتم الرسل) .

ز - ننهي هذه الروايات بحديث آخر عن رسول الله ﷺ فقد جاء في كتاب (اسد الغابة) أن (العباس بن عبد المطلب) عم النبي كان يطلب منه ﷺ أن يأذن له بالهجرة من مكة الى المدينة حتى يلحق به (حسب بعض الروايات أن العباس كان من المؤمنين الذين يكتمون ايمانهم وبقي في مكة باذن من

١ - بحار الانوار: ج ٢، ص ٢٦٠، حديث ١٧.

٢ - بحار الانوار: ج ٢١، ص ٣٨١ (نقلًا عن الخصال ج ٢، ص ٨٤).

٣ - سنن الترمذي: ج ٣، ص ٣٦٤.

النبي ﷺ يكتب له اخبار المشركين ويتكل عليه المسلمون ، وعندما ارتفع شأن الاسلام طلب العباس من النبي ﷺ أن يأذن له بالهجرة ولكن النبي ﷺ قال له : (لا تعجل بهذا الامر). ومتن الرواية بهذا الشكل :

(يا عمّ أقم مكانك الذي انت به فانّ الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوة).

ثم جاء الى النبي ﷺ في المدينة قبل (فتح مكة) وهاجر ورافقه في فتح مكة . وافتتح مكة انتهت الهجرة - لان هذه المدينة اصبحت بعد فتح مكة دار اسلام وليس دار كفر يهاجر منها الى المدينة^(١) .

وبناءً على ذلك كان (العباس) هو آخر من هاجر من مكة الى المدينة اذ بعده فتحت مكة وانتهت الهجرة . وكتب البعض ان (العباس) الذي كان في طريق هجرته الى المدينة مع زوجته وابناءه التقى بالنبي ﷺ في أحد المنازل وسط الطريق عندما كان ﷺ في طريقه ل(فتح مكة) فانضم اليه وقال له ﷺ : (ان هجرتك آخر الهجرات كما أنّ نبوتي اخر النبوات)^(٢) .

يصل مجموع الاحاديث التي ذكرت تحت هذه العناوين السبعة التي ذكرنا الآف الاحاديث التي تدل بوضوح كلها على أن مسألة خاتمية نبي الاسلام ﷺ كانت منذ البداية من المسائل الواضحة والبديهية .

والنقطة الملفتة للنظر ايضاً ان كل واحد من الائمة المعصومين الاربعة عشرة عليه السلام وصلنا عنه حديث أو احاديث عن (الخاتمية)^(٣) .
وبالعوض من الكتاب قسموا هذه الاحاديث الى عشرون قسماً^(٤) .



١- أسد الغابة : ج ٣ ، ص ١١٠ .

٢- البحار : ج ٢١ .

٣- للاطلاع اكثر راجعوا كتاب الخاتمية من وجهة نظر القرآن والحديث والعقل .

٤- للاطلاع اكثر راجعوا كتاب خاتمية آخر الانبياء ﷺ من صفحة ٣٩ الى صفحة ٤١ .

عدة اسئلة حول الخاتمية

١ - هل ان السير التكاملي للانسان يتلائم مع مسألة الخاتمية ؟

اول سؤال يمكن ان يطرح في هذا البحث هو: أو يمكن للمجتمع الانساني أن يتوقف ؟ أو هل لا (السير التكاملي للبشر) حداً وحدوداً ؟ أو لا نرى بأعيننا بأن الناس هم اليوم في مرحلة أعلى من العلم والمعرفة والثقافة نسبة الى السابق ؟ اذن بهذه الحالة كيف تختم النبوات بالكلية ويحرم الانسان في سيره التكاملي هذا من الانبياء الجدد ؟

الجواب :

الاجابة على هذا السؤال تتضح بالالتفات الى نقطة واحدة وهي ان الانسان احياناً يصل الى مرحلة من النبوغ الفكري والثقافي تمكنه من مواصلة سيره بالاستفادة المستمرة من الاصول والتعاليم التي وضعها بأختياره النبي الخاتم بشكل جامع بدون ان يحتاج الى شريعة جديدة .

وهذا بالضبط ما يشبه انسانا يحتاج في كل مرحلة من المراحل الدراسية المختلفة الى معلم ومرب جديد حتى ينهي المراحل الاخرى أما عندما يصل الى مرحلة (الدكتوراه) أو (الاجتهاد) ويصبح صاحب رأي في علم أو علوم متعددة . ينقطع عن اقامة تحصيلاته عند استاذ جديد . ويكتفي بالاعتماد على ماتعلمه من اساتذته القدامى وخصوصاً الاستاذ الاخير وينشغل بالبحث والتحقيق والمطالعة والتدقيق ويواصل مسيره التكاملي .

ويتعبير اخر صار يضع الحلول للمشاكل التي تعترض طريقه اعتماداً على تلك الاصول الكلية وما حصل عليه من آخر اساتذته . وبناء على ذلك فلا حاجة لان يظهر دائماً الى الوجود دين وتعاليم جديدة بمرور الزمان (تأملوا) .

أو بعبارة أخرى: ان الانبياء السابقين - ومن اجل أن يتمكن الانسان من متابعة سيره نحو التكامل على هذا المسير المليء بالمنعطفات والصعود والانحدار - وضعوا - كل واحد منهم على حدة - تحت تصرفه جزءاً من خارطة هذا المسير حتى اصبح مؤهلاً لان يتلقى خارطة المسير كلية وجامعة بتمامه والتي وضعها الله تعالى من خلال آخر الانبياء عليه السلام.

ومن البديهي اذا تلقى الخارطة الكلية والجامعة فسوف لن يحتاج الى خارطة اخرى. وهذا في الحقيقة بيان لنفس التعبير الذي ورد في أحاديث (الخاتمية) واعتبرت فيه نبي الاسلام ﷺ هو آخر لبنة أو واضع آخر لبنة في بناء ذلك القصر الجميل والمتين للرسالة.

هذه كلها بالنسبة الى عدم الحاجة الى دين أو تعاليم جديدة. أما مسألة القيادة والامامة التي هي نفس الاشراف الكلي على تطبيق هذه الاصول والقوانين وأعانة المتخلفين عن المسيرة فهي مسألة اخرى لا يستغني عنها الانسان في اي وقت من الاوقات. ولهذا السبب فان اتمام سلسلة النبوة لا تعني مطلقاً اتمام سلسلة الامامة، لان تبين وتوضيح تلك الاصول والتحقق الخارجي لها غير ممكنة بدون الاستفادة من وجود قائد الهى معصوم.



٢- هل ان القوانين الثابتة تتماشى مع احتياجات الانسان المتغيرة؟

فيما عدا مسألة السير التكاملي للبشر التي طرحت في السؤال الاول هناك سؤال آخر وهو أننا نعلم ان مقتضيات الازمنة والامكنة متفاوتة. أو بتعبير آخر ان الانسان دائماً في حالة تغيير، في حين ان شريعة خاتم الانبياء لها قوانين ثابتة، فهل باستطاعة هذه (القوانين الثابتة) تلبية احتياجات (الانسان المتغيرة) على طول الزمن...؟

يمكن الاجابة على هذا السؤال ايضاً بالالتفات الى النقطة التالية :

اذا كان لكل القوانين الاسلامية صفة (الجزئية) وتعين لكل موضوع حكماً محدداً وجزئياً فإن هذا السؤال يكون في محله ، أما اذا عرفنا بأن في التعاليم الاسلامية توجد سلسلة من (الاصول الكلية) الواسعة جداً والتي بإمكانها مسابرة الاحتياجات المتغيرة وتلبيتها فلا يبقى أي مجال لمثل هذا اليراد .

مثلاً: بمرور الزمان تظهر سلسلة من المعاهدات والعقود والاتفاقيات الجديدة والعلاقات الحقوقية بين الناس لم تكن موجودة في عصر نزول القرآن أبداً ، كما هو الحال في ما يسمى اليوم بـ (التأمين) ففي ذلك الزمان لا يوجد بتاتاً شيء باسم (التأمين) وفروعه المتعددة^(١) ، أو انواع الشركات في عصرنا وزماننا هذا والتي تظهر للوجود حسب مقتضيات الحاضر ، ولكن مع هذا فان لدينا في الاسلام أصلاً كلياً جاء في بداية سورة المائدة عنوانه (وجوب الوفاء بالعهد والعقد) يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ . وكل تلك المعاهدات والعقود يمكن وضعها تحت غطاء ذلك الاصل .

وطبعاً جاءت قيود وشروط بصورة كلية ايضاً على هذا الاصل الكلي في الاسلام يجب مراعاتها .

وبناءً على هذا فان (القانون الكلي) ثابت وان كانت مصاديقه في حالة تغيير ، وكل يوم يمكن ان يظهر مصداق جديد .

والمثال الآخر: ان لدينا في الاسلام قانوناً بديهيّاً باسم (قانون لا ضرر) الذي يمكن بواسطته الحد من كل حكم يشكل ضرراً على المجتمع الاسلامي ، وعن طريق هذا القانون تسد الكثير من احتياجاته .

وبغض النظر عن هذا فإن مسألة (لزوم حفظ نظام المجتمع) و(وجوب

١ - طبعاً توجد في الاسلام موضوعات شبيهة بالتأمين وفي حدود خاصة مثل مسألة (ضمان الجريمة) ولكن كما قلنا أنها شبيهة بهذه القضية فقط .

تقديم الواجب) ومسألة (تقديم الالم على المهم) يمكنها في مجالات واسعة جداً ان تكون حلالة للمشاكل .

علاوة على كل هذه فان الصلاحيات الممنوحة للحكومة الاسلامية عن طريق (ولاية الفقيه) تعطىها امكانيات واسعة لحل المشكلات في اطار الاصول الكلية للاسلام .

وطبعاً ان بيان كل واحد من هذه الامور بالخصوص عند الالتفات الى فتح باب الاجتهاد (الاجتهاد معناه استنباط الاحكام الالهية من المراجع الاسلامية) يحتاج الى تحقيق كثير يبعدنا القيام به عن هدفنا ، ولكن مع هذا فان ماوردناه هنا اشارة يمكنه ان يشكل اجابة على الاشكال آنف الذكر .



٣- هل يجب حرمان الانسان من فيض الارتباط بعالم الغيب ؟

السؤال الاخر هو ان (نزول الوحي) والارتباط مع عالم الغيب وما وراء الطبيعة اضافة الى انه هبة ومبعث افتخار لعالم البشرية ، يعد نافذة أمل لكل المؤمنين الصادقين ، اذ لا يعتبر قطع طريق الارتباط هذا وغلق نافذة الامل هذه حرماناً عظيماً للانسان الذي عاش بعد وفاة النبي الخاتم ؟

والجواب على هذا السؤال يتضح ايضا بالالتفات الى مايلي :

اولاً: ان الوحي والارتباط مع عالم الغيب هو وسيلة لادراك الحقائق ، وعندما يقال كل مايراد قوله وتبين كل الاحتياجات الى يوم القيامة في الاصول الكلية والتعليمات الجامعة للنبي الخاتم ، فان قطع هذا الارتباط لا يسبب اي مشكلة .

ثانياً: ان الذي قُطع للابد بعد ختم النبوة هو (الوحي لشريعة جديدة أو

لتكميل شريعة سابقة)، وليس كل نوع من الارتباط بما وراء عالم الطبيعة، لان الائمة لهم ارتباط بعالم الغيب وكذلك المؤمنين الصادقين الذين ينالون مقام (الكشف) و(الشهود) على اثر ازاحتهم للحجب عن قلوبهم بعد تهذيب نفوسهم.

يقول الفيلسوف المعروف (صدر المتألهين الشيرازي) في كتاب (مفاتيح الغيب): «(الوحي) يعني نزول الملك بقصد مهمة النبوة حتى وان كانت منقطعة لانه بحكم «أكملت لكم دينكم» كان مايجب ان يصل الى نوع البشر عن هذا الطريق قد وصل، أما باب الالهام والاشراق فلم يغلق ولن يغلق ابداً ولا يمكن ان يغلق هذا الطريق»^(١).

واصولاً ان هذا الارتباط نتيجة لارتقاء النفس وتنقية الروح وصفاء الباطن ولا علاقة له بمسألة الرسالة والنبوة.

وبناء على هذا ففي أي زمان تحصل مقدماته وشروطه سيتم هذه الرابطة المعنوية ولم يحرم نوع البشر ابداً من هذا الفيض الالهي العظيم ولن يحرم.



٤- هل تتلائم هذه الآيات مع مسألة الخاتمية؟

إن مجموعة من مبتدعي الاديان في عصرنا من أجل ان يعبدوا الطريق امام مدعياتهم حول النبوة، لم يجدوا أي حل امامهم سوى التوجه لمسألة (الخاتمية) التي هي من بديهيات وضروريات المسلمين ووضعها تحت المساءلة. وكما هو اسلوب اصحاب القلوب المريضة اتجهوا الى بعض الآيات القرآنية التي وجدوها قابلة للتحريف والتطبيق على مقاصدهم وتشبثوا بها لنفي

(الخاتمية) ، وكان البعض منها غريباً عن مسألة الخاتمية الى حد لا تستحق حتى طرحها ، ونذكر هنا قسمين فقط من تلك التي يمكن طرحها الى حد ما والتي استندوا اليها اكثر:

١ - يقولون : ان الآية ٣٥ من سورة الاعراف لاتنفي امكانية ظهور انبياء آخرين . لانها تقول : ﴿يَا بَنِي آدَمَ اِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اِتَّقَىٰ وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

انهم يقولون : بالالتفات الى أن جملتي (يأتينكم) و(يقصون عليكم) هما فعلان مضارعان ، اذن فان الآية تدلل على امكانية بعث انبياء آخرين في المستقبل ، وفي هذه الحالة يكون اتباعهم واجباً .

أما اذا التفتنا الى نقطة واحدة سيكون الجواب على هذا الكلام واضحاً ، وهي : اذا عدنا الى ما قبل هذه الآيات ودققنا فيها من ١١ الى ٣٤ من تلك السورة سنرى ان كل هذه المباحث هي حول (خلق آدم) من تراب ثم اصدار الاوامر للملائكة بالسجود لآدم ، ثم اسكانه في الجنة وطرده وزوجته منها لتركهم الاولى ، ثم هبوطهم على الارض واوامر الله لعموم بني آدم ﷺ .

وبعبارة اخرى ان المخاطب في هذه الآيات ليس المسلمين فحسب . بل كافة شرائع المجتمع الانساني وكل ابناء آدم ولا شك فقد جاء لبني آدم انبياء ورسل كثيرون ذكرت اسماء بعضهم في القرآن الكريم وسجلت كتب التواريخ اسماء البعض الآخر .

ولكن هؤلاء الذين ارادوا الانتفاع من هذه الآية انكروا الخاتمية من أجل مقاصدهم ومهدوا السبيل امام مدعي النبوة الكاذبين . وقطعوا تماماً ارتباط الآية بماضيها وصوروها على أنها خطاب للمسلمين وخرجوا بنتيجة تقول أن على المسلمين ان ينتظروا ظهور نبي جديد .

والملفت للانتباه هو ان خطاب (يابني ادم) تكرر عدة مرات قبل هذه الآية في نفس سلسلة الآيات ، في الآيات ٢٦ و ٢٧ و ٣١ فالآية ٢٦ تأتي مباشرة بعد قصة هبوط آدم على الارض والآية ٢٧ تأتي بعدها ثم جاءت الآية ٣١ وفي المرحلة الرابعة تأتي الآية مورد البحث .

والمثير ايضاً ان خطاب (يابني ادم) غير موجود في اي خطاب من القرآن الا في هذه الآيات الاربعة ، ويكون الخطاب للمسلمين عادة بـ(ياأيها الذين آمنوا) الذي جاء على نفس الصورة في اكثر من ثمانين موضعاً من القرآن ، واحياناً جاء خطاب اكثر عمومية هو: (ياأيها الناس).

والشاهد الآخر على هذا المدعى هو الآية ٣٨ من سورة البقرة اذ نقرأ فيها نفس المضمون بعد مسألة هبوط آدم ﷺ على الارض . تقول : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

ومعنى اتيان (الهدى) هنا هو نفس معنى (اتيان الرسل) .

وجاء المضمون نفسه في الآية ١٢٣ من سورة طه ، وما يلفت النظر بالخصوص فيها هو ان المخاطب في البداية (آدم) و(حواء) جملة (اهبطا) بصورة التثنية - ولكن في جملة (اما يأتينكم مني هدى) فالمخاطب جمع يشمل بني آدم بلا شك ، لان الشيطان لاحظ له من الهداية الالهية مطلقاً وبناءً عليه لا يمكن ان يكون ضمن المخاطبين في هذا الجمع .

لانه بعد الخطاب : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (سورة ص - ٧٨) الذي صدر عقب لجأته الشديدة لم يتبق له اي امل بالهداية ، ومعلوم ان آدم وحواء شخصين ، اذن فالمخاطب هما وبنيهما .



وهنا نصل الى ختام الجزء الثامن من (رسالة القرآن) - مجموعة بحوث
النبوة الخاصة - والحمد لله رب العالمين .

الهي : نور قلوبنا دائماً بنور القرآن وسنة النبي ﷺ وابناءه المعصومين .
الهي : مَنْ علينا بتوفيق اصلاح انفسنا في ظل هذه التعليمات المنجية .
رينا : أزح من دربنا العراقيل واهدنا الى ما يوجب رضاك .



الفهرس

الفهرس

المقدمة ٣



رسول الاسلام في القرآن ٧

الرسول وظهور الاسلام وسرعة انتشاره ٧

الضغط على المسلمين الجدد ١٠

التهمة والاستهزاء ١٠

الهجرة الى الحبشة ١١

الحصار الاقتصادي ١٣

بداية جديدة في ابلاغ الرسالة ١٥

الرسول يلتقي أهل المدينة ١٥

بيعة العقبة الاولى ١٦

بيعة العقبة الثانية ١٧

الهجرة انعطاف جديد في تاريخ الاسلام ١٩

٣٨٦.....نفحات القرآن / ج ٨

٢١.....صلح الحديبية فتح كبير وتقدم للاسلام

٢٣.....رساله ﷺ الى ملوك العالم

* * *

٣١.....نبي الاسلام في القرآن

٣٣.....تمهيد

٣٤.....محيط دعوة الرسول ﷺ

٣٥.....١- الاصنام في عقائد العرب

٣٧.....٢- تفشي حالة الفقر الشديد بين الناس

٤٠.....٤- الخرافات الاخرى لعرب الجاهلية

٤١.....٥- شيوع الفساد الاخلاقي

٤٣.....طفولة الرسول الاكرم ﷺ

٤٨.....بداية دروة البعثة النبوية

٤٨.....قصة يوم الدار

٥٤.....الاشهر الاخيرة من حياة الرسول ﷺ

* * *

٥٧.....الادلة التي تثبت صدق ادعاء رسول الاسلام

٥٩.....تمهيد

٦١.....جمع الآيات وتفسيرها

٦٩.....أ- تاثير القرآن وجاذبيته المنقطعة النظير

٦٩.....١- قصة الوليد بن المغيرة المخزومي

٧٠.....٢- استماع زعماء قريش الى القرآن

٣- قصة ابن ابي العوجاء واصدقائه ٧١

٤- قصة عثمان بن مظعون ٧٤

٥- قصة اسعد بن زرارة ٧٤

٦- القصة المثيرة للاصمعي ٧٥

٧- رد فعل اعرابي تجاه آية من القرآن ٧٦

٨- القصة المثيرة للسيد قطب ٧٦

٩- قصة النجاشي وعلماء الحبشة المسيحيين ٧٨

١٠- نفوذ القرآن في اوساط العلماء الاجانب ٨٠

* * *

٢- ب الذين لجؤوا الى المعارضة ٨٢

* * *

صور اعجاز القرآن ٩١

١- الاعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة ٩٤

مقتطفات من الامثلة الاعجازية للقرآن ١٠٦

* * *

٢- الاعجاز القرآني على صعيد المعارف الالهية ١١١

* * *

٣- اعجاز القرآن على صعيد العلوم الحديثة والاكتشافات العلمية ١٢١

١- القرآن وجاذبيته العامة ١٢٦

٢- القرآن وخلق العالم ١٢٨

٣- القرآن وحركة الارض ١٣١

- ٤- القرآن وحركة المنظومة الشمسية ١٣٤
- ٥- القرآن واتساع العالم ١٣٧
- ٦- القرآن ووجود الحياة في الكرات الاخرى ١٣٩
- ٧- القرآن وخلق الجبال ١٤٠
- ٨- عنصر الزوجية بين النباتات في القرآن ١٤٥
- ٩- القرآن والزوجية العامة ١٤٨
- ١٠- القرآن يكشف الستار عن مسألة مراحل تطور الجنين ... ١٤٩
- ١١- القرآن يتحدث عن الاثار المهمة للغلاف الجوي للارض. ١٥٤
- ١٢- القرآن والغلاف الجوي للارض ايضاً ١٥٧
- ١٣- القرآن واسباب نزول المطر والبرد ١٥٩
- ١٤- القرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر ١٦٢
- ١٥- القرآن واسلوب تحديده لهوية الانسان ١٦٥
- ١٦- القرآن يكشف الستار عن عظمة خلق السماوات ١٦٧



- ٤- الاعجاز القرآني من الناحية التاريخية ١٧١
- دور التاريخ في المسائل التربوية ١٧٤
- الخطوط العريضة للتاريخ في القرآن ١٧٥
- ١- كيف خلق «آدم» في القرآن وفي العهدين ١٧٦
- ٢- لقاء ابراهيم عليه السلام بالملائكة ١٨٢
- ٣- منشأ اختلاف اللغات ١٨٧
- ٤- عبادة العجل من قبل بني اسرائيل ١٩١

الفهرس ٣٨٩

٥ - قصة النبي داود عليه السلام وزوجة اوريا ١٩٥

٦ - هل ان سليمان عليه السلام بنى معبداً للاصنام؟ ٢٠٢

٧ - المباراة العجيبه بين يعقوب واخيه عيسو ٢٠٦

٨ - نسبة صنع الخمر الى النبي المسيح عليه السلام ٢١٠

٩ - المسيح عليه السلام ودعوى الالهيه ٢١٤

١٠ - حضور المرأة العاصيه في مجلس السيد المسيح ٢١٦

نتيجة البحث ٢٢٠



٥ - الاعجاز القرآني في سن القوانين ٢٢١

ماهي افضل القوانين ٢٢٤

مزايا القوانين القرآنية ٢٢٦

اولاً: الشمولية والسعة ٢٢٧

ثانياً: تقوية الروابط الاجتماعية ٢٣٢

ثالثاً: احترام حقوق الانسان ٢٣٣

رابعاً: الحرص على تأمين الحرية والأمن ٢٣٥

خامساً: الضمانات الاجرائية ٢٣٨

سادساً: احياء القيم المعنوية ٢٤٣

سابعاً: الاصول الثابتة والمتغيرة ٢٤٥



٦ - الاعجاز القرآني من جهة الاخبار الغيبية ٢٤٩



٣٩٠.....نفحات القرآن / ج ٨

اشارة وتنبيه ٢٥١

١- الاخبار عن هزيمة الاعداء في اقل من عشر سنين ٢٥٣

٢- التنبوء عن نصرين هامين آخرين ٢٥٧

٣- الفنائم الكثيرة في المستقبل ٢٥٩

٤- التنبوء بالهزيمة الساحقة للاعداء ٢٦١

٥- نبوءة اخرى عن الانتصار في معركة بدر ٢٦٢

٦- الوعد بالعودة ٢٦٦

٧- لم يؤت الايمان قط ٢٦٨

٨- انا اعطيناك الخير الكثير ٢٦٩

٩ و ١٠- اولئك لن يضرركم بشيء ٢٧٣

* * *

٧- الاعجاز القرآني من ناحية عدم التضاد والاختلاف ٢٧٧

تمهيد ٢٧٩

سؤال وجواب ٢٨١

الخوارق الاخرى للعادات ٢٨٣

تساؤلات مختلفة حول مسألة شق القمر ٢٩٠

١- اشكال من زاوية تاريخية ٢٩١

٢- من زاوية علمية ٢٩٢

٣- انشقاق القمر بمنظار الآيات ٢٩٣

الجواب ٢٩٤

* * *

٣٩١.....	الفهرس
٢٩٧.....	تجميع القرائن طريق آخر للاطمئنان
٢٩٩.....	تجميع القرائن دليل معمول به في كل العلوم
٢٠٦.....	١- محيط دعوة النبي ﷺ والظروف السائدة فيها
٣١٠.....	٢- خصائصه الاخلاقية وسوابقه ﷺ
٣١٣.....	٣- مضمون الدعوة
٣٢٢.....	٤- عمق تأثيره في محيطه
٣٢٣.....	٥- ماهية الوسائل لبلوغ الهدف
٣٢٧.....	٦- ايمانه وتضحيته في سبيل هدفه
٣٢٩.....	٧- من هم المؤمنون به؟
٣٣١.....	٨- التطور السريع



٣٣٧.....	البشارات والاشارات
٣٣٩.....	تمهيد
٣٤٠.....	انهم يعرفونه جيداً
٣٤٦.....	التبشير بظهور النبي ﷺ في الكتب السماوية
٤٥٢.....	سؤال
٣٥٣.....	جواب
٣٥٧.....	الخاتمية في القرآن الكريم
٣٥٩.....	تمهيد
٣٦٠.....	جمع الآيات وتفسيرها
٣٦٢.....	مفهوم خاتم النبيين

٣٩٢.....	نفحات القرآن / ج ٨
٣٦٤	الاجابة على بعض الاسئلة
٣٦٦	السؤال الثاني وجوابه
٣٦٩	الخاتمية في الروايات الاسلامية
	١ - هل ان السير التكاملي للانسان
٣٧٥	يتلائم مع مسألة الخاتمية
٣٧٥	الجواب
	٢ - هل ان القوانين الثابتة تتماشى
٣٧٦	مع احتياجات الانسان المتغيرة
	٣ - هل يجب حرمان الانسان من فيض
٣٧٨	الارتباط بعالم الغيب
٣٧٩	٤ - هل تتلائم هذه الآيات مع مسألة الخاتمية
٣٨٣	الفهرس

